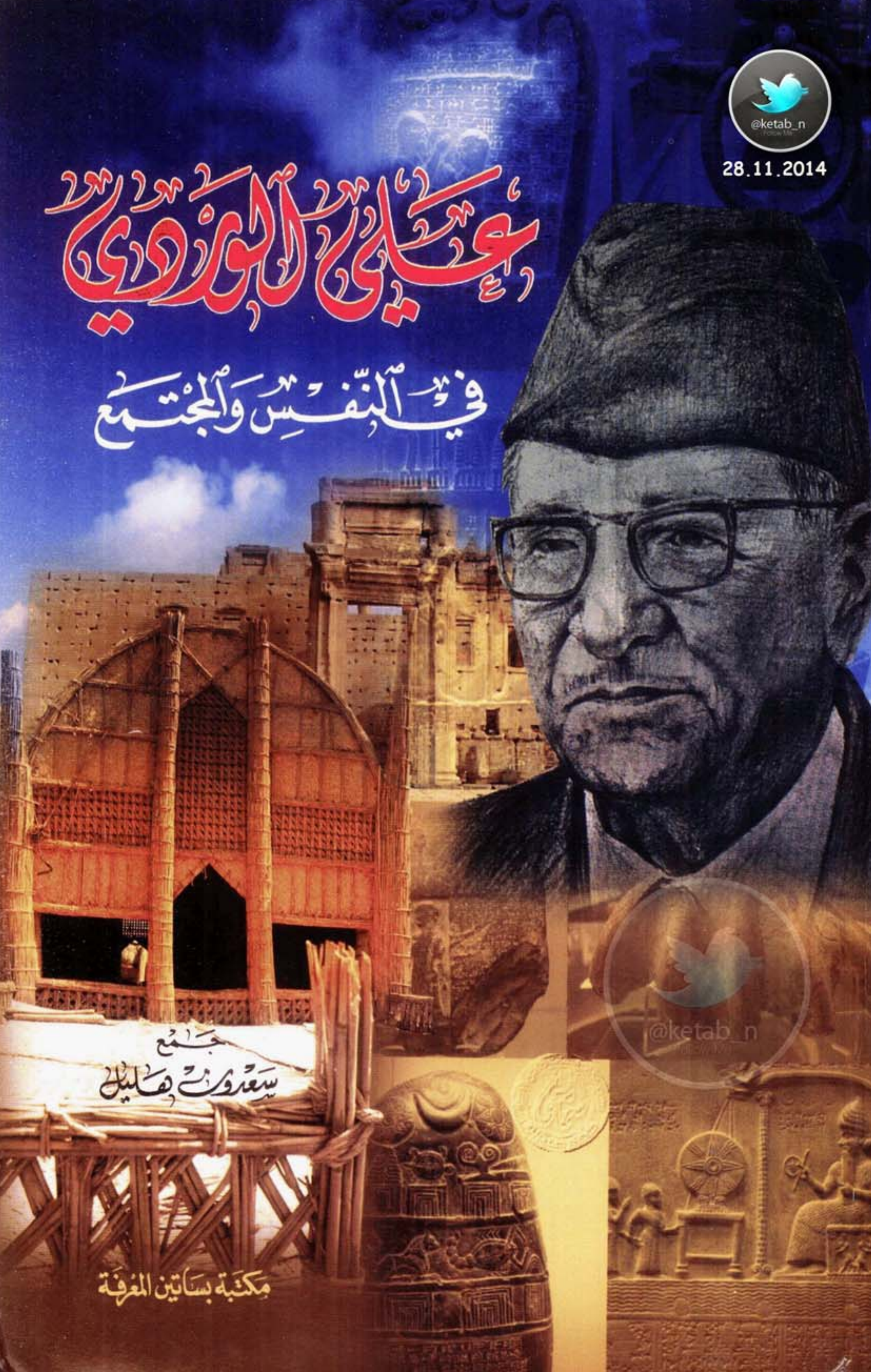
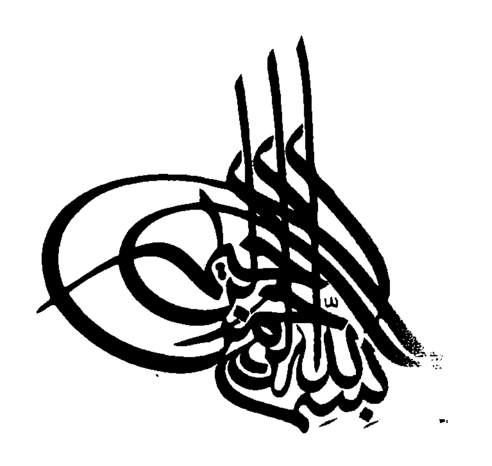


@ketab_n
28.11.2014
علي الوردي
في النفس والمجتمع
جمع
سعدون هليل
مكتبة بساتين المعرفة





جمع

سعدون هليل



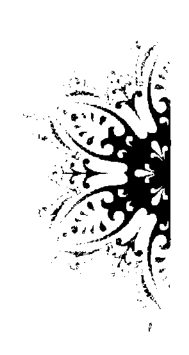
طبع في لبنان

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



مكتبة بساتين المعرفة
شارع المتنبي - بغداد - العراق هاتف : ٠٧٩٠٢٢٧٨٥٥١
بريد إلكتروني: E-mail: basatenmaraf@yahoo.com





المقـدمـة

لم تزل آثار الدكتور علي الوردي، تلقى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة لدى القراء بكل توجهاتهم ونزعاتهم، ولا أحسب أن كاتباً عراقياً لقي من إقبال القراء على مؤلفاته في العراق وخارجه مثلما لقي علي الوردي وهذا ما نلمسه ومن خلال سعي البعض وبكل حرص على اقتنائها. وقد ظهرت حيوية كتب الوردي وخطورتها عندما جوبهت بأقلام معارضة كثيرة، بعثت من فترات صدورها مناسبات أدبية جديرة بالتحقيق.

لقد كان الدكتور علي الوردي مفكراً كبيراً وبدأ يبشر بأسلوبه الخاص منذ منتصف الخمسينيات من القرن المنصرم حيث أخذ شكله النهائي في كتابه الكبير (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) الذي نراه أفضل كتب الوردي طيلة حياته، حتى كأنه أراد من لمحاته الاجتماعية بأجزائها الستة، شرحاً تاريخياً لهذا الكتاب. ويبدو لي من خلال اتصالي به في الثمانينيات أنه كان يمضي قدماً في إكمال مشروعه التاريخي الذي سماه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)، فقد بقي يجمع الكتب التاريخية من دراسات ومذكرات ومقالات، كما كلف من إحدى المكتبات الشهيرة (مكتبة المثنى) وكان يود أن ينتهي منه سنة ١٩٣٩.

ومن الطريف أني سألته مرة:

ـ لماذا لا تنشر الجزء السابع من كتابك؟

- لا أستطيع!

- إن علاقتك بالسلطة جيدة ولا أظن أنها تمنعه!!

- لا . . السبب أن العراق يمر بظروف حرب (يقصد حرب الخليج الأولى). والسلطة في مثل هذه الظروف لا تريد إظهار عيوب مجتمعها.

- يعني.

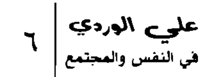
- أنشر بعد أن تضع الحرب أوزارها.

- كان الوردي قد ذكر في الكثير من موضع المناسبة أنه قطع شوطاً طويلاً في كتاب له سماه (كتاب العمر)، ولم يعرف طبيعة كتابه، وهل كان جاداً في ذلك؟، إذ إنه كثيراً ما خلط الجدّ بالهزل في أحاديثه، وقد ذكر بعض مترجميه ذلك، ومنهم الأستاذ مير بصري فقال:

وأنهى قبل وفاته كتابه (طبائع البشر) ووصفه بأنه مشروع العمر ولم يتسن له طبعه قبل وفاته، وهو يتناول البحث في موضوع الإنسان وقدره في الحياة ودوره في صياغتها ورسم أبعاد وجوده فيها.

وفي منتصف الثمانينيات، التقاه الأستاذ حميد المطبعي، فقال له: . . أنا مشغول بكتاب أعتبره كتاب العمر وهو ما تعلمت من الدراسة والتجارب الشخصية وسألته عن عنوانه فقال: هو (حول طبيعة البشر)، إذ هو يبحث في طبيعة الإنسان من مختلف جوانبها، وسوف تطبع منه خمسين ألف نسخة، وهو رقم قياسي في الأقطار العربية، ولكني واثق من أن سوق العراق سوف تهضمه خلال مدة غير طويلة، وقد بذلت في تأليفه أكثر من خمس سنوات، وإني محتاج إلى سنتين أخريين لإتمامه. . أكملت حتى الآن ثمانية فصول وبقي منها اثنان وهذه فصوله. . الإناء، العقل، الشعور، التنازع، الشخصية، الخوارق، النجاح، العظمة، الدين، الجنس. . .

وفي النصف الثاني من الثمانينيات من القرن الماضي، كانت لي صلة

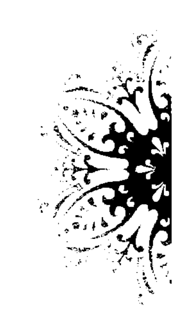


بجريدة (الاتحاد) وهي جريدة (نصف شهرية) ثم (أسبوعية)، صدرت عن اتحاد الصناعات العراقي، ضمت هيئة تحريرها نخبة طيبة من الصحفيين المتقاعدين وغيرهم، وقد اهتمت بتاريخ العراق السياسي والاجتماعي والأدبي، وتطور أمر الجريدة إلى أن استكتبت كبار الكتاب العراقيين أمثال الدكتور علي الوردي والشيخ جلال الحنفي وعبد الحميد العلوجي وعبد الغني الملاح وغيرهم، ووضعت تحت تصرفهم صفحة أو أكثر من كل عدد منها. أما الدكتور الوردي فقد بدأ بنشر فصول من كتاب خطير ـ حسب وصفه للسيد ليث الحمداني نائب رئيس تحرير الجريدة والمشرف عليها. وكانت بعض مقالات الوردي تعرضت لحذف فقرات منها لأسباب معروفة للجميع.

ولا بدَّ من التنبيه إلى أن هناك بعض الخلل في ترقيم الحلقات المنشورة من الكتاب الذي نتشرف بتقديمه، كما أن الوردي كان يقطع كلامه في موضوع ليبدأ الحديث بموضوع آخر، ثم يعود للأول، غير أن الطبعة التي بين يديك خضعت تماماً لخطة الوردي. في الختام، يبدي كاتب هذه السطور شكره للسيد حيدر محمد الذي تعب في إصدار هذه الطبعة التجريبية، والسيد سعدون هليل والسيد زين أحمد النقشبندي الذين أبدوا خدماتهم المكتبية، ولكل من ساهم بتشجيع ناشره على عمله. وتحية للراحل الدكتور علي الوردي وهو في رقدته بعد أن قدم للأجيال أعمالاً حرية بالتنويه وجديرة بالتقدير.

رفعت عبد الرزاق محمد
بغداد





الدوافع القهرية في الإنسان(١)
الوسوسة وعقدة التكلم

إن الدوافع القهرية في الإنسان كثيرة يصعب حصرها، وقد يصح القول إن كل إنسان لا بدّ أن يكون مصاباً بدافع قهري واحد أو أكثر من واحد. ولكن الفرق بين الأفراد من هذه الناحية هو فرق (درجي). فأحد الأشخاص قد يكون دافعه القهري ضعيفاً وفي مقدوره السيطرة عليه بينما يكون في شخص آخر قوياً يصعب السيطرة عليه. إن الدافع القهري يجعل الإنسان يندفع في عمل يضرّه أو يضرّ غيره، وهو يعرف أنه يضرّه ولكنه لا يستطيع التحرر منه. ولم يعرف حتى الآن سبب ظهور الدافع القهري في الإنسان، ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن البحوث العلمية التي تدرس طبيعة البشر ما زالت تشعر بالعجز تجاه الكثير من أسرار هذه الطبيعة، ويمكن أن نقول بوجه عام إن العلوم كلها تقف الآن عاجزة عن فهم أسرار الكون، ولكن العلوم الإنسانية أكثر عجزاً في ذلك من العلوم الطبيعية. ولعل من المناسب أن نذكر هنا الحكمة العربية القديمة التي تمثلت في البيت المشهور:

أتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) العدد (١٠٤) ٢ كانون الثاني ١٩٨٩ (الحلقة الأولى).

ويمكن تصنيف الدوافع القهرية إلى صنفين رئيسيين: أحدهما ذو أثر ذاتي وهو الذي يجعل صاحبه يضرّ نفسه أكثر مما يضرّ غيره، أما الصنف الثاني فهو الذي يجعل صاحبه يضرّ غيره. ولا حاجة بنا إلى القول إن الذي يضرّ غيره لا يدري أنه يضرّ نفسه في الوقت نفسه. فإن إضراره بالغير يؤدي إلى تشويه سمعته وإلى نفرة الناس منه. وهذا لا بدّ أن يؤدي إلى فشله في الحياة أخيراً. وقد رأينا نماذج كثيرة من هذا الطراز من البشر. إن فهم ضحايا دوافعهم القهرية، وهم مجبورون في ما فعلوه لا إرادة لهم فيه ولا اختيار.

س. . الرجاء أن تعطينا نموذجاً من الدوافع القهرية في الإنسان، لكي يأخذ القارئ صورة عامة عنها.

ج. . يمكن أن نعد عقدة الاستكمال أهم الدوافع القهرية وأوسعها انتشاراً بين الناس، وهذا الدافع هو من الصنف الأول أي أنه يضرّ صاحبه أكثر مما يضرّ غيره.

إن هذا الدافع هو الذي يسمى في اللغة الإنكليزية Perfectionim وكان العرب قديماً يسمونه (الوسوسة) ويسميها العامة في العراق (الوسواس) إن هذا الدافع يجعل صاحبه حريصاً كل الحرص على إكمال أي عمل ويقوم بتدقيق شديد له حتى ولو كان التدقيق خالياً من أية فائدة عملية له.

وهذا أمر كان شائعاً في الجيل الماضي ولا سيما في مجال الطهارة والوضوء، فالمصاب بهذا الدافع لا يكتفي بغسل يده مرة أو مرتين، بل هو يظل يكرر الغسل مرة بعد مرة متصوراً أن الطهارة لم تحصل كما ينبغي. أعرف شخصاً مات منذ عهد غير بعيد وكان موسوساً قضى نصف عمره أو أكثر في استكمال الطهارة والوضوء والصلاة. وقد وجدت في مذكرات السيد محسن الأمين الذي توفي في دمشق عام ١٩٥٢ أنه شاهد رجلاً موسوساً وهو يتوضأ في مقبرة ووصف لنا حالته على النحو التالي، فهو يقول ما نصه. . .، . . . . . خرجت يوماً والفصل شتاءً لأتوضأ لصلاة الصبح فشاهدت رجلاً موسوساً في

الطهارة يصب الماء على يديه ورجليه، وينتقل من قبر إلى قبر، ويعيد صب الماء وقد صار جلد يديه ورجليه كأنما صبغ بالنيل لشدة البرد.

فتوضأت وذهبت إلى المنزل وصليت وعدت لأنظر ما انتهى إليه أمره فوجدته على حاله الأول يصب الماء وينتقل من قبر إلى قبر. ولم يزل كذلك حتى طلعت الشمس وفاتته الصلاة.. وهو رجل عاقل متدين ليس فيه ما يعاب إلا هذا الوسواس الذي اتبع فيه أمر الشيطان..

إن السيد محسن الأمين وهو فقيه مشهور وصف ذلك الرجل الموسوس بأنه اتبع في وسوسته أمر الشيطان. وهذا الرأي يوافق عليه أكثر فقهاء الإسلام إذ هم يعتبرون الوسوسة من عمل الوسواس أي الشيطان ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن (الوسواس) هو أحد ألقاب الشيطان.

ألف أحد الفقهاء المعروفين في القرن السادس الهجري وهو ابن قدامة المقدسي، كتاباً صغيراً عنوانه (ذم الوسوسة) وقد جرى هذا المؤلف في كتابه على الرأي القائل بأن الوسوسة من عمل الشيطان، فالموسوس حسب قول المؤلف يعذب نفسه طاعة للشيطان، ومعنى هذا أن الله سوف يعاقبه على وسوسته.

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنناقش هذا الرأي ففي رأيي إن الله لا يعاقب إنساناً على عمل لا إرادة له فيه أو اختيار، فالوسوسة دافع قهري لا سيطرة للإنسان عليه. ومن الممكن القول إنه نوع من الجنون والله لا يحاسب المجنون على جنونه طبعاً.

س.. هل تختصر الوسوسة أو عقدة الاستكمال كما سميتها ـ على الطهارة والوضوء والصلاة أم أنها تشمل نواحٍ أخرى من الحياة؟

ج.. إن الوسوسة لا تقتصر على الطهارة والوضوء والصلاة فقط بل هي قد تشمل كل عمل يقوم به الإنسان في مختلف مجالات الحياة، أعرف شخصاً

كان في بداية شبابه متديناً وكان موسوساً في أمور الطهارة والوضوء والصلاة ولكنه عندما ترك التدين أخيراً صار موسوساً في موضوع (الميكروبات) أي أنه يغسل يديه مراراً لا من أجل الطهارة الدينية بل من أجل الوقاية من الميكروبات.

إن الوسوسة قد تكون في مجال الحساب أو الكتابة أو القراءة أو في تنظيم الأشياء وترتيبها فهو يطلب الكمال فيها ويعيد فيها مرة بعد مرة لأنه يشك في استكمال ما قام به فعلاً وهو يكرر فعله بغية الوصول إلى الكمال المطلق الذي هو مستحيل طبعاً.

يجب أن لا ننسى أن الوسوسة هي من أهم العوامل التي تعرقل نجاح الإنسان في حياته، فالإنسان الناجح هو الذي يستخدم موهبته في المجال الذي يعمل فيه. ومشكلة الوسوسة أنها لا تسمح للإنسان بأن يستخدم موهبته استخداماً طبيعياً إذ إن التدقيق الشديد المبتلى به يجعله يهمل إلهام موهبته ويشغل نفسه بالتكرار الذي لا جدوى فيه.

اتضح الآن علمياً أن كل مهنة في الحياة تحتاج إلى موهبة خاصة بها ومن العبث أن يحاول الإنسان النجاح في مهنة لا موهبة له فيها، فهو يكدح بلا جدوى، ومن الجدير بالذكر أن الموهبة تلقائية ولا شعورية في الغالب والذي يريد أن يستثمر موهبته إلى الدرجة القصوى يجب أن ينسجم معها ويستجيب لإلهامها دون تردد أنه يدري أنه معرض للخطأ في أعماله ولكنه لا يبالي بذلك، لأن المنفعة التي تأتيه من الانسجام مع الموهبة هي أكثر من الضرر الذي ينتج من الخطأ.

مشكلة الموسوس أنه لا يفهم هذا أو هو لا يستطيع أن يفهمه وهو كثيراً ما يفقد إلهام الموهبة من جراء انشغاله في التدقيق والاستكمال إنه يخشى من الخطأ وينسى أن الخطأ محتوم في الإنسان لا مفرّ منه.

إن الموسوس يريد أن يجعل عمله كاملاً لا خطأ فيه ولا نقص وهو لا يدري أن الخطأ لا مناص فيه في كل عمل يقوم به الإنسان.

إن الإنسان ناقص بطبيعته وهو لا يستطيع أن يصل إلى الكمال مهما حاول ولهذا فإن الشخص الذي يريد النجاح في مهنته أو عمله يجب أن يندفع مع إلهام موهبته، ولا يقترف لما يقع فيه من الخطأ. أرجو أن لا يفهم القارئ من هذا أني أشجّع على ارتكاب الخطأ فكل ما أردت قوله هو أن الخطأ محتوم وأن الإنسان لا يستطيع تجنب الخطأ مهما حاول وهذا القول موجه إلى الموسوسين بوجه خاص لأن خوفهم من الخطأ أدى إلى ضياع مواهبهم.

أقف في حديثي عند هذا الحدّ ولعلني أستطيع في فرصة قادمة أن أواصل الحديث في الدوافع القهرية الأخرى، فالدوافع القهرية في الإنسان كثيرة كما قلنا، ولا يمكن أن يخلو منها أي إنسان مهما كان، وعلى القارئ السلام.



دوافع قهرية في الإنسان

السرقة.. المماطلة.. الحرص.. الإيذاء وأشياء أخرى[1]

في العدد الماضي من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي عن الوسوسة، أي عقدة الاستكمال التي يصاب بها بعض الأفراد وتؤدي بهم إلى تعذيب النفس كما تؤدي إلى الفشل في الحياة.

وفي هذا العدد يواصل الوردي حديثه حول دوافع أخرى غير دافع الوسوسة.

إن دافع الوسوسة الذي تحدثنا عنه في العدد الماضي مقصور على الضرر بالنفس وتعذيبها، ولكن هنالك دوافع أخرى لا تقتصر على الإضرار بالنفس بل هي تضر بالغير وهي كثيرة وقد ابتلي بها الكثيرون منا مع الأسف وهم فيها مجبرون لا إرادة لهم فيها ولا اختيار أذكر فيما يلي نماذج منها:

دافع السرقة: فالإنسان قد يكون غنياً ولكنه يجد نفسه مدفوعاً إلى سرقة بعض الأشياء التافهة التي هو في غنًى عنها، كملعقة شاي في مقهى أو كتاب من مكتبة، أو علبة من مخزن فهو يبذل جهده في مغافلة الناس من أجل السرقة منهم وهو قد ينكشف أمره وينال الفضيحة ولكنه لا يرعوي بل يظل خاضعاً لدافعه القهري حتى آخر أيامه.

(١) العدد (١٠٥) ٩ كانون الثاني ١٩٨٩.

دافع المماطلة: ونقصد به ميل الشخص للمماطلة في دفع الديون المستحقة عليه، فهو قد يكون قادراً على الوفاء بدينه ولكن نفسه لا تطاوعه على ذلك. وتراه يكيل الوعود لدائنيه مرة بعد مرة وتسوء سمعته بعد ذلك فلا يبالي وكأنه يشعر أن أكل الدين من نوع الغلبة والشطارة تجاه الغير.

دافع الحرص: هو شدة البخل، وصاحبه يحرص على المبلغ التافه بالرغم من ثروته الكبيرة فهو يرغب في تضخيم ثروته مع علمه أنها تذهب إلى غيره بعد موته، وهو يظل على حرصه هذا حتى الساعة الأخيرة من حياته.

دافع الإيذاء: وصاحبه يحب إيذاء الناس ولا يحب نفعهم أو مساعدتهم فهو يرمي سيجارته قبل إطفائها على المواد القابلة للالتهاب بغية إشغال النار فيها أو يرمي قشور الفواكه في وسط الشارع لكي تنزلق بها أقدام المارة، أو يحطم أي شيء يقع تحت يده حين لا يرى أحد يراقبه، أو ينم بين اثنين لكي يثير النزاع والعداء بينهم إلخ.. وهو لا يرتاح نفسياً إذا رأى أحداً ينتفع من شيء فقد يحاول أن يعرقل وصول الشيء إلى الذي ينتفع به. وإذا وجد شخصاً مستضعفاً لا عون له عمد إلى الاعتداء عليه أو إيذائه ثم يختلق عذراً يبرر به الاعتداء.

دافع الاستهزاء: وصاحبه يبحث عن شخص أضعف منه لكي يستهزئ به ويضحك عليه. فهو يشعر في أثناء ذلك بنوع من الاستعلاء والتفوق وإذا كان صاحب هذا الدافع مصاباً بدافع الإيذاء أيضاً فإنه لا يكتفي بالاستهزاء تجاه ضحيته بل يسعى إلى إيذائه دون أن يخالجه أي شعور بالرهبة.

دافع الكذب: وصاحبه لا يستطيع أن يقول الصدق فيما يتحدث به فهو لا بدّ أن يكذب فيه أو يبالغ فيه على الأقل. ومن الجدير بالذكر أن الكذب أمرٌ لا مناص منه في الحياة الاجتماعية وقد يلجأ إليه كل إنسان قليلاً أو كثيراً ومن حيث يشعر أو لا يشعر. ولكن هذا الكذب العام يختلف عن كذب المصاب بدافع الكذب القهري. فالكذب العام إنما يلجأ إليه الناس عن قصد لما يرجون

فيه من نفع أو يدرأون ضرراً، أما المصاب بدافع الكذب فهو يكذب من غير قصد. أو هو بالأحرى لا يستطيع أن يصدق في كلامه فهو ضحية دافعه القهري وهو يضرّ نفسه بذلك ويشوه سمعته دون مبالغة.

دافع المغابنة: وهذا الدافع قد يصاب به بعض الباعة والحرفيين في المجتمعات المختلفة وصاحبه يصعب عليه أن يصدق مع الزبون أو يخلص له. وهو ينتهز أية فرصة تتاح له كي يغش الزبون أو يغبنه. إن مصلحته تقضي عليه مع زبائنه لكي تتحسن سمعته ويروج سوقه في الأمد البعيد، ولكن دافعه القهري يمنعه من ذلك إذ هو يفضل الربح العاجل القليل على الربح الأجل الكثير.

دافع الحسد: وهذا الدافع موجود في جميع الناس على درجات متفاوتة. فمن طبيعة الإنسان أنه لا يرتاح حين يرى قريناً له قد تفوق عليه في شيء أو نال مكانة بين الناس أعلى من مكانته، ولكن بعض الأشخاص يبلغ بهم الحسد درجة المرض. فالواحد منهم يشعر بالحرج الشديد تجاه الناس كلهم من غير تفريق وهو لا يكاد يسمع بمصيبة حلت بأحد منهم حتى يغمره الفرح الطاغي.

دافع الاغتياب: وهذا الدافع مرتبط بدافع الحسد في بعض الوجوه وصاحبه يحب أن يتكلم بالسوء عن كل شخص غائب، ولا يكاد يسلم أحد من لسانه. إنه يجد لذة في البحث عن مصائب الآخرين وفي التحدث عنها وهو قد يجد رفاقاً يشبهونه في هذا الدافع فيقضي أوقات فراغه معهم ليشاركهم في التمتع بلذة الاغتياب.

دافع الكلام: وصاحبه إذا اجتمع مع الآخرين في مجلس لا يحب أن يرى أحداً يتكلم غيره فإنه يشعر بأن الكلام في المجلس نوع من الغلبة والتفوق وهو لا يريد أن يتفوق أحد عليه. إنه حين يستمع إلى حديث غيره يشعر بالضيق وترى عينيه تدوران بحثاً عن فرد يقاطع بها حديث غيره لكي يبدأ هو بالحديث. وإذا كان المصاب بهذا الدافع محباً للجدل فإن مشكلته تكون أشد تعويضاً فهو يجادل في كل موضوع وإن كان هو لا يعرف عن الموضوع سوى معلومات

محدودة وإذا سمع من أحد قولاً مخالفاً لمعلوماته المحدودة أسرع إلى تصحيحه أمام الحاضرين لكي يظهر سعة علمه وحذقه لهم وهو لا يبالي حين يظهر أنه كان مخطئاً في تصحيحه. والملاحظ في بعض المصابين في هذا الدافع أنهم لا يملكون القدرة على الحديث الجيد، إذ هم يتعلثمون فيه أو يتأتئون، ولكنهم يحسبون أنهم الفصحاء المفوهون وكثيراً ما يشعر المستمعون بالملل والتضايق في حديثهم بينما هم يظلون مصرين على متابعة الحديث ظناً منهم أن المستمعين مسرورون.

دافع الخصام: وهو الدافع الذي يوصف في اللغة الإنكليزية بـ (القدرة المنحوسة على خلق الأعذار) وصاحبه لا يستطيع أن يحتفظ بصديق له مدة طويلة. فهو لا بدّ أن يجد سبباً للخصام معه فيلاومه ثم يترك صداقته ويحمل الحقد عليه، إنه يطلب من الصديق أن يكون كاملاً لا نقص فيه مع العلم أن ليس في الدنيا صديق من هذا الطراز فإذا وجد في صديقه أقل هفوة شهر عليه سيف اللوم والتقريع، ومما يلفت النظر أن نفسه قد يكون من أكثر الناس عيوباً، غير أنه لا يدرك ذلك في نفسه وقد يعد نفسه مبرأً من كل عيب لأن تفكيره موجه نحو التحري عن عيوب الغير ونسيان عيوب نفسه.

دافع العصبية: وهو الذي يسمى في اللغة الإنكليزية (prejudice) وصاحبه يضمر بغضاً عميقاً وحقداً على كل من ينتمي إلى قوم غير قومه أو طائفة غير طائفته، فإذا لمح أحداً منهم شعر بالتوتر العصبي ضده، وقد يعمل على الاعتداء عليه وهو إذا كان مصاباً بدافع الإيذاء علاوة على دافع العصبية فإنه ينتفع في اعتدائه بلذة عارمة لا تعادلها لذة أخرى إذ هو يجد حينها أنها الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل.

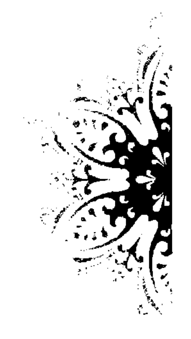
هناك دوافع قهرية أخرى لا يسع المجال لذكرها وبعضها لا يستحسن ذكرها لارتباطها بالجنس، ويجب أن لا ننسى أن بعض الدوافع القهرية قد تكون

نافعة للغير لا ضارة بهم، كدافع الرحمة مثلاً الذي هو على النقيض من دافع الإيذاء الذي ذكرناه.

حين نستعرض الدوافع القهرية ندرك خطأ الرأي القديم القائل بأن الإنسان حيوان عاقل. والواقع أنه حيوان عجيب مليء بالمتناقضات وهو كثيراً ما يندفع في أمور ولا يدري لماذا اندفع فيها؟

إن كل إنسان ـ كما قلت سابقاً ـ لا بدّ أن يكون مصاباً بشيء من الدوافع القهرية قليلاً أو كثيراً والواقع أن كل شخص لا يمكن أن يخلو من مساوئ أو محاسن على وجه من الوجوه ولو كشف الله الغطاء عن حقيقة الكثيرين من الناس لرأينا فيهم من العيوب ما يثير الدهشة ولكن الله ستر عليهم فجعل عيوبهم قليلة نسبياً ومن السهل إخفاؤها.





اللاشعور[1] وأثره في حياة الإنسان

إن مصطلح الشعور أصبح كثير التداول شائع الاستعمال في الكتابات والمؤلفات الحديثة ولكن كثيراً من القراء لا يعرفون عنه إلا فكرة غامضة غير كافية.

وقد اتصل محرر هذه الصفحة بالدكتور علي الوردي وأجرى معه حديثاً حول هذا الموضوع ننشر فحواه فيما يلي:

س: ما هو المقصود باللاشعور. بالدرجة الأولى وهل فطن إليه القدماء أو استفادوا منه؟

ج: يمكن القول إن اللاشعور وأثره في حياة الإنسان قد فطن إليه البشر ببديهيتهم منذ قديم الزمن حيث أدركوا أن بعض أفعال الإنسان وأفكاره ليست نتاج تفكيره الواعي، بل هي نتاج قوى خفية تؤثر فيه من حيث لا يدري أو لا يشعر. وقد عزوا ذلك إلى الجن والشياطين في بعض الأحيان وإلى الآلهة في أحيان أخرى.

يجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما كان شعراء العرب قديماً يعتقدون به من إلهام الشياطين لهم فكان لكل واحد منهم شيطان خاص به يلهمه الشعر في

---

(١) العدد (١٠٥) ١٦ كانون الثاني ١٩٨٩.

زعمهم فإذا غاب عنه شيطانه ضاع عليه نظم الشعر. إن هذا يدل على أنهم كانوا يدركون أن العقل الواعي ليس هو منبع الإلهام في شعرهم بل إن هناك منبعاً آخر له لا يخضع للإرادة أو التفكير الواعي.

ومما يلفت النظر أن القدماء كانوا ينسبون كلاًّ من العبقرية والجنون إلى تأثير الجن ومن هنا جاءت لفظة (مجنون) في اللغة العربية كما جاءت لفظة (عبقري) فقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون بوجود وادٍ في موضع بعيد من جزيرة العرب يسكنه الجن وينسبون إليه كل أمر بديع عجيب ولعل هذا له صلة بلفظة (جيمس) الإنكليزية التي تعني العبقرية.

يقال إن أول من لفت الأنظار إلى موضوع اللاشعور في العصر الحديث هو الفيلسوف الألماني المعروف (لايبنتز) المتوفى في عام ١٧١٦ ولكن بحثه في اللاشعور لم يلق اهتماماً واسع النطاق بل كان أثره مقصوراً على المجال الفلسفي والأكاديمي فقط ثم ظهر فرويد في أواخر القرن التاسع عشر وكانت له اليد الطولى في بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً وقد أثار بحثه ضجة كبرى في العالم وقد نال رواجاً منقطع النظير وقد وصف وليم جيمس نظرية فرويد بأنها أعظم اكتشاف خلال مائة عام.

وقد يصح أن نقول إن نظرية فرويد اللاشعور مثلما قيل عن المنطق العقلاني القديم الذي وضعه أرسطو فكل واحد منهما كان في حينه ثورة تقدمية ساعدت على تطوير الفكر البشري ولكنه صار بعدئذ عقبة في طريق هذا التطور.

إننا إذ نعترف بفضل فرويد لا يجوز أن نغالي فيه على نحو ما غالى العقلانيون في المنطق القديم أن الدراسات الحديثة أظهرت كثيراً من النقائض في نظرية فرويد. وقد نشر أحد الباحثين في أمريكا مؤخراً بحثاً وصف فيه نظرية فرويد بأنها (بمثابة فقاعة صابون سرعان ما تتبدد في الهواء عند مواجهتها

للحقائق العلمية) ووصف النظرية باحث آخر قائلاً: (إنها مثل بناية كبيرة جداً ولكنها شيدت وفقاً لخطة رديئة).

إن فرويد له فضل كبير في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي لأنه كان أول من لفت الأنظار في العصر الحديث إلى موضوع اللاشعور وأثره في حياة الإنسان ولكن عيب فرويد أنه جعل اللاشعور مقصوراً على الرغبات المكبوتة ولا سيما الرغبات الجنسية وقد تبين الآن أن اللاشعور عالم زاخر يكمن في مختلف الدوافع والعوامل وليس مقصوراً على دافع واحد كما تصور فرويد.

وعلى كل حال فقد راجت نظرية فرويد في بداية هذا القرن رواجاً عجيباً مذهلاً.

وربما كان من أسباب رواجها أنها فضحت سلوك الإنسان من الناحية الجنسية وتحدثت بصراحة عن هذا الموضوع الذي كان المفكرون قبلئذٍ يتحاشون الخوض فيه.

وكان من نتائج رواج النظرية الفرويدية أنها دخلت في عالم الأدب وتنبّاها بعض مشاهر الأدباء وصارت بعض مصطلحات فرويد ـ كعقدة (أوديب) ـ محوراً للكثير من الروايات والمسرحيات وانتشرت عدوى ذلك إلى اللغة العربية وأصبحت نظرية فرويد في نظر الكثيرين في الأقطار العربية كأنها الكلمة النهائية في علم النفس وما زالت هذه (الموضة) شائعة لدى بعض منهم حتى يومنا هذا.

س: الملاحظ في الكثير من الكتاب العرب أنهم ما زالو في المرحلة الفرويدية لم يتجاوزوها مع العلم أنها كما ذكرت أنت عنها أصبحت قديمة وغير مواكبة للتطور في هذا المجال والرجاء منك أن تعطينا صورة عامة عن الشعور في ضوء الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة؟

ج: إن اللاشعور في مفهومه الحديث يختلف عما فهمه فرويد منه فهو لا

يحتوي على الرغبات المكبوتة فقط، بل هو يشمل محتويات أخرى عديدة وهذه المحتويات كنت قد ذكرتها وكررت ذكرها في كتبي ومقالاتي، ولعل من المجدي في هذه المناسبة أن نعيد ذكرها مرة أخرى لما لها من أهمية كبيرة في حياتنا العملية ومن المؤسف أن نقول إني وجدت بعض القراء لم يقتنعوا بصحة ما ذكرته وكررت ذكره في هذا الشأن أو هم لا يريدون أن يقتنعوا. فهم ما زالوا يعيشون في قوقعتهم العقلانية القديمة، حيث يحسبون أن الإنسان من الممكن إصلاحه عن طريق المخاطبات والمقالات الرنانة، إنهم يجب أن يعلموا أن الإنسان لا يمكن إصلاحه أو التأثير فيه إلا بعد فهم طبيعته التي خلقه الله عليها والتغلغل في أعماقه من خلالها، من الممكن أن نطلق مصطلح اللاشعور على جميع الدوافع التي تدفع الإنسان في مختلف الحياة وهو لا يعرف مصدره فيه فالإنسان حين يندفع بها يتصور أنه فعل ذلك بإرادته واختياره بينما هو بالواقع مسيّر من حيث لا يدري.

وصف أحد الباحثين اللاشعور بقوله: إنه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد وكان الباحث يعني بذلك أن اللاشعور يضم جوانب إيجابية وسلبية معاً وسنحاول فيما يلي ذكر عدد من الجوانب السلبية من اللاشعور وهي التي لها أثرها الضار في حياة الإنسان الاجتماعية على أن نذكر الجوانب الإيجابية في فرصة أخرى.

١ ـ التعصب التقليدي:

ونقصد بالتعصب التقليدي ميل الإنسان إلى التمسك بالمعتقدات والعادات والقيم والأعراف التي نشأ عليها في طفولته والتي تسمى باللغة الإنكليزية واللغات الأوروبية الأخرى (Cuiture) والتي أفضل ترجمتها إلى مصطلح التراثية.

فمن طبيعة الإنسان بوجه عام أنه ينشأ على معتقدات وتقاليد معينة يتصور

أنها أفضل المعتقدات في العالم وإن كانت هي مليئة بالخرافات والأباطيل فهو يركز نظره على خرافات المجتمعات الأخرى وينتقدها انتقاداً لاذعاً بينما هو يغض النظر عن خرافات مجتمعه وقد يأتي بالأدلة والبراهين لتبريرها أو تمجيدها وهذا هو الذي جعل الإنسان يقاوم كل دعوة جديدة لإصلاح مجتمعه مهما كانت الدعوة فاضلة في حدّ ذاتها.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن أشار إلى ذلك في بعض آياته حيث ذكر تمسك كل قوم بما وجدوا عليه آباءهم وكيف أنهم يحاربون كل نبي يظهر بينهم وإن كان يدعو إلى معتقدات وتعاليم هي أفضل من تلك التي نشأوا عليها.

وهنا يجب ألا ننسى أن الإنسان في تعصبه التقليدي لا يخضع لتفكيره المنطقي الواعي بل هو يخضع لدافع لا شعوري لا إرادة له فيه ولا اختيار وقد يصح القول إن الإنسان في حياته الاجتماعية يخضع لتنويم يشبه التنويم المغناطيسي من بعض الوجوه وهو الذي يمكن تسميته (التنويم الاجتماعي) فالإنسان يظل خاضعاً لهذا التنويم ما دام قابعاً في بيئته الاجتماعية التي نشأ فيها ولكنه لا يكاد يفارق تلك البيئة أو يتصل ببيئات أخرى حتى يبدأ التنويم الاجتماعي بالانقشاع عنه تدريجياً فهو في ظروفه الجديدة يتلقى إيحاءات تختلف عن الإيحاءات التي اعتاد عليها سابقاً وهذه إيحاءات قليلة أو كثيرة.

٢ ـ الاتجاه العاطفي:

ونقصد به ميل الإنسان إلى النظر في الأمور بنظرة تحيزية تبعاً لما يشعر به من عاطفة إيجابية أو سلبية نحوها فهو مثلاً إذا أحب شخصاً اتجه تفكيره نحو المبالغة في محاسن هذا الشخص وغض النظر عن مساوئه وهو يفعل العكس من ذلك حين يكره شخصاً، ويجب أن لا ننسى أن الإنسان حين يركز نظره على المحاسن أو المساوئ يتصور أنه يفعل ذلك طالباً للحق والحقيقة وهو لا يدري أنه آلة صماء بيد العاطفة اللاشعورية الكامنة في أعماق نفسه إنه قد يغير

نظرته هذه بمرور الأيام تبعاً لتغير عاطفته ولكنه لا يعترف بذلك بل هو يعلّل تغير نظرته بكونه قد اطلع على بعض الحقائق التي لم يكن مطلعاً عليها من قبل وقد رأينا نماذج من هذا الطراز غير قليلة.

٣ ـ الدافع المصلحي:

ونقصد به حب الإنسان لمصلحته الخاصة وبحثه عن كل ما ينفعها أو يدرأ الضرر عنها وهذا يمكن ملاحظته بوضوح في قاعات المحاكم فكل من لديه قضية في المحكمة نراه منهمكاً في البحث عن القرائن والأدلة التي تساعد على نجاح قضيته وهو يتصور أنه على حق في قضيته وأن خصمه على باطل فإذا حكم القاضي في مصلحته صار في نظره قاضياً عادلاً نزيهاً (كثر الله من أمثاله) أما إذا حكم القاضي في غير مصلحته اعتبره ظالماً أو مرتشياً (ألف لعنة عليه).

وهذا أمر نلاحظه أيضاً عندما ينشب نزاع بين فريقين من الناس فأنت حين تستمع إلى ما يقوله الفريقان من الناس موضوع النزاع تجده يذكر جانباً من الحقيقة غير الجانب الذي يذكره الجانب الآخر، إن صاحب المصلحة هو كصاحب العاطفة لا يستطيع أن ينظر للأمور نظراً موضوعياً محايداً مهما حاول فهو متحيز في نظره ولكنه لا يدري أنه متحيز.

٤ ـ الأنوية:

ونقصد بها شعور الإنسان بـ (الأنا) وسعيه الدائب نحو رفع مكانتها في نظر الآخرين فهذه طبيعة بشرية عامة لا يستطيع الإنسان التخلص منها تخلصاً تاماً مهما حاول، فالإنسان يسعى طيلة حياته نحو نيل المكانة العالية أو السمعة الواسعة بين الناس وهو لا يقف عند حدٍّ في ذلك حتى يدركه الموت فيستريح ويريح، ومشكلة الإنسان أنه حين يكون مدفوعاً بهذه الأنوية الطاغية لا يدري أنه مدفوع بها أو هو لا يريد أن يدري وحين يسأله أحد عن السبب الذي يدفعه

إلى هذا السعي الدائب يجيب أنه لا تهمه نفسه بمقدار ما يهمه حب الحق والحقيقة أو المصلحة العامة أو التقرب إلى الله أو غير ذلك من التبريرات الظاهرية، إن الإنسان يخدع نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين.

٥ ـ التجارب المنسية:

إن الإنسان كثيراً ما تمر به حوادث سارة أو مؤلمة ثم ينساها بمرور الزمن وهو يظن أنه نسيها تماماً ولكنه لا يدري أن الرقي منها ظلت كامنة في أعماق لا شعوره وهي تؤثر في سلوكه أو تفكيره على وجه من الأوجه، خذ على سبيل المثال رجلاً رأى امرأة لها شيء من الشبه بأمه التي ماتت من زمن بعيد فهو قد يقع في حب المرأة من النظرة الأولى ويعدها جميلة جداً بينما هي في الواقع ليست جميلة بالدرجة التي يتصورها وقد يعجب الناس من شدة حبه لها لأنهم لا يعرفون السبب اللاشعوري الذي دفعه إلى ذلك.

وخذ مثلاً آخر في رجل حدثت له حادثة مؤلمة في وقت كان يسمع فيها أغنية معينة فإن هذه الأغنية تبقى مرتبطة في ذهن الرجل في الحادثة المؤلمة وهي قد تكون في المستقبل من أبغض الأغاني إليه دون أن يعرف السبب الكامن وراءها.

وخذ مثلاً ثالثاً في رجل كان له عدو من سالف الأيام وكان يكرهه كرهاً شديداً ثم مات ذلك العدو ولكن ذكراه ظلت كامنة في ذهن الرجل فهو لا يكاد يرى أحداً يشبه ذلك العدو في بعض ملامحه أو حركاته حتى يشعر بالكره له وهو قد يعلّل هذا الكره بتعليلات أو تبريرات وهمية يختلقها لنفسه ولو أنه بحث في أعماق لاشعوره لوجد السبب الحقيقي كامناً فيه.

٦ ـ الرغبات المكبوتة:

إن الإنسان كثيراً ما تكون لديه رغبات محرمة أو غير مقبولة اجتماعياً فهو

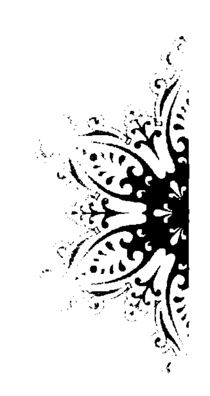
يخجل من إظهارها ويحاول كبتها في أعماق نفسه ولكنها لا تبقى دائماً بل هي تحاول التنفيس عن نفسها بالظهور بمظهر آخر غير مظهرها الحقيقي.

رأيت في أحد الأيام رجلاً قوياً من الذين يطلق عليهم لقب (الأشقياء) وهو يعتدي على رجل مستضعف ويكيل له الضربات والصفعات. ولما سألته عن سبب ضربه الرجل قال عنه إنه (يكفر) وقد اتضح لي أن هذا الرجل القوي مصاب بداء (الصادية) أي إنه يتلذذ بالاعتداء والقسوة والإيذاء ولكنه لا يستطيع أن يشبع هذه الرغبة بغير عذر مقبول اجتماعياً، وشاءت الصدفة أنه سمع الرجل المستضعف ينطق في ساعة غضب بكلمات تتضمن سبّاً لأحد الأئمة فوجد صاحبنا القوي في ذلك فرصة سانحة لإشباع رغبته في القسوة وانهال على المسكين بالضربات والصفعات الشديدة متظاهراً أنه يفعل ذلك في سبيل الله ومن أجل الحرص على الدين.

قد يصح أن نقول إن كثيراً من الذين يتظاهرون بحرصهم على الدين أو المصلحة العامة أو الحق والحقيقة إنما هم في أعماقهم يطلبون إشباعاً لرغبات لهم مكبتوتة وإني لا أزال أذكر أولئك الذين كانوا يسلخون جثة نوري في عام ١٩٥٨.

فالواقع أنهم كانوا في عملهم هذا يشبعون رغبة مكبوتة ولكنهم ينكرون ذلك ويتظاهرون بأن الذي دفعهم إلى عملهم هذا هو حب الوطن فقط لا غير وإني واثق أن ثورة ١٩٥٨ لو كانت قد أُخفقت لفعلوا بعبد الكريم قاسم مثلما فعلوه بنوري سعيد.

أقف عند هذا الحد في ذكر السلبية من اللاشعور وهي الجوانب التي تجعل الإنسان متحيزاً في تفكيره وبعيداً عن العدل والموضوعية، أما الجوانب الإيجابية من اللاشعور فسوف أحاول شرحها في فرصة أخرى ـ قل إن شاء الله.

اللاشعور...[1]

في جوانبه الإيجابية!

ذكرنا من قبل قول أحد الباحثين في وصف اللاشعور وهو أنه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد، فالمقصود بالنفايات هي الجوانب السلبية التي شرحناها في الحلقة الماضية. أما منجم الذهب فالمقصود به الجوانب الإيجابية من اللاشعور وهي الجوانب التي نحاول شرحها الآن.

يمكن القول إن معظم المخترعات الكبرى والأفكار المبدعة التي ساعدت على تطوير المجتمع البشري عبر التاريخ هي نتاج ومضات خاطفة انبثقت في لا شعور بعض الأفراد بين حين وآخر وكذلك يمكن القول إن معظم الناجحين في الحياة قد استمدوا نجاحهم من استثمار مواهبهم اللاشعورية على وجه من الوجوه.

هناك جانبان في اللاشعور لهما أثرهما الكبير في إبداع الإنسان أو في نجاحه، وكثيراً ما يقع الإنسان في خطأ مهلك حين يعتمد في حياته على التفكير المنطقي الواعي وحده ويهمل على ومضاته الإبداعية أو الخارقة التي تنبثق من عقله الباطن.

---

(١) العدد (١٠٧) ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٩.

ذكرت في حلقة ماضية شيئاً عن داء (الوسوسة) أو (الوسواس) كما يسميه العوام في العراق، فالمصاب بهذا الداء قد يكون موهوباً بدرجة عالية من الذكاء أو ببعض القدرات الخارقة ولكنه لا يستطيع استثمارها في حياته لأنه مشغول بعقدة الاستكمال التي تسيطر عليه فلا يستجيب لومضات مواهبه اللاشعورية أو هو لا يهتم بها وكثيراً ما ينتهي المصاب بهذا الداء إلى الفشل الذريع في الحياة.

إن العظيم أو الناجح من الناس هو القادر على التمييز بين محتويات لا شعوره فيستثمر الجوانب النافعة منها بينما هو يراقب الجوانب الضارة فلا يتيح لها أن تعبث به كما تشاء.

نلاحظ في بعض الأفراد أنهم قادرون على استثمار الجوانب الإيجابية من لاشعورهم ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون أن يتخلصوا من مساوئ الجوانب السلبية فترى أحدهم بارعاً في مهنته ولكن التعصب التقليدي أو العاطفة والأنوية تسيطر عليه وتفقده كثيراً من نتائج براعته.

ويمكن أن نقول مثلاً عند العالم أو الأديب أو السياسي أو الإداري فالواحد منهم قد يكون موهوباً في هذا المجال الذي يعمل فيه ولكنه لا يستثمر موهبته كما ينبغي لأن الجوانب السلبية من لاشعوره تربك عمله وتخلق له خصوماً ليس هناك ما يدعو لخصومتهم.

س: أرجو أن تشرح لنا الجوانب الإيجابية من اللاشعور على نحو ما شرحت لنا من الجوانب السلبية منه سابقاً.

ج: يجب أن أعترف أن هذا الموضوع الذي تريد شرحه هو فوق طاقتي أو هو بالأحرى فوق طاقة العلم في وضعه الحاضر، إن مواهب الإنسان كثيرة ومتنوعة وما زال العلم يشعر بالعجز عن اقتناء الكثير منها إن الطبيعة البشرية وما فيها من ألغاز ما زالت في معظمها غير معروفة وقد يصدق عليها ما قال الشاعر العربي قديماً:

أتـحـسـب أنـك جـرم صـغـيـر وفـيـك انـطـوى الـعـالـم الأكـبـر

إن مواهب الإنسان كثيرة ومتنوعة كما أشرنا إليه آنفاً ومن الممكن تصنيفها إلى صنفين رئيسيين هما المواهب الذكائية والمواهب الخارقة.

في عام ١٩٨٢ جاء الباحث الأميركي هورد غاردتر بنظرية جديدة مفادها أن الذكاء ليس نوعاً واحداً بل هو سبعة أنواع، فالفرد قد يكون ذا درجة عالية في أحد أنواع الذكاء بينما هو ذو درجة واطئة في نوع آخر منهم. خذ مثلاً آينشتاين وهو العبقري المشهور صاحب النظرية النسبية التي اعتبرت في حينها طفرة في عالم الفيزياء والفلك فهذا الرجل كان في طفولته لا يجيد الكلام وظل كذلك حتى آخر حياته وقد ظن أهله أنه لا خير فيه لأنهم كانوا يقيسون الذكاء بفصاحة اللسان وجودة النطق كما هو الحال في الجيل الماضي عندنا فهم لم يكونوا يعرفون أن آينشتاين لديه درجة عالية جداً من نوع آخر من الذكاء ولو كان آينشتاين قد عاش في مجتمع مختلف لَمَا تمكن من استثمار ذكائه الممتاز ولبقي طيلة حياته لا خير فيه.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن أديسون وهو المخترع العظيم الذي لم يظهر في تاريخ البشرية أكثر اختراعاً منه فهو لم ينجح في المدرسة في طفولته وكتب عنه مدير المدرسة أنه متخلف في ذكائه، فالمدير كان يقيس الذكاء بمقياس لم يكن منطبقاً على أديسون ولو كان أديسون يعيش في مجتمع مختلف لصار مصيره كمصير آينشتاين (لا خير فيه).

وحين نأتي إلى المواهب الخارقية نجد أنها أكثر تنوعاً وغموضاً من المواهب الذكائية وهذا الموضوع هو الذي اختص به علم الخارقية الجديد أي (البارسكولوجيا) كما يسمى في اللغة الإنكليزية واللغات الأوروبية الأخرى.

فقد اتضح الآن في ضوء هذا العلم أن كثيراً من الناس لديهم قدرات خارقة كقراءة الأفكار، أو رؤية الأشياء المحجوبة أو البعيدة، أو تحريك الأشياء بالنظر، أو التنبؤ بحوادث المستقبل، أو المقدرة على شفاء الأمراض أو غيرها،

ولكن كثيراً من هؤلاء الذين يملكون مثل هذه المواهب لايستطيعون أن يستثمروها في حياتهم أو هم لا يعرفون أنهم يملكونها فتضيع فوائدها عليهم.

يجب أن لا ننسى أن المواهب الخارقية هي كمواهب الذكاء لا تخضع للتفكير الواعي أو هي قد يفسرها التفكير الواعي فهي تنبثق من أعماق اللاشعور ومن يريد أن يستثمرها يجب أن يستجيب لها بلا تفكير أو تمنطق أو وسوسة.

خذ على سبل المثال تاجر ناجح في تجارته وكان سبب نجاحه أنه يملك قدرة خارقة في قراءة أفكار الزبائن والتأثير فيهم أو التنبؤ بمستقبل الأسعار أو ما أشبه وهو يجري باستثمار موهبته عفو الخاطر. وهو لا يكاد يخضع موهبته بتفكيره الواعي حتى يبدأ بالسير في طريق الفكر.

إن هذا هو الذي جعل العلماء والمفكرين لا يصلحون للتجارة. فهم إذا دخلوا في عالم التجارة أخفقوا فيه، لأنهم اعتادوا على التفكير المنطقي في مجال عملهم، وهذا النوع من التفكير يعرقل الاستجابة لومضات القدرات الخارقة ومن هنا جاء المثل الدارج المعروف في أسواق بغداد وهو: الذي يدخل في السوق يجب أن يضع عقله على الرف.

س: إنك تقول إن الناجح من الناس هو الذي يقدر على التمييز بين محتويات لا شعوره فيستثمر الجانب النافع منها بينما هو يراقب الجانب الضار فلا يتيح له أن يعبث كما يشاء فالرجاء توضيح هذا القول لما له من أهمية غير قليلة في حياتنا العملية؟

ج: إن الناجحين في مختلف شؤون الحياة هم الذي يملكون القدرة على التوفيق بين طاقات عقولهم الواعية واللاشعورية معاً فلا خير في من يستجيب لومضات لاشعوره وحدها دون تفكير واعٍ كما لا خير في من يستجيب لتفكيره الواعي دون اهتمام لومضات لاشعوره.

إن التفكير الواعي هو الميزان الذي يزن به الإنسان ما يخطر في ذهنه من

خواطر متنوعة، ويدرك قيمة كل منها في الحياة العملية فنحن نعرف أشخاصاً يملكون مواهب نادرة أو قوى خارقة ولكنهم لا يعرفون كيف يستثمرونها لنقص في عقولهم الواعية، وكذلك نعرف أشخاصاً على النقيض من ذلك يعتمدون على عقولهم الواعية في كل أمورهم ـ كما هو الحال في المصابين بداء (الوسوسة) وتراهم يحققون ويدققون في كل صغيرة وكبيرة فتضيع بذلك ومضات الإبداع اللاشعورية فيهم.

إن الومضات الإبداعية كثيراً ما تختلط في يقظتنا بمحتويات اللاشعور الأخرى كالرغبات المكبوتة أو التعصب التقليدي، أو التجارب المنسية، أو العواطف القوية، وهنا تأتي وظيفة العقل في التمييز بين المحتويات وفي معاملة كل منها بما ينفع فيها.

وهناك ناحية أخرى جديرة بالذكر هنا في أهمية الدأب والمثابرة في استثمار ومضات اللاشعور. فإن الذي يملك موهبة الإلهام دون أن يملك معها موهبة الدأب والمثابرة كثيراً ما يضيع إلهامه سدًى.

يروى عن أديسون أنه وصف الاختراع الذي يبدعه أي مخترع بأنه في معظمه حصيلة الجهد والتعب، أما الإلهام فليس له في إنجاز الاختراع سوى نصيب قليل جداً أو هو على حدّ تعبير أديسون: ٢٠ بالمائة نتيجة الإلهام ٩٨ بالمائة نتيجة العرق. وهذا قول فيه مبالغة ولكنه مع ذلك لا يخلو من الحقيقة فإن الملهمين العظام في مجال العلم أو الفن ليسوا حصيلة الإلهام وحده، بل هم قد تميزوا عن غيرهم بالتعب المتواصل وبذل الجهد أي بـ (العرق) على حدِّ تعبير أديسون.

خذ مثلاً الشاعر المشهور الذي بز منافسيه بروعة شعره فهو لم يكتفِ بما لديه من موهبة شعرية بل رأيناه يكافح طويلاً في حفظ قصائد الشعراء الجيدين قبله، ويسعى بكل جهده في أن يقارن بينهما لكي يعرف ميزة كلّ منهم على الأخرى وهو كلما ازداد حفظاً ودرساً وتدقيقاً ازدادت قدرته على نظم الشعر

البديع ولكنه مع ذلك لا يقسر نفسه على نظم الشعر في أي وقت يشاء بل هو ينتظر لحظات انطلاق القريحة فيقتنصها عند ذلك كما يقتنص الصياد قنيصته.

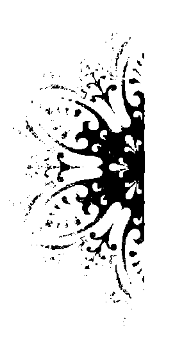
وهذا هو ما يفعله المؤلف والباحث العلمي فهو لا يكتفي بما لديه من ذكاء أو موهبة علمية بل هو يبذل أقصى جهده بجمع المعلومات وتصنيفها وفي الدأب المتواصل الذي لا يقف عند حدّ فيها وكلما ازداد دأباً في ذلك ازدادت قدرته على الإبداع فيه حتى يجد نفسه أخيراً وقد زخر عقله الباطن بالومضات المبدعة، فيعمد هو إلى اقتناصها على نحو ما يقتنص الشاعر فيض قريحته.

والواقع إن الإبداع في كتابة المقالات هو من هذا الطراز أيضاً فالكاتب لا يستحسن له أن يعتمد على قريحته أو موهبته وحدها عندما يريد أن يكتب مقالاً فهو مهما كان ذا موهبة كبيرة فليس في مقدوره أن يكتب المقال الجيد ما لم يعتمد أولاً في جمع المعلومات الخاصة به.

يؤسفني أن أرى بعض مدارسنا وكلياتنا تعلم طلابها بخلاف هذا في كتابة الإنشاء فهي تطلب من الطالب أن يلجأ إلى الخيال والتأمل المجرد، وأن يشحذ قريحته اعتماداً على الألفاظ الرنانة والتعبيرات البلاغية المكررة.

ومن هنا نشأ لدينا كتاب بارعون في صياغة الألفاظ الرنانة غير أننا لا نستفيد من كتاباتهم شيئاً أو لا نفهم منها شيئاً وهذا قول فيه مبالغة ولكنه مع ذلك لا يخلو من الحقيقة فإن في مجال العلم أو الفن ليسوا حصيلة الإلهام وحده بل هم قد غيّرهم بالتعب المتواصل وبذل الجهد أي بـ(العرق) على حدّ.







حول الحضارة الحديثة[1]

وردتنا من القراء أسئلة موجهة إلى الدكتور علي الوردي في مواضيع (النفس والمجتمع) وفيما يلي واحد من تلك الأسئلة:

إلى الدكتور علي الوردي:

قرأنا في بعض مقالاتك وكتبك أنك تدعو بحماس إلى تبني الحضارة الحديثة والسير في طريقها ولكنك في الوقت نفسه تقول بأن هذه الحضارة مليئة بالمساوئ واسمح لنا أن نقول إن موقفك هذا من الحضارة الحديثة لا يخلو من تناقض فإذا كانت الحضارة مليئة بالمساوئ فكيف تدعونا إلى تبنيها والسير في طريقها؟ افتونا مأجورين.

وقد عرضنا هذا السؤال على الدكتور علي الوردي فأجاب عليه بالمقال التالي:

ونحن الآن إذ ننشر مقالة نعلن أننا لا نوافق على جميع ما ورد فيها فقد نشرناها عملاً بمبدأ حرية النشر ونحن على استعداد لننشر ما يردنا من القراء في مناقشته أو الرد عليه.

---

(١) العدد (١٠٨) ٣٠ كانون الثاني ١٩٨٩.

يقول الوردي:

إن الحضارة الحديثة وكل حضارة بشرية ظهرت في تاريخ العالم لا يمكن أن تخلو من مساوئ خاصة بها. ومن الممكن القول إن الحضارة الحديثة هي أكثر سوءاً من الحضارات التي سبقتها وكذلك بأنها أكثر تقدماً واختراعاً.

إن هذا القول قد لا يرتضيه المفكرون العقلانيون لأنهم اعتادوا على النظر للأمور حسب التصنيف الثنائي الذي التزم به بالمنطق القديم. فإن هذا المنطق يصنف الأمور إلى صنفين متضادين:

خير أو شر، حق أو باطل، نافع أو ضار، حسن أو قبيح، إلخ...

ومن الجدير ذكره أن هذا التصنيف الثنائي لا يوافق عليه المنطق الحديث ويعتبره مغلوطاً.

إن الأمور في ضوء المنطق الحديث كثيراً ما تكون مزيجاً من الخير والشر أو بين النفع والضرر فليس هناك في هذه الدنيا خير محض أو شر محض.

وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾.

إن أمور هذه الدنيا نسبية في الغالب فما يرضى عنه قوم قد يسخط عليه آخرون، ويجب أن لا ننسى أن مبدأ النسبية لا يقتصر أثره على الأمور البشرية فقط، بل هو يشمل ظواهر الكون أيضاً على نحو ما توصل إليه آينشتاين في نظريته المعروفة.

إن الحضارة الحديثة أنتجت من المخترعات ما غيرت به وجه العالم وهي مخترعات لو سمع بها القدماء لاعتبروها مستحيلة أو غير معقولة ولكن هذه المخترعات أضرت بالبشرية من مقدار ما نفعتها أو هي بعبارة أخرى أضرت بالبشرية ونفعتها في آن واحد.

إن الأضرار التي أصابت البشرية من جراء هذه المخترعات كثيرة يصعب

حصرها. وقد يكفي أن نذكر منها: تلوث البيئة وتضخم المدن وتكاثر السكان والانفجارات النووية وتضاؤل طبقة الأوزون وانتشار التصحر وتقلص الغابات وظهور أمراض جديدة وتسمم المياه والأغذية والمطر الحامضي وغيرها.

إن العلماء اليوم يحاولون علاج هذه الأضرار والعمل على تقليلها.

ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل هم قادرون على ذلك؟

في رأي بعض العلماء إن الأضرار الناتجة عن الحضارة الحديثة ستنمو بمرور الزمن وهي قد تؤدي في نهاية المطاف إلى هلاك البشرية. وهذا الرأي يذكرنا بما ورد في القرآن الكريم عن يوم القيامة ونسأله تعالى أن لا يبقيني إلى هذا اليوم ـ آمين!

لا تقتصر مساوئ الحضارة الحديثة على النواحي المادية وحدها وهي النواحي التي أشرت إلى نماذج منها آنفاً بل هي تشمل نواحٍ أخرى غير مادية.

المعروف عن المجتمعات المتقدمة التي ازدهرت فيها الحضارة في عصرنا أنها مشحونة بعوامل القلق والكآبة والجنون والانتحار والانحراف والتشرد. وقد يصح أن نقول إن المجتمع كلما ازداد تقدم الحضارة ازدادت فيه في الوقت نفسه معدلات الانتحار والجنون والانحراف والجريمة.

إني أدركت في صباي الجيل الذي عاش في العهد العثماني قبل مجيء الحضارة الحديثة فقد كان جيل يسوده الفقر والحرمان، ولكنه كان في الوقت نفسه تسيطر عليه الطمأنينة النفسية والعقيدة الجازمة.

كانت العقيدة الدينية حينذاك مسيطرة على النفوس ولا يتطرق إليها الشك ولكن الناس يجدون فيها السلوى تجاه ما يعانونه من مشاكل الحياة ومصائبها، فهم كانوا يجدون في العقيدة علاجاً روحياً لكل مشكلة يواجهونها أو هم على الأقل ينتظرون من الله أن يعوضهم في الآخرة عما يعانونه في هذه الدنيا (الفانية) من الألم.

لا أنكر أن العقيدة التي كانت سائدة في تلك الأيام لم تكن خالية من بعض الخرافات والأباطيل، ولكنها كانت مع ذلك تسيغ إلى الناس طمأنينة وراحة نفسية وتبعدهم عن القلق والتذمر.

إني ما زلت أتذكر السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في العراق.





حول العقل وطبيعة الإنسان[1]...

نعرض اليوم سؤالاً آخر وردنا من أحد القراء وهو موجه إلى الدكتور علي الوردي، وهذا نصه:

نراك في كتاباتك تهاجم المفكرين العقلانيين وتنتقص من شأن العقل، وقد صدر لك في عام ١٩٥٥ كتاب عنوانه (مهزلة العقل البشري) ولكنك تنسى أن العقل أعظم ما وهبه الله للإنسان وهو الذي أنتج هذه الحضارة الكبرى التي وصلت إلى القمر وسوف تصل إلى المريخ. فما تقول في الرد على ذلك؟ نرجو الجواب!

وقد عرضنا هذا السؤال على الدكتور الوردي فكتب لنا: الجواب التالي مشكوراً.

يقول الوردي:

إن رأيي في العقل معروف، وقد واصلت الكتابة فيه مرة بعد مرة، منذ نحو أربعين سنة، حتى سئم القراء منه وضاقوا به ذرعاً. وقد جابهني أحد القراء منذ عهد قريب قائلاً:

(١) العدد (١٠٩) ٦ شباط ١٩٨٩.

(تعيد وتصقل في نفس الموضوع، فإلى متى؟!)

إن هذا القارئ قد نطق بالحقيقة التي يجب أن أعترف بها. وإني أريد أن أنتهز هذه الفرصة لكي أوضح موقفي من العقل ومن الطبيعة البشرية بوجه عام.

قلت في مناسبات سابقة، وأعيد القول هنا، إننا نشأنا على مفاهيم مغلوطة في موضوع العقل والطبيعة البشرية، وقد أدت هذه المفاهيم إلى إلحاق الضرر بنا وبمجتمعنا. ولا أكتم القارئ أني أنا من ضحايا هذه المفاهيم، فقد نشأت كغيري من أبناء جيلي عليها واعتدت النظر في الأمور من خلالها، وكان ذلك من الأسباب التي جعلتني أتورط خلال حياتي في أخطاء كنت في غنًى عنها. وإني أحاول بمقدار جهدي أن أحذّر أبناء الجيل الجديد من الوقوع في مثل الأخطاء التي وقعت فيها قبلهم.

عندما ذهبت إلى الخارج في الأربعينيات لدراسة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي انكشفت أمامي أمور لم أكن أعلم عنها شيئاً من قبل واتضح لي أني كنت غارقاً في الأوهام مع الأسف الشديد.

كانت الأوساط العلمية في الخارج حينذاك قد برزت فيها اتجاهات ثلاثة كنا نحن في الشرق غافلين عنها كل الغفلة، وهي كما يلي:

١ ـ الاتجاه الذي بدأ به (وليم جيمس) و(كو لي) و(ميد) في موضوع العقل والأنوية في الإنسان.

٢ ـ الاتجاه الذي بدأ به الأستاذ (راين) في جامعة ديوك في موضوع (الباراسيكولوجيا) أو (علم الخارقية) كما أحب أن أسميه.

٣ ـ الاتجاه الذي بدأ به (كارنيجي) في موضوع كيف تعامل الناس وكيف تنجح في معاملتهم؟

إن هذه الاتجاهات الثلاثة تتناقض كل التناقض مع تلك المفاهيم التي نشأنا عليها في مجتمعنا وأضرت بنا. ولا بدّ لي من الإشارة هنا إلى أن الناس

في الغرب قد نشأوا على مثل المفاهيم التي نشأنا نحن عليها، ولكن أدركوا خطأهم قبلنا. وقد شعرت أن الواجب يلقي عليّ عند عودتي إلى الوطن أن أنبه الناس إلى الخطأ في تلك المفاهيم.

مشكلتي عند العودة:

في عام ١٩٥٠ عدت إلى الوطن بعد إكمال دراستي، وكان ذهني مشحوناً بالاتجاهات الثلاثة التي ذكرتها. أضف إلى ذلك أني تعلمت هناك أسلوباً في الكتابة يختلف عن الأسلوب الذي اعتدنا عليه في بلادنا وهو أسلوب الألفاظ الرنانة والتحذلق والمزاوجة.

لم أكد أبدأ بالكتابة بعد عودتي إلى الوطن حتى صار النقد الشديد يوجه إلي من ناحيتين، من ناحية الأسلوب وناحية المضمون. فالأدباء من ناحية يريدون مني أن أحلق في عالم التحذلق والألفاظ الرنانة عالياً، وينتقدون الأسلوب (التلغرافي) الذي اتخذته، والآخرون من الناحية الأخرى يريدون مني أن أسير على نفس الخط القديم الذي سار الناس عليه قبلنا حيث اتبعت المفاهيم التقليدية في الثقة المطلقة بالعقل ومحاولة إصلاح المجتمع عن طريق الوعظ الطوبائي.

جوبهت بتهم متنوعة على مدى أربعين عاماً تقريباً، فمن النقاد من اتهمني بأني عميل للأجانبٍ ومكلف بهدم تراثنا العظيم، ومنهم من اتهمني بأني أطلب المخالفة من أجل الحصول على الشهرة، ومنهم من اتهمني بغير ذلك. وأسأله تعالى أن يبرئني من هذه التهم ـ في أواخر حياتي على الأقل!

قد يسألني سائل فيقول:

لقد ذهب الكثيرون غيرك إلى الخارج للدراسة، ولكنهم لم يفعلوا مثلما فعلته أنت، فما هو السر في ذلك؟!

مشكلتي أني درست في الخارج علم الاجتماع وهذا من سوء حظي. فقد كان من الأنفع لي أن أدرس علماً آخر كما فعل الآخرون.

المصيبة في علم الاجتماع أن الناس كلهم. وحتى الأميين منهم، يتصورون أنفسهم اختصاصيون فيه، فكل فرد من الناس يحسب نفسه مفكراً اجتماعياً من الطراز الأول، وهو مستعد لمجادلتك في أي موضوع اجتماعي وإن كان هو لا يعرف عنه شيئاً.

إن الناس اعتادوا أن لا يجادلوا ذوي الاختصاص في موضوع اختصاصهم إلا في علم الاجتماع. فهم مثلاً لا يجادلون الطبيب في موضوع اختصاصه، أو المهندس، أو الحقوقي، أو الفقيه، أو الكيمياوي، أو الفيزياوي، أو غيرهم، أما الاجتماعي فهم يسرعون إلى مجادلته وتفنيد آرائه وهم واثقون أنهم على صواب وأنه على خطأ. أجريت في أحد الأيام تجربة في أحد المجالس التي أرتادها. وهو يضم نخبة من المثقفين. فعرضت عليهم نظرية اجتماعية جديدة لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً من قبل، وكانت هي مخالفة للمفاهيم التي اعتادوا عليها. فانبرى البعض منهم ينتقد النظرية ويذكر جوانب الخطأ منها واحداً بعد الآخر. وعندما قلت لهم إنها نظرية قد اتفق عليها أكثر العلماء في الوقت الحاضر، أجابني أحدهم قائلاً: ثم ماذا؟ إن العلماء كثيراً ما يخطئون ولما سألته عن المقياس الذي يميز به الخطأ من الصواب في النظريات العلمية، أجابني: «إنه العقل!!».

الواقع إن هذا المثقف ليس نادراً بين مثقفينا، فإن الكثيرين منهم لا يزالون يعيشون في قوقعتهم العقلانية القديمة حيث يعتقدون أن العقل هو مفتاح عام يصلح لفتح كل المغاليق ويفسر جميع القضايا.

إن هذا النمط من المفكرين وهم الذين نسميهم (العقلانيين) أخذ عددهم يتضاءل في الأوساط العلمية والثقافية في البلاد المتقدمة ويؤسفني أن أقول إنهم ما زالوا لهم دورهم النشيط في أوساطنا، فهم ينظرون إلى العقل على نحو ما

كان ينظر إليه أفلاطون وأرسطو، أو الفارابي وابن رشد، غافلين عما يجري في العالم من تيارات فكرية جديدة.

طبيعة العقل:

قلت مراراً، وأعيد القول هنا، إن العقل البشري بمقدار ما هو عظيم في قدرته على الإبداع والاختراع، هو ضعيف عاجز في النواحي الأخرى.

يجب أن لا ننسى أن الله منح العقل للإنسان لكي يساعده في تنازع البقاء، على نحو ما منح الخرطوم للفيل، والأنياب للأسد، والسم للعقرب، والقرون للظبي، إلخ. . . ومعنى ذلك أن العقل ليست وظيفته التوصل إلى الحق والحقيقة كما توهمه العقلانيون القدماء، بل إن وظيفته هي مساعدة الإنسان في تنازع البقاء فالإنسان هو حيوان قبل أن يكون إنساناً.

إن الإنسان حين تجابهه مشكلة في حياته يبدأ بالتفكير في إيجاد حل لها، فهو لا يطلب الحق والحقيقة بمقدار ما يطلب الحل لمشكلته وهذا هو سرُّ الاختراعات المدهشة التي أبدعها الإنسان عبر تاريخه الطويل. فهذه الاختراعات لم يكن المقصود بها التوصل إلى الحقيقة المطلقة بل المقصود تغلب الإنسان على أعدائه من الحيوانات الأخرى أو من بني نوعه من بشر.

إن أول اختراع اخترعه الإنسان في بداية تاريخه هو قطعة الحجر المدببة في طرف منها، وهي التي تسمى (eolith) فهذه القطعة قد استخدمها الإنسان في قتال أعدائه أو في الصيد. ثم اخترع الإنسان العصا بعدئذ، ثم ربط بين العصا وقطعة الحجر بألياف استمدها من الأشجار، فصارت في يده سلاحاً عظيماً يقارب في أهميته القنبلة الذرية في عصرنا.

لا مجال هنا لذكر سلسلة الاختراعات التي أبدعها الإنسان في تاريخه الطويل. ويكفي أن نقول إن العقل البشري بارع كل البراعة في إبداء ما ينفع الإنسان في تنازع البقاء، غير أنه من الجهة الأخرى عاجز كل العجز على إدراك

الحقيقة التي تخالف منفعته، انظر إلى البشر في وضعهم الحاضر، فهم وصلوا في مخترعاتهم إلى هذه الدرجة الهائلة التي نشهدها، ولكنهم من الجهة الأخرى عاجزون عن إيجاد حل لحروبهم. فهم سيظلون يتحاربون ويتحاربون إلى ما شاء الله ـ مع الأسف الشديد!

لكي نفهم طبيعة العقل البشري بوضوح نذهب إلى قاعات المحاكم. فكل من له قضية في محكمة يسعى جاهداً نحو جعل القاضي يحكم لصالحه وتراه يجمع الأدلة العقلية والنقلية للبرهنة على صحة دعواه، وحين يحكم القاضي في مصلحته يكون أعظم القضاة عدلاً ونزاهة، أما إذا حكم في غير مصلحته فإنه يصبح ظالماً أو مرتشياً (لعنة الله عليه!).

إن القضاء مؤسسة اجتماعية ابتكرها البشر منذ قديم الزمان لكي يحل بها المنازعات التي تشب بينهم. فقد أدرك البشر ببديهتهم أن المنازعات لا يمكن حلها عن طريق مناشدة المتنازعين بالاحتكام إلى العقل، فإن كل فريق من المتنازعين حين يحتكم إلى عقله يعتقد جازماً أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه، ولا بدّ إذن من قيام مؤسسة لها قوة رادعة تحكم بين المتنازعين. وفي غياب مثل هذه المؤسسة يأكل الناس بعضهم بعضاً.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن البشر حين نجحوا في حل المنازعات التي تقع بين الأفراد أو الجماعات المحلية، لم ينجحوا في حل المنازعات التي تقع بين الدول، فلم تظهر مؤسسة قضائية عالمية تملك القوة الرادعة التي تستطيع بها أن تفرض أحكامها على الدول المتنازعة.

إن الأمم المتحدة في أيامنا هذه هي كعصبة الأمم السابقة لها لا تصلح لحل المنازعات الدولية، لأنها لا تملك القوة الرادعة التي تجبر الدول المتنازعة على الانصياع لأوامرها. ولهذا فإن الحروب سوف تبقى مستمرة بين الدول إلى أن تقوم مثل هذه القوة العالمية الرادعة، ومن المؤسف أن نقول هذه القوة لن

تقوم ما دامت الدول الكبرى تتنافس فيما بينها وكل واحدة منها تريد أن تكون كلمتها هي العليا.

هذه هي طبيعة البشر منذ خلقهم الله، وسيظلون كذلك حتى يوم يبعثون. فالبشر متنازعون بطبيعتهم، وهم يظلون يتنازعون ويتقاتلون ما داموا لا يجدون أمامهم قوة تردعهم.

إن هذا الكلام كررته على القراء عشرات المرات على طريقة (يعيد ويصقل) ولكني لم أجد من يقبل به إلا القليلين فإلى متى؟



بين منطقين[1]

إن حلقات الحوار مع الدكتور علي الوردي التي نشرناها تباعاً في هذه الصفحة أثارت شيئاً من النقاش والجدل لدى بعض القراء، وقد وردتنا منهم أسئلة يستفهمون فيها عن بعض النقاط التي أُثيرت في حلقات الحوار. وكان بعض تلك الأسئلة تدور حول طبيعة العقل البشري ووظيفته في الحياة. وهو الموضوع الذي تطرق إليه الوردي في الحلقة الماضية. وقد ذهب محرر هذه الصفحة إلى الدكتور الوردي ليحاوره حول هذا الموضوع. وكان رأي الوردي أنه شرح هذا الموضوع في كتابات سابقة له. وهو لا يحب أن يعيد الشرح مرة أخرى. ويقول الوردي إن كثيراً من القراء ملّوا من كثرة تكراره لهذا الموضوع وأمثاله، ووصفوه بأنه (يعيد ويصقل فيها).

ولهم الحق في ذلك!

إن محرر هذه الصفحة له رأي آخر في هذه المسألة، فإن موضوع العقل ووظيفته في الحياة له أهمية عملية قصوى بالنسبة لنا. أما التكرار فيه فقد يكون نافعاً حسب المبدأ القائل (في الإعادة إفادة).

إن المفاهيم القديمة حول العقل قد أضرت بنا كثيراً وأوقعتنا في أخطاء

---

(١) العدد (١١٠) ١٣ شباط ١٩٨٩.

فظيعة كما قال الدكتور الوردي وهو مهما كرر في نقد هذه المفاهيم فالقراء لا يشبعون من هذا التكرار لأنهم يجدون فيه نفعاً غير قليل لهم في حياتهم العملية. عرضنا على الدكتور الوردي واحداً من الأسئلة التي وردتنا حول العقل وهذا نصه:

(أيها الدكتور علي الوردي، إنك في تهجمك على العقل تريد منا أن نكون مجانين. فالعقل هو الذي يرشدنا إلى طريق الصواب في حياتنا العملية وإذا تركنا دليل العقل كما تريد منا أن نفعل فأي دليل آخر يمكن أن نستعيض به في حياتنا؟! افتونا مأجورين).

فأجابنا الوردي مشكوراً على هذا السؤال بما يلي:

يبدو لي أن هذا السائل قد أساء فهمي فإني عند انتقادي أو تهجمي على العقل لم أقصد إبعاده عن حياتنا نهائياً فقد قلت مراراً وأعيد القول هنا، إن العقل عظيم جداً، ولكن مشاكلنا معه هي أننا نستعمله في كل شيء حتى في النواحي التي اتضح علمياً أنه عاجز وقاصر فيها.

كل ما أريد قوله في هذ الشأن هو أننا يجب أن نميز بين النواحي التي يكون العقل فيها عظيماً والنواحي التي يكون فيها عاجزاً قاصراً. وإني لا أحب أن أعيد هنا ما كررته مراراً في مقالاتي وكتبي السابقة حول هذا الموضوع ولكني مع ذلك مضطر أن أذكر بإيجاز خلاصة ما توصل إليه العلم الحديث فيه.

هناك منطقان أو منهجان للتفكير، أحدهما نسميه المنطق (الاستنتاجي) أو (العقلاني) والآخر نسميه المنطق (الاستقرائي) أو (العلمي) ولا حاجة بنا إلى القول إن المنطق الاستنتاجي وهو الذي كان سائداً في العالم منذ أن نشأ الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، أما المنطق الاستقرائي فهو الذي يسود الأوساط العلمية في العصر الحديث.

يمكن القول إن التقدم العلمي والتقني الذي نشهده في عصرنا وهو نتاج المنطق الاستقرائي الحديث فلو أن المنطق الاستنتاجي القديم ظل مسيطراً على الأذهان لما كان في مقدور البشر التوصل إلى ما توصلوا إليه من تقدم علمي وحضاري عجيب. ومن المؤسف أن نرى بعض متعلمينا ومثقفينا ما زالوا يجرون في تكفيرهم على المنطق القديم بالرغم من تشدقهم بالأفكار والمعلومات الحديثة.

لا أنكر أن المنطق القديم عندما بدأ به الإغريق كان يمثل ثورة على التفكير الذي كان سائداً في عصرهم. فقد كان البشر في العصور القديمة وما زال الكثيرون منهم حتى يومنا هذا، يعيشون في عالم من الخرافات والأساطير التي لا يقبلها العقل. فنهض فلاسفة الإغريق لمكافحة هذا التفكير الخرافي، وأنشأوا منطقهم لهذا الغرض وهو المنطق الذي عرف بأسماء مختلفة كالمنطق الصوري أو الشكلي أو الأرسطي.

إني قد تطرقت لهذا الموضوع في مجلة (الحضارة) في عددها الصادر في أيار الماضي، وأشرت حينذاك إلى أن المنطق العقلاني الذي أنشأه الإغريق يعد حركة تقدمية بالنسبة إلى زمانه، ولكنه تحول بمرور الزمن إلى حركة رجعية، شأنه في ذلك شأن الكثير من الثورات والحركات التقدمية التي شهدها التاريخ. إنه كان ثورة على التفكير الخرافي ثم صار فيما بعد عقبة تجاه التفكير العلمي.

لو درسنا تاريخ الفكر في القرون الوسطى لوجدنا المنطق العقلاني سائداً على عقول المفكرين في الغالب. فكان كل ذي رأي أو عقيدة يستخدم ذلك المنطق سلاحاً بيده ضد خصومه. إن المنطق العقلاني بعبارة أخرى صار مطية الأهواء وليس وسيلة للتوصل إلى المعرفة النافعة.

إن هذا كان واضحاً في المجتمعات الأوروبية والإسلامية معاً في تلك القرون. وإن هذا الأساس الذي قام عليه علم الكلام في الإسلام. ومن الجدير بالذكر أن المفكرين المسلمين لم يكونوا كلهم من هذا النمط. فقد ظهر بينهم

مفكرون عديدون حاربوا المنطق العقلاني أو انتقدوه وأظهروا عيوبه، كان من بينهم الغزالي وابن تيمية وابن خلدون. وقد يصح أن نعتبر هؤلاء من رواد الثورة المنطقية الحديثة التي دعت إلى تبني منطق الاستقراء. وقد شرحت ذلك في كتابي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) الذي صدر في القاهرة في عام ١٩٦٢.

س: ما هو العيب الأساسي في المنطق العقلاني وهو العيب الذي جعل المنطق سلاحاً بيد الفرق المتنازعة تتجادل به دون أن تصل في جدلها إلى نتيجة حاسمة؟

ج: عيب هذا المنطق أنه استنتاجي أي أن يستنتج الأفكار التي يريدها من كليات عقلية عامة، وهي الكليات التي كان أصحاب المنطق العقلاني يعتبرونها بديهية اتفق على صحتها العقلاء ولا يجوز الشك فيها. وهذا هو الذي جعل المناطقة القدامى حين يبدأون مقالاً لهم يقولون في مقدمته: (مما اتفق عليه العقلاء) أو (مما لا شك فيه) أو (مما لا يجادل فيه اثنان) أو ما أشبه.

وما زالت هذه العبارات مستعملة لدى الكتاب والمؤلفين حتى يومنا هذا.

تبين الآن علمياً أن لا وجود للحقائق المطلقة، أو الكليات العقلية العامة، في هذه الدنيا. فإن ما يعده الناس في عصر من العصور من الحقائق المطلقة ليس سوى مألوفات اعتادوا عليها واعتبروها كذلك، وهي قد تنقلب في عصر آخر إلى أوهام أو أباطيل لا أساس لها من الصحة. أذكر فيما يلي قصة واقعية جرت لي في الاسكندرية بمصر في تموز ١٩٦٩.

وقد ذكرتها في مناسبة سابقة ولا بأس أن أذكرها هنا مرة أخرى لأنها تصلح أن تكون نموذجاً للجدل الذي ينسب بين الناس على أساس المنطق الاستنتاجي القديم.

خلاصة القصة أني كنت حينذاك في الاسكندرية وقد اعتدت أن أقضي

بعض الوقت في الجلوس إلى شخص أعرفه هناك، وهو يملك دكاناً لبيع السلع المتنوعة بالقرب من محل إقامتي. وكان هذا الشخص له أصدقاء يرتادون دكانه ويجلسون معه لتبادل الحديث فيه. وكانوا جميعاً من الأميين أو أنصاف المتعلمين وكنت أستفيد من التحدث إليهم ومناقشتهم لما في ذلك من دراسة عملية للتفكير البشري كما هو في الواقع لا كما يتحذلق به المفكرون الطوبائيون.

جئت إليهم في صباح أحد الأيام لأبشرهم بصعود أول إنسان إلى القمر. وكان هذا الخبر قد أذيع في الليلة السابقة، ولكنهم نظروا إلي مستنكرين قولي ومتعجبين من تصديقي لهذا الخبر الذي هو غير معقول في نظرهم ولا يمكن أن يصدق به إنسان له ذرة من العقل حسب قولهم. فقلت لهم: لا بدّ أنكم شاهدتم في التفلزيون أمس صورة هبوط الرجل على سطح القمر، فما قولكم في هذه الصورة؟ فانبرى أحدهم في الرد علي قائلاً: إذا كانت الصورة التي ظهرت في التلفزيون حقيقية وليست مصطنعة فهي تدل على أن أرض القمر هي كأرضنا مكونة من التراب، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يسقط التراب علينا من القمر؟!

أخذت أتابع المناقشة معهم لكي أتعرف على أدلتهم الأخرى. فقلت لهم إن التراب لا يسقط علينا من القمر تحت تأثير قانون الجاذبية. فليس هناك فوق وتحت في الفضاء فنحن نرى القمر فوقنا في السماء. والذين في القمر يرون الأرض فوقهم في السماء كذلك.

فالأرض لها جاذبيتها والقمر له جاذبيته. والإنسان الذي يقف على الأرض يعتبر ما تحت قدمه (تحت) وما فوق رأسه (فوق) وكذلك يفعل الذي في القمر.

إن هذه الأدلة التي جئت بها لم تلق قبولاً منهم. بل لقيت استهزاءً أو استنكاراً. وقال أحدهم وهو يخاطبني بلهجة الناصح: (إن الله أعطانا العقل

لكي نميز به الأشياء! القمر فوق ونحن تحت!) ثم جاء بمثل واقعي هو المؤذن الذي يصعد إلى المئذنة، فهو عند صعوده إلى المئذنة يرانا تحته ونحن نراه فوقنا، فالفوق فوق التحت تحت. ماذا تقول؟! إن الله أعطانا العقل لنفكر به!!!

ولم أجد تجاه الأدلة القاطعة التي أوردها سوى الإذعان، واعتذرت لهم عن تصديقي بذلك الخبر الذي لا يقبله العقل، وشكرت تنبيههم لي.

إن هذه المجادلة التي ذكرت آنفاً لا تختلف في فحواها المنطقي عن أية مجادلة تنشب بين الناس اعتماداً على الكليات العقلية العامة، أو الحقائق المطلقة، ولا فرق في ذلك بين المتعلمين والأميين.

فإن أولئك الأميين الاسكندرانيين اعتمدوا في جدلهم على حقيقتين هما من الحقائق المطلقة التي لا شك فيها في نظرهم. الأولى هي أن التراب الموضوع إلى الأسفل إذا انقلب هذا السطح. أما الثانية فهي أن الذي يرتفع عالياً في الجو يرانا تحته ونحن نراه فوقنا.

ويجب أن نعترف أن هاتين الحقيقتين لا يمكن الشك في صحتهما في نظر من لا يعرف قانون الجاذبية. ومعنى هذا أن الأميين الاسكندرانيين كانوا محقين في جدلهم. ونحن الذين عرف قانون الجاذبية قد نصبح مثلهم تجاه من يعرف قانوناً آخر من قوانين الكون لا نعرفه.

إن قوانين الكون وأسراره لا تحصى، والعلم يكتشف في كل يوم شيئاً جديداً منها، وهو لا يزال في أول الطريق من ذلك. وإن كثيراً من الحقائق التي نثق بصحتها في أيامنا قد تصبح مغلوطة في أيام قادمة. وفي هذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

خلاصة ما نريد قوله في هذا الصدد هي أن الحقائق المطلقة التي كان المفكرون القدامى يستندون عليها في مجادلاتهم ليست مطلقة بل هي نسبية. ولهذا نجد العلم الحديث حين يريد دراسة ظاهرة من ظواهر الكون أو النفس أو

المجتمع لا يلجأ إلى المجادلة كما كان القدامى يفعلون، بل يبحث في الظاهرة نفسها حيث يحاول إخضاعها للتجريب أو الدراسة الموضوعية بغض النظر عما إذا كانت مطابقة للحقائق المألوفة أو مخالفة لها.

قصة جدي

أود أن أقصّ للقراء قصة واقعية أخرى تشبه تلك التي حدثت في الاسكندرية. وهذه القصة حدثت للمرحوم جدي ولكنه كان الغالب فيها بينما كنت في الاسكندرية أنا المغلوب.

ففي عام ١٩١٠ ذكرت جريدة كانت تصدر في بغداد خبراً مفاده أن (الأوروبيين) اخترعوا عربة تطير في الهواء، وهي التي سميت فيما بعد (طيارة). وفي تلك الأيام جاء إلى جدي جماعة من أصحابه يذكرون له هذا الخبر العجيب عن العربة التي تطير في الهواء.

فوجه جدي اللوم عليهم لتصديقهم بهذا الخبر الذي لا يقبله العقل. وأخذ يشرح لهم الدليل الذي يجعل طيران العربة في الهواء مستحيلاً، وسألهم قائلاً: (من أي شيء صنعت هذه العربة التي تطير في الهواء كما تقولون؟! أليست هي مصنوعة من الخشب والحديد كغيرها من العربات؟!). ثم أشار جدي إلى مطرقة كانت مطروحة إلى جانبه وقال لهم: (هذه المطرقة المصنوعة من الخشب والحديد هل في مقدورها أن تطير في الهواء؟). فوافقوا على صحة رأيه، واعتبروا خبر الطيارة مستحيلاً. غير أنهم لم تمض عليهم سوى خمس سنوات حتى شاهدوا بأم أعينهم طيارة محلقة في الجو وتقذفهم بالقنابل...

إن جدي لا ألومه فيما قال، فهو قد جرى في تفكيره على نفس المنطق الاستنتاجي الذي جرى عليه المفكرون قبله، وهو قد عاش في عهد لم يكن المنطق الاستقرائي الحديث معروفاً فيه. إن اللوم في الواقع لا يقع إلا على هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مثقفين في أيامنا، وقد حصلوا على الشهادات

العالية، غير أنهم ما زالوا يجادلون على منوال ما كان القدماء يفعلون. وأرجو من القارئ الذي لا يصدق بقولي هذا أن يذهب إلى بعض مجالس المثقفين عندنا ويشهد المجادلات التي تنشب فيها.

وإني أرجو هنا أن لا يذهب القارئ إلى الظن في أن جميع مجالسنا هي من هذا النوع، فالواقع أن بعض مجالسنا لا تقل من حيث نضوجها الثقافي عن مجالس المجتمعات المتقدمة. وإني أشهد أني حين أحضر هذه المجالس أحصل منها على فوائد تاريخية واجتماعية غير قليلة.





حول الطبيعة البشرية![1]

في الصيف الماضي انعقد في موسكو مؤتمر علمي حضره نحو ثلاثة آلاف عالم من مختلف أنحاء العالم، وكان الغرض منه إنشاء علم موحد لدراسة الطبيعة البشرية.

وقد اتصل محرر هذه الصفحة بالدكتور علي الوردي ليحاوره في هذا الموضوع، وفيما يلي ننشر فحوى الحوار:

س: هل لديك اطلاع على ما جرى من مناقشات في هذا المؤتمر العلمي العالمي؟

ج: ليس لي سوى اطلاع قليل جداً على المناقشات التي جرت في هذا المؤتمر. فقد أتيح لي في سفرتي الأخيرة إلى أوروبا أن أتعرف على أحد الذين حضروا المؤتمر فأعطاني بعض الصحف والمجلات التي ذكرت عنه شيئاً. وعلى كل حال فإني أتوقع أن تصلني معلومات أوفى عنه قريباً.

خلاصة ما يمكن أن أقوله عن هذا المؤتمر الآن هو أن الموضوع الذي نوقش فيه ليس جديداً. بل كان موضوع تفكير عدد غير قليل من العلماء منذ عشرين سنة. فهو موضوع مهم جداً من الناحيتين العلمية والعملية. ويؤسفني

(١) العدد (١١١) ٢٠ شباط ١٩٨٩.

أن أرى الباحثين العرب مشغولين عنه بمواضيع أخرى ليست لها تلك الأهمية العلمية والعملية.

إننا يجب أن نفهم طبيعتنا البشرية لكي نعرف أنفسنا أولاً ولكي نعرف الناس الذين نتعامل معهم ثانياً. ومشكلة الإنسان بوجه عام أنه بشر ولكنه لا يعرف طبيعته البشرية. فهو يعيش في عالم الأوهام من حيث فهم طبيعته التي خلقه الله بها.. وقد حان الوقت لكي نعود إلى أنفسنا ندرسها بدلاً من دراسة الأفكار الطوبائية التي شغلنا بها أمداً طويلاً ولم نتوصل منها إلى نتيجة مجدية.

إن مؤتمر موسكو تطرق إلى مشكلة في موضوع الطبيعة البشرية كانت موضوع اختلاف وجدل بين العلماء منذ زمن غير قصير. فلا حاجة بنا إلى القول إن هناك عدة علوم تبحث في الطبيعة البشرية، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي وعلم النفس الطبي والإنثرولوجيا وعلم الاجرام وغيرها. وكل واحد من هذه العلوم قد تخصص في دراسة جانب معين من طبيعة الإنسان. والمطلوب الآن هو إنشاء علم موحد يستمد مادته من هذه العلوم المختلفة لتكوين صورة عامة عن الإنسان.

أُثير في المؤتمر سؤال حول المنافع والمضار التي تظهر من جراء إنشاء هذا العلم الموحد.

فهناك من العلماء من لا يقبل بإنشاء مثل هذا العلم لأنه يصبح في نظرهم موسوعياً تضيع قيمة الاختصاص فيه. ففي رأي هؤلاء العلماء أن التخصص سمة العلوم الحديثة وهو الذي ساعد على تنمية هذه العلوم وتطويرها، أما الموسوعية فهي ضارة بها، أو هي بالأحرى تخالف المنهج الذي تسير عليه تلك العلوم.

س: اسمح لي بأن أقاطعك بسؤال عن الموسوعية، فأنت الآن تذمها بينما نجد بعض مجلاتنا وصحفنا تمدحها، فهي إذا أرادت مدح كاتب وصفته بالموسوعية، فما قولك؟

ج: من المزايا التي تميز بها عصرنا هي تنوع الاختصاصات العلمية فيه فالعلوم الآن قد توسعت توسعاً هائلاً بحيث صار من المستحيل على الإنسان أن يلم بها جميعاً، وهو لا بدّ أن يتخصص في علم واحد، أو جزء من العلم، لكي يتمكن من القيام بدوره في هذه الحياة.

إن الموسوعية، أي الإحاطة بجميع العلوم، كانت ممكنة في العصور الماضية وكان في مقدور بعض الأفراد من الذين وهبوا الذكاء المتفوق والذاكرة القوية أن يحيطوا بجميع العلوم تقريبًا وأن يبرعوا فيها. وهذا هو ما اتصف به أفلاطون وأرسطو، أو الفارابي وابن سينا، أما الآن فإن الذي يدعي الموسوعية لنفسه هو مغرور أو جاهل. إن العالم الحقيقي في عصرنا هو الذي يتخصص في علم معين، وإذا سئل في موضوع خارج موضوع اختصاصه فلا بدّ من أن يجيب بقوله: (لا أعلم).

إن هذا الجواب هو كثير التداول في عصرنا أما في العصور الماضية فكان قليل التداول أو هو يدل على العجز والقصور في نظر العوام.

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لننظر في نتائج هذا التوسع الهائل في العلوم وتنوع الاختصاص فيها. فالواقع أن هذا التوسع لا يخلو من مساوئ خاصة به بالرغم مما فيه من محاسن كثيرة. خذ مثلاً تنوع العلوم التي تدرس طبيعة الإنسان، وهي العلوم التي أشرنا إليها آنفاً، فإن هذا التنوع أفادنا في فهم الجوانب المختلفة من الطبيعة البشرية، ولكنه في الوقت نفسه منعنا من تكوين نظرة عامة عن الإنسان ككل، وهذا من مناقشة المؤتمر الذي انعقد في موسكو في الصيف الماضي.

إن العلماء الذين حضروا هذا المؤتمر انقسموا إلى فريقين مختلفين، فالأكثرية منهم دعوا إلى إنشاء علم موحد لدراسة الإنسان، وهم يرون أن المنافع التي تنتج عن هذا العلم هي أكثر من مضاره. أما الأقلية منهم فقد

عارضوا هذا الرأي وذكروا أن إنشاء العلم الموحد يشبه ذلك الطبيب الذي يريد أن يكون بارعاً في جميع الاختصاصات الطبية.

إني أتذكر الآن إعلاناً كنت أقرؤه في الصحف العراقية في العشرينيات وهو عن طبيب كان يعلن عن نفسه قائلاً: (فلان بن فلان طبيب العيون والأبدان). فهذا الإعلان لو أتيح له أن ينشر في الصحف الآن لصار موضع السخرية والتنكيت، أما في وقته فكان مألوفاً.

س: اسمح لي بسؤال آخر وأرجو أن لا تزعل منه، فالمعروف عنك أنك تعمل منذ عدة سنوات على تأليف كتاب حول الطبيعة البشرية. ويبدو لي أن الكتاب عند صدوره سيكون مثل (طبيب العيون والأبدان) أي أنه يبحث في جميع جوانب الطبيعة البشرية، وبهذا تضيع قيمة الاختصاص منه. فما قولك؟

ج: من الممكن أن اعترف لك بأن كتابي عند صدوره سيكون كهذا الطبيب. وهذا هو الذي جعلني أكدح في تأليفه عدة سنوات دون جدوى.

فقد حاولت فيه جمع مختلف النظريات العلمية حول الإنسان، ولكن تعبي ذهب سدًى. فكنت كلما درست ناحية عن الإنسان انفتحت أمامي نواح أخرى منه غير مدورسة. ولكني بالرغم من ذلك لم أفقد الأمل في إخراج الكتاب. فهو على نقصه ربما صار ذا منفعه للقارئ العربي على وجه من الوجوه.

يجب أن لا ننسى أن الطبيب الذي ذكرته كان في وقته ذا نفع للناس على الرغم من عدم تخصصه. فهو قد عاش في زمن لم يكن فيه غير عدد قليل من الأطباء وهم كانوا مثله في عدم التخصص في الغالب. وكان أكثر الناس حينئذاك لا يلجأون إلى هؤلاء الأطباء في معالجة أمراضهم، بل كانوا يلجؤون إلى (الحكماء) أي الأطباء من النمط القديم، أو إلى المتخصصين في الأدعية والطلاسم أو الشعوذة والتنجيم.

إن كتابي في حال صدوره ربما نفع القراء بمثل ما نفع (طبيب العيون والأبدان) الناس في وقته. فنحن الآن نعيش في زمن تسوده كثير من المفاهيم المغلوطة حول الطبيعة البشرية. ولعلني لا أغالي إذا قلت إن كثيراً من مثقفينا لا يزالون يفكرون في طبيعة الإنسان على نحو ما كان يفكر به العقلانيون القدامى إذ هم يعتبرون الإنسان حيواناً عاقلاً ويحاولون إصلاحه بالمواعظ العقلية.

إن الأوساط العلمية في الخارج تشهد ثورة فكرية في مجال النفس والمجتمع تشبه من بعض الوجوه تلك الثورة التي حدثت في مجال التقنية والعلوم الطبيعية. ويؤسفني أن أقول إن الكثيرين من مثقفينا لا يعرفون شيئاً عن هذه الثورة أو هم لا يريدون أن يعرفوا. فإذا واجهتهم بنظرية جديدة عن طبيعة البشر أسرعوا إلى تخطئتها وجاؤوا بالأدلة العقلية والنقلية لتفنيدها على الطريقة الأرسطوطاليسية القديمة.

ومن يقرأ بعض صحفنا ومجلاتنا وكتبنا يجد أنها تعيش في عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه الناس الآخرون في أواخر القرن العشرين. فإن معظم اهتمامها منصب على مواضيع الشعر والأدب، وعلى النقد الأدبي، ونقد النقد، كأن الدنيا قد خليت من جميع المشاكل إلا مشاكل الشعر والأدب. وإني أخشى أن يصل بنا الحال إلى الدخول في المرحلة الثالثة وهي مرحلة (نقد نقد النقد).

س: في رأيي أنك تغالي فيما تقول. فإن من يقرأ صحفنا ومجلاتنا وكتبنا يجدها زاخرة بالدراسات التي تبحث في الطبيعة البشرية وما ظهر عنها من نظريات جديدة. أرجو توضيح قولك!

ج: أرجو أن تفهم قولي قبل أن تنتقدني فأنا قلت بعض صحفنا ومجلاتنا وكتبنا، ولم أقل كلها.

إننا حين نقارن بعض صحفنا ومجلاتنا وكتبنا بتلك التي تصدر في البلاد المتقدمة نجد بوناً شاسعاً.

ومما يثير دهشتي وانزعاجي أن أرى بعض صحفنا تترجم مقالات عن الصحف الأجنبية. ولكنها لا تترجم إلا في المواضيع التي لا تنفعنا في حياتنا الواقعية، كحوادث سلفادور وغواتيمالا ونيكاراغوا وشيلي والإكوادور وأمثالها. هذا مع العلم أن الصحف والمجلات الأجنبية مملوءة بالمواضيع الحيوية التي تتصل بحياة الإنسان ومشاكله النفسية والاجتماعية. وإني أسائل نفسي دائماً. لماذا نوجه جهود مترجمينا نحو ترجمة مواضيع غواتيمالا ونيكاراغوا، بينما هناك مواضيع أخرى أكثر أهمية ونفعاً لنا منها؟!!

ومما يثير دهشتي وانزعاجي أن أرى بعض كتابنا ما زالوا يكتبون بأسلوب الجاحظ والتوحيدي والحريري ومن لف لفهم، وهو الأسلوب الذي ذهب زمانه وحل محله الأسلوب (التلغرافي) الذي يضع اللفظ على قدر المعنى بلا زيادة ولا نقصان. إن الأسلوب التلغرافي هو الأسلوب المتبع في جميع البلاد المتقدمة، وقد حان الوقت لكي نفهم ذلك، ولا نحلق في أجوائنا العالية التي لا يفهمنا فيها إلا القليلون.

إني أتابع الآن ما تنشره بعض صحفنا ومجلاتنا عن (البنيوية) في مجال النقد الأدبي وأشهد أمام الله والتاريخ بأني لم أفهم ما هي (البنيوية) حتى الآن على كثرة ما قرأت عنها.

إن شخصاً مثلي بلغ السادسة والسبعين من عمره وقضى معظم أوقاته في القراءة والكتابة و لم يفهم ما هي (البنيوية) فكيف يا ترى يفهمها غيره من القراء؟!!!

إننا في حاجة ماسة إلى توجيه الأذهان نحو مواضيع تنفعنا في حياتنا العملية.

أما المواضيع (العالية) التي يشغل بعض الكتاب أنفسهم بها فنحن لا نريد منعهم عنها. ولكن الذي نرجوه منهم أن يحصروا مناقشاتهم في أوساطهم الخاصة بهم ولا يشغلوا غيرهم بها.

أرجوكم، أرجوكم!!!





حول التفكير الطوبائي[1]

وردنا من أحد القراء سؤال يقول فيه: (الملاحظ في كتابات الوردي أنه يكثير من انتقاد التفكير الطوبائي والتهجم عليه، ولكننا لا نعرف عن هذا التفكير شيئاً. فما هي الطوبائية وما هو التفكير الطوبائي؟ أرجو من الدكتور الوردي الجواب على هذا السؤال وشكراً).

وقد عرضنا السؤال على الدكتور الوردي بما يلي:

يقول الوردي:

إن الطوبائية هي تعريب للمصطلح الإنكليزي (utopianism) والمقصود به تصور حالة مثالية كاملة لا نقص فيها للمجتمع البشري ودعوة الناس لتحقيقها في حياتهم.

ويمكن القول إن معظم المفكرين القدامى كانوا قد اعتادوا على التفكير الطوبائي عند دراستهم للمشاكل الاجتماعية وكيفية إصلاحها. فهم يضعون خطة مثالية للمجتمع ويطلبون من الناس اتباعها وهم حين يجدون الناس لا يسمعون كلامهم ينهالون عليهم باللوم والتقريع قائلين لهم: إننا قدمنا لكم المنهاج الذي تسعدون به غير أنكم لن تسمعوا نصيحتنا فذوقوا جزاء عملكم.

---

(١) العدد (١١٢) ٢٧ شباط ١٩٨٩.

إن أكثر المواعظ والخطب الرنانة التي زخرت بها العصور القديمة هي من هذا القبيل. فهي تطلب من الناس ما لا طاقة لهم به. ولهذا ظل الخطباء يمطرون رؤوس الناس بمواعظهم مئات السنين دون جدوى. وكانت من نتائج هذه المواعظ الطوبائية أنها خلقت في بعض الأفراد ازدواج الشخصية حيث صاروا يعظون الناس بالمثاليات ولكنهم في سلوكهم الواقعي باقون على ما كانوا عليه. وهم ينطبق عليهم ما ورد في القرآن الكريم: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

أنقل فيما يلي نموذجاً للتفكير الطوبائي وجدته في كتاب صدر في العراق قبل ثلاثين سنة تقريباً حيث يقول المؤلف فيه ما نصه:

(بلى إن المسلمين لو وفقوا لإدراك أيسر خصال الأخوة فيما بينهم وعملوا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرأيت البشر إخواناً على سرر متقابلين وقد كملت لهم السعادة الاجتماعية، ولتحقق حلم الفلاسفة الأقدمين في المدينة الفاضلة فما احتاجوا إلى الحكومات والمحاكم. ولا إلى الشرطة والسجون. ولا إلى القانون للعقوبات وأحكام للحدود والقصاص، ولما خضعوا لمستعمر ولا خضعوا لجبار، ولا استبد بهم الطغاة، ولتبدلت الأرض غير الأرض وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة).

إن المشكلة الكبرى لدى أصحاب التفكير الطوبائي أنهم يغفلون عن الطبيعة البشرية التي جبل عليها الإنسان. وتراهم يضعون خطة مثالية بعيدة عما تقتضيه تلك الطبيعة إنهم يضعون ثقتهم المطلقة في العقل البشري ويحسبون أنه المرشد لجميع أفعال الإنسان وأفكاره وهم لا يدرون أن العقل ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ ليست وظيفته إدراك الحق والحقيقة بل إن وظيفته هي مساعدة الإنسان في تنازع البقاء.

إن الإنسان حين نراه يلهج بالحق والحقيقة ويترنم بمدحها يجب أن نعلم أنه إنما فعل ذلك لأنه وجد الحق والحقيقة في مصلحته أو ضد مصلحة

خصمه. وهو لا يكاد يراهما وقد صارا ضد مصلحته حتى يتنمر لهما ويأتي بالأدلة العقلية والنقلية لتفنيدها. إن الإنسان الذي يحب الحق والحقيقة ولو كان ضد مصلحته إنما هو إنسان نادر أي أنه مستثنى من القاعدة العامة.

النواميس البشرية:

يمكن القول بوجه عام إن الإنسان يخضع في تفكيره وسلوكه لقوانين تشبه قوانين الطبيعة من بعض الوجوه. وهي التي نسميها (النواميس البشرية). ولكن مشكلة الإنسان أنه إذ يخضع لتلك النواميس لا يدري أنه خاضع لها بل يحسب نفسه حراً مختاراً وأنه في أفعاله وأفكاره يسير حسبما يملي عليه عقله الواعي وإرادته الحرة.

وهذا من جملة الأوهام التي ابتلي بها الإنسان وجعلته يخطئ في معرفة نفسه وفي معرفة الآخرين.

للفيلسوف المعروف سبينوزا تشبيه جميل في هذا الشأن. فهو يشبه الإنسان بالحجر الذي يقذف به في الهواء فالحجر لا بدّ أن يسقط في الموضع الذي تحدده القوانين الطبيعية من حيث وزنه. والقوة التي قذفت به. والعوامل التي تؤثر عليه أثناء ارتفاعه وسقوطه. ولكن الحجر لو كان له عقل يفكر به لشعر بأنه سار في الاتجاه الذي رغب فيه وأنه سقط في الموضع الذي اختاره. إن هذا التشبيه الذي جاء به سبينوزا قبل ما يزيد على الثلاثة قرون لا يخلو من مبالغة ولكنه لا يخلو من صواب في الوقت نفسه.

إن الانسان جزء من الطبيعة، وهو لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن الحجر الذي يسقط على الأرض ولكن الفرق بين الإنسان والحجر جاء من كون الحجر يمكن وضعه تحت الدراسة التجريبية الدقيقة. واكتشاف القوانين التي تسيطر عليه في تحركه ونومه في الإنسان فمن الصعب جداً أو من المستحيل أحياناً. وضعه تحت الدراسة التجريبية الدقيقة. فهو مركب عجيب تفاعلت في تكوينه

عناصر وعوامل متعددة يصعب عدّها. إن العلم الحديث قد تمكن من اكتشاف بعض العوامل التي تدخل في تكوين الإنسان وتسييره. ولكن الطريق ما زال طويلاً أمامه في هذا المجال. ومن يدرينا فلعل العلم في نهاية المطاف سيجد الإنسان كالحجر تماماً إذ هو يخضع في جميع حركاته وسكناته لقوانين صارمة، على نحو ما ذكره سبينوزا.

مناقشة الفارابي:

إن الفارابي مفكر عظيم. وهو من الأفذاذ الذين يندر مثيلهم في تاريخ الفكر البشري، ونحن الآن حين نعلن تقديرنا له ينبغي أن لا ننسى أنه كان كغيره من عظماء البشر له جوانب سلبية كمثل ما له من جوانب إيجابية.

الفارابي في تفكيره الاجتماعي كان طوبائياً. وقد ظهرت طوبائيته بوضوح في كتابه المشهور (المدينة الفاضلة) الذي نحا فيه منحى أفلاطون في كتابه (الجمهورية).

وضع الفارابي في كتابه منهاجاً مثالياً عالياً جداً لإصلاح البشر. فقد صوّر فيه مجتمعاً سعيداً يعيش في أتم الصفاء والهناء. وفي رأي الفارابي أن من أهم خصائص هذا المجتمع أن يكون له حاكم صالح ينظم شؤونه ويسوسه بالعدل. وقد ذكر الفارابي الصفات المثالية التي يجب أن تتوافر في هذا الحاكم حيث يكون تام الأعضاء ذكياً فصيحاً معتدلاً صدوقاً عادلاً قوي العزيمة محباً للعلم معتزاً بكرامته. وبعد أن ينتهي الفارابي من تعداد الخصال الرائعة التي يجب أن تتوافر في الحاكم يقول: إذا تولى أمر المدينة ـ أي المجتمع ـ حاكم لا يتصف بهذه الخصال فإن المدينة سوف تتعرض للهلاك بعد مدة.

مشكلة الفارابي وأمثاله من المفكرين الطوبائيين أنهم يقبعون في أبراجهم العاجية ويتأملون. وإذا فكروا برأي لإصلاح المجتمع فإنه لا يهمهم أن يكون هذا الرأي عملياً وممكن التحقيق في هؤلاء البشر الذين يعيشون بينهم. إنهم

يكتفون بأن يكون الرأي رائعاً في حدِّ ذاته. أما أمر تطبيقه عملياً فهم لا يقلقون أنفسهم به.

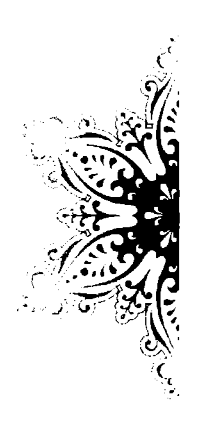
دعنا نختبر الفرضية التي جاء بها الفارابي لإصلاح المجتمع وهي اختبار حاكم له يجمع في نفسه الخصال المثالية. فنحن نعرف أن البشر لا يمكن أن يتفقوا كلهم على رأي واحد في أي أمر من الأمور. وهم لا بدّ أن يختلفوا فيه ويتنازعوا.

لو فرضنا أن الفارابي وجد الشخص الصالح الذي يتصوره وطلب من الناس اختياره حاكماً، فهل هم سيستجيبون كلهم له ويوافقون على رأيه؟ إن الذي يعرف طبيعة البشر لا بدّ أن يتوقع ظهور معارضين لا يرضون عن الشخص الذي اختاره الفارابي. ويأخذون بالبحث عن معائبه ومثالبه، ويبالغون فيها، كما هو ديدن الناس دائماً حين يبغضون شخصاً.

ولو فرضنا أن الناس جميعاً قد رضوا بهذا الشخص فكيف يستطيع هو أن يصل إلى مركز الحكم؟ فنحن نعلم أن مركز الحكم شاغر وجاهز لكي يتولاه هذا الشخص المختار. وليس من طبيعة الحكام الذين يتولون الحكم فعلاً أن يتنازلوا لهذا الشخص عن كرسي الحكم ويقولوا له: (تفضل اجلس عليه بدلاً منا فأنت أصلح به منّا). إن التقوقع الأنوي الموجود في كل إنسان لا يسمح له أن يتنازل لغيره. عن شيء يملكه، إذ هو يعتبر نفسه أولى بهذا الشيء من غيره.

الخلاصة:

خلاصة القول إن البشر جبلوا على طبيعة لا يمكن تغييرها. وهم كانوا كذلك منذ خلقهم الله على وجه هذه الأرض، وسيبقون كذلك حتى قيام الساعة. فالبشر مختلفون متنازعون بطبيعتهم وليس في مقدورهم أن يتفقوا جميعاً على رأي واحد حتى ولو جاءهم هذا الرأي من السماء. وقد رأينا ما فعل الناس بالأنبياء الذين يقدسونهم اليوم فهم إنما يقدسونهم لأنهم نشأوا في بيئة تقدسهم. ولو أنهم نشأوا في بيئة تعبد الأوثان لحاربوا الأنبياء كما حاربهم أسلافهم من قبل.

حول التنازع[1]

في الحلقة الماضية من هذه الصفحات تحدث د. علي الوردي في موضوع التفكير الطوبائي. وقد وردتنا حول هذا الموضوع بعض الردود والأسئلة من القراء، وكان من ضمن الأسئلة سؤال وجدناه شديد اللهجة ولم نعرف هل كان صاحب السؤال قد قصد به الجدّ أو الهزل؟ وهذا هو السؤال كما وردنا بنصه:

(إلى الدكتور علي الوردي.. إنك في حديثك السابق تقول بأن الدعوة إلى التآخي بين الناس دعوة طوبائية، وهذا قول منك لا نستسيغه. فماذا تريد منا أن نفعل، وهل تريد منا أن ندعو الناس إلى التخاصم والتنازع؟ لقد صبرنا عليك وعلى أقوالك (الخربوطية) طويلاً. فإلى متى؟!!).

وقد عرضنا السؤال على الدكتور الوردي فكتب لنا جواباً عليه ما يلي:

يقول الوردي:

أيها القارئ الصريح أشكرك على صراحتك التي لا أدري هل هي جدية أو هزلية، وأرجو أن تكون هزلية بعون الله!

إنك قد أسأت فهم حديثي السابق. فإنني لم أقصد به الدعوة إلى

(١) العدد (١١٣) ١٦ آذار ١٩٨٩.

التخاصم والتنازع، بل أردت أن أقول بأن التنازع أمر طبيعي في البشر لا مفرّ منه، فليس في مقدور البشر أن يكونوا متعاونين من غير تنازع أو متنازعين من غير تعاون. فالتنازع والتعاون مترابطان في الطبيعة البشرية، لا ينفك أحدهما عن الآخر. والذي يطلب من البشر أن يكونوا متعاونين تعاوناً تاماً لا تنازع فيه إنما هو مفكر طوبائي لا يختلف في منطقة الفكري عن أولئك المفكرين القدامى الذين كانوا يحلقون في عالم المثل عالياً ويغفلون عن واقع البشر الذين يعيشون بينهم.

أعود فأقول إن التنازع بين البشر أمر محتوم لا مفرّ منه. فهو يختلف في صور وأنماطه غير أنه لا يمكن أن يختفي نهائياً من حياة البشر. ونحن ينبغي أن لا نعجب حين نرى البشر يتنازعون بل الأحرى بنا أن نعجب حين نراهم جميعاً في صفاء تام لا تنازع فيه. ليس في مقدور الإنسان أن يعيش منعزلاً عن غيره من البشر انعزالاً تاماً كما أنه ليس في مقدوره أن يتعاون مع غيره من البشر تعاوناً مطلقاً بلا حدود.

إن الإنسان لديه حاجات لا يمكن إشباعها إلا عن طريق التعاون مع الآخرين، ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يستمر في تعاونه مع الآخرين حتى النهاية، ولا بدّ أن يجد نفسه في بعض الأحيان مدفوعاً نحو التنازع معهم على وجه من الوجوه.

الملاحظ في الطفل أنه يميل إلى التعاون والتنازع معاً منذ بداية شعوره بالأنا. فهو إذا شاهد قريناً له من الأطفال ابتسم له وأنس بصحبته وصار يتعاون معه في اللعب غير أنه لا يستمر في ذلك فترة طويلة، إذ سرعان ما نراه قد اندفع للتشاجر معه لسبب من الأسباب وصار الطفلان يتشابكان بالأيدي، وقد يضرب أحدهما الآخر أو يختطف ما في يده بالقوة.

إن الإنسان ليس حيواناً محضاً ولا إنسان محضاً، بل هو حيوان وإنسان في آن واحد. فهو إنما يتعاون مع غيره لأنه مضطر إلى ذلك فهو لا يستطيع أن

يعيش منفرداً كالحيوان ولا بدّ له من مجتمع يربيه ويساعده على تكوين طبيعته البشرية. فالإنسان إذن يتعاون مع الجماعة التي ينشأ فيها وترتبط مصالحه وعواطفه بها. ولكنه لا يكاد يلمح من بين جماعته أحداً ينافسه أو يختلف معه على مصلحة له مادية أو معنوية حتى تنتقض من أعماقه طبيعته الحيوانية فيكشر عن أنيابه وتبرز مخالبه الخفية.

إن الحياة الاجتماعية تجعل الإنسان في أكثر الأحيان مضطراً إلى أن يكتم غبظه ويداري خصمه ويجامله، فلا ينقض عليه كما ينقض السبع الضاري على فريسته. إنه يتمنى أن يفعل ذلك ولكنه يخشى من كلام الناس، أو يخشى من عقاب السلطة القائمة، ولولا ذلك لفعل بخصمه مثلما يفعل الذئب عند افتراسه للنعجة إذ هو يلتهمها بلذة ثم يضطجع مطمئناً كأنه لم يفعل شيئاً.

إن تلازم التعاون والتنازع في المجتمع البشري هو الذي جعله يختلف عن مجتمع النحل والنمل وغيرها من الحشرات الاجتماعية. فالنحلة تتعاون دائماً مع أبناء نوعها ولا يمكن أن يظهر لديها أي ميل للتنازع معهم. وسبب ذلك أن النحلة إنما تجري في حياتها الاجتماعية تحت تأثير الغريزة وهي بذلك كالآلة الصماء تعمل على وتيرة واحدة لا تتغير. أما الإنسان فليس لديه مثل هذه الغريزة، بل هو مدفوع في حياته الاجتماعية بدوافع أخرى، وهي دوافع تؤدي إلى التعاون والتنازع معاً.

الجانب الآخر:

أرجو من هذا القارئ العزيز أن يعلم أن التنازع ليس شرّاً كله كما يقول به المفكرون الطوبائيون. فالتنازع له وظيفته في الحياة الاجتماعية. ومن هنا جاء الحديث النبوي الشريف القائل: (اختلاف أمتي رحمة).

إن التنازع هو الذي جعل المجتمع البشري يختلف عن مجتمع النحل أو النمل أو غيرهما من الحشرات الاجتماعية. فإن المجتمعات الحشرية تظل على

حالها دون تغير على مدى ملايين السنين، أما المجتمع البشري فهو لو قام على أساس التعاون وحده لصار كالمجتمع الحشري جامداً ساكناً لا يعرف من دنياه غير ما ورثه من الآباء.

إن كل تجديد أو إصلاح في البشر لا بدّ أن يحدث تنازعاً بينهم. فالأكثرون منهم يتعصبون لما وجدوا عليه آباءهم، على نحو ما ذكره القرآن. أما الأقلون منهم فهم الذين يؤيدون الدعوة الإصلاحية الجديدة.

وعند هذا ينشب الصراع بينهم. وحين تنجح الدعوة الجديدة وتنتشر بين الناس تكون هي بدورها في حاجة إلى ظهور من يجدد فيها وهكذا يستمر النزاع بين البشر إلى ما لا نهاية له.

لعل من المناسب أن أذكر هنا ما جرى من جدل بيني وبين أحد المفكرين الطوبائيين في عام ١٩٥٤ عندما أصدرت كتاب (وعاظ السلاطين) فقد ذكرت فيه الحديث النبوي القائل: (اختلاف أمتي رحمة) فرد عليّ المفكر الطوبائي بكتاب قال فيه نصه:

(محمد ﷺ الذي بذل كل جهوده ومنتهى مساعيه لتوحيد الأمّة بل البشرية جمعاء، فأمرها ﷺ بالاتفاق على رأي واحد وعقيدة واحدة ودين واحد وكتاب واحد وقبلة واحدة وحزب واحد... أترى أن محمداً ﷺ هذا المفكر العظيم يناقض نفسه بنفسه ويخالف القواعد الاجتماعية العامة فيحبذ الاختلاف ثم يصفه بأنه (رحمة). حاشا وكلا لصاحب تلك التعاليم الخالدة الذي أرسل رحمة للعالمين أن يدعو إلى الاختلاف والشقاق وقد عرف الجميع ما في الاختلاف من الضعف والهوان والدمار والتفكك والانحلال وتفسخ الأخلاق وانعدام النظام).

إن هذا الكاتب يعتقد أن الاختلاف بين الناس يؤدي إلى الضعف والهوان

والدمار والتفكك والانحلال وتفسخ الأخلاق وانعدام النظام وكان جوابي له أن ما تقوله صحيح ولكنك يجب أن لا تنسى أن عدم الاختلاف يؤدي من الجهة الأخرى إلى الركود والجمود وبقاء كل قديم على قدمه.

إن التنازع كأي شيء في هذه الدنيا له جوانبه الإيجابية والسلبية معاً. فهو يضرّ المجتمع من جهة وينفعه من الجهة الأخرى.

ظهر في الفكر الإسلامي في العصر الحديث رجلان مصلحان أحدهما سني هو الشيخ محمد عبده، والآخر شيعي هو السيد محسن الأمين. وقد جوبه كل منهما بالشتم المقذع والاتهام. وإني أتذكر الضجة التي حدثت في العراق عام ١٩٢٩ عندما أصدر السيد محسن الأمين كتاباً بعنوان (رسالة التنزيه لأعمال الشبيه) حيث انتقد فيه ما كان يجري بين العوام من طقوس ومواكب تشوه سمعة الإسلام وتضر المسلمين. وإني ما زلت أحتفظ بالكتاب الذي صدر في ذلك الحين وبجميع الكتب والفتاوى التي صدرت ضده. وقد نظم أحد خطباء المنابر بيتاً من الشعر وصف فيه السيد محسن بأنه (متزندق) وطلب من الناس البصق في وجهه.

إن الحركات الإصلاحية من النوع الذي قام به الشيخ محمد عبده والسيد محسن الأمين وغيرهما لا بدّ أن تثير التنازع بين الناس فريق يؤيد هذه الحركات وآخر يقاومها. ولو أننا اتبعنا ما يقول به الطوبائيون من ترك التنازع لصار الدين ألعوبة بأيدي السلاطين والعوام يلعبون به كما يشتهون. وهذا يصدق على جميع قضايا المجتمع كمثل ما يصدق على الدين.



حول العقل البشري[1]

في مساء ٢٢/ ٢/ ١٩٨٩ ألقى الدكتور علي الوردي في قاعة اتحاد الأدباء محاضرة عنوانها (طبيعة العقل البشري) ومن الجدير بالذكر أن هذا الموضوع كان قد تطرق إليه الدكتور الوردي في حلقة سابقة من هذه الصفحة كما تطرق إليه في بعض كتبه ومقالاته السابقة. ومن الجدير بالذكر أن هذا الموضوع هو من صميم اختصاص الدكتور الوردي وهو يعتذر لكثرة التكرار فيه. وقد وردتنا من القراء رسائل يطلبون فيها من الوردي مواصلة الحديث فيه وهم يقولون إن موضوع العقل مهم جداً لنا في حياتنا العملية، ومهما كرر الوردي فيه فنحن لا نشبع منه.

اتصل محرر الصفحة بالدكتور الوردي وسأله عن السبب الذي جعل القراء يولون موضوع العقل هذا الاهتمام الكبير. وكان فحوى جواب الوردي كما يلي:

في رأي الوردي أننا في بيئتنا الشرقية قد نشأنا على تمجيد العقل وعلى الثقة المطلقة به. وهذا جاءنا من الإغريق القدماء منذ خمسة وعشرين قرناً، وظل المفكرون يلهجون به ويتجادلون فيه جيلاً بعد جيل، حتى أصبح في نظر

---

(١) العدد (١١٤) ١٣ آذار ١٩٨٩.

الناس كأنه من الحقائق المطلقة التي لا شك فيها. وقد انتقلت هذه النظرة إلى العوام عندنا، فأنت لا تكاد تتحدث إلى أحد العوام في موضوع غير مألوف لديه حتى يسرع إلى تكذيبه قائلاً: (إن الله أعطانا العقل لكي نميز به الأمور)..

يقول الوردي إن العقل نزل عن عرشه الذي كان متربعاً عليه قديماً. فقد اكتشفت البحوث الحديثة فيه عيوباً كثيرة. فالعقل الآن لم يبق كما كان في الماضي خالياً من كل عيب على نحو ما كان المفكرون القدماء يعتقدون به. ويقول الوردي إن هذا هو الرأي السائد الآن من الأوساط العلمية في الخارج ولكنه لم يصل بعد إلينا إلا ضمن نطاق محدود جداً. ويبدو أن أبناء الجيل الجديد يتطلعون إلى معرفة هذا الموضوع والتعمق فيه، وهم في ذلك على النقيض من أبناء الجيل الذي قبلهم، فهؤلاء ما زالوا يسيرون في تفكيرهم على المنهج العقلاني القديم ولا يريدون التحول عنه.

إن محرر هذه الصفحة طلب من الوردي أن يواصل البحث في موضوع العقل بالرغم مما حدث فيه من تكرار. ففي رأي المحرر أن التكرار في هذا الموضوع وإن كان يثير الملل لدى بعض القراء فإنه قد يثير اهتمام البعض الآخر منهم. يجب أن لا ننسى أن القراء ليسوا كلهم من نمط واحد أو ذوق واحد، فما يسأم البعض منهم قد يشغف به آخرون. إن القراء كثيرون ولا يجوز أن نهتم برغبة البعض منهم بينما نهمل رغبة البعض الآخر.

تدور معظم الأسئلة التي وردت إلى هذه الصفحة حول النقطة التي ذكرها الدكتور الوردي في حديث سابق وهي أن العقل البشري بمقدار ما هو عظيم مبدع في النواحي هو عاجز أو مشلول في النواحي الأخرى. والمطلوب من الوردي أن يشرح لنا هذه النقطة لمزيد من التوضيح. وقد استجاب الوردي لطلبنا هذا مشكوراً ننشر كما يلي ما كتبه لنا في هذا الشأن:

يقول الوردي:

قلت سابقاً، وأعيد القول هنا، إن العقل البشري ليست وظيفته إدراك الحق والحقيقة كما كان المفكرون القدامى يعتقدون، بل إن وظيفته هي مساعدة الإنسان في تنازع البقاء. ومعنى هذا أن وظيفة العقل للإنسان هي كوظيفة الخرطوم للفيل والمخلب للأسد والسم للعقرب والقرون للخروف.

إن العقل بارع في ابتكار الوسائل أو جمع الأدلة التي تساعد الإنسان في التغلب على خصمه وخصم الجماعة التي ينتمي إليها، وهو في الوقت نفسه عاجز أو مشغول تجاه الحقيقة التي لا تلائمه أو تلائم جماعته.

أذكر في هذه الحلقة ناحية واحدة من النواحي التي يكون العقل فيها عاجزاً مشلولاً، على أن أذكر النواحي الأخرى في حلقات قادمة. إن شاء الله!

التراثية:

أقصد بالتراثية ما يسمى في الاصطلاح العلمي Gitune ومعناه مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والعادات والمألوفات التي يتميز بها مجتمع عن آخر، والتي ينشأ عليها الإنسان منذ طفولته.

إن الإنسان حين ينشأ في تراثية معينة يصبح كالذي يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فهو يعتقد اعتقاداً بصحة المعتقدات والقيم التي نشأ عليها حتى لو كانت هي في حدّ ذاتها سخيفة أو مضرة أو غير معقولة. وبعبارة أخرى. إن الإنسان تحت تأثير التراثية التي ينشأ فيها يخضع لتنويم يمكن أن نسميه (التنويم الاجتماعي). ومعنى ذلك أن عقل الفرد الذي ينشأ في تراثية معينة يصبح مشلولاً لا يفهم الدنيا إلا من خلال القوالب الفكرية التي أوحى بها إليه مجتمعه المحلي منذ طفولته.

إن التنويم الاجتماعي يظل مسيطراً على عقل الفرد ما دام الفرد قابعاً في مجتمعه المحلي لا يفارقه. وهو لا يكاد يتصل بمجتمعات أخرى عن طريق السفر أو القراءة أو الاختلاط حتى يبدأ التنويم بالانقشاع عنه قليلاً أو كثيراً. وكلما كان الفرد أكثر اطلاعاً وأكثر ذكاء كان انقشاع التنويم الاجتماعي عنه أكثر.

خذ على سبيل المثال فرداً يعيش في قرية بدائية منعزلة، فإن التنويم الاجتماعي فيه يكون على أشده، ومن المستحيل أن تقنعه بصحة رأي أو عقيدة مخالفة للتراثية التي نشأ عليها مهما كان الدليل العقلي الذي تقدمه إليه قوياً واضحاً. وهذا الفرد لو أخذ من قريته فجأة وجيء به إلى مدينة كبرى من مدن العالم المتحضر لأصيب بصدمة نفسية هي التي تسمى علمياً (الصدمة التراثية) (cultunal shock).

من الظواهر الاجتماعية التي تدل على تأثير التنويم الاجتماعي في عقل الإنسان هي مقاومة الناس للأنبياء والمصلحين. وهذه ظاهرة تلاحظ في كل زمان ومكان ولا يمكن أن يخلو منها أي مجتمع من المجتمعات البشرية.

إن كل نبي أو مصلح لا بدّ أن يقاومه أكثر الناس، ولا يؤيده في بداية دعوته إلا قليل جداً من الناس. وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة في عدد من آياته حيث وصف الناس عند مقاومتهم للأنبياء بأنهم يتبعون المبدأ القائل: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

ذكر المؤرخون أن النبي محمداً ﷺ ظل يدعو قومه إلى عبادة الله في بداية الدعوة طيلة تسع سنوات، فلم يؤمن بدعوته سوى أربعين شخصاً. أما الباقون من أفراد المجتمع فقد ظلوا متمسكين بالعقائد التي نشؤوا عليها منذ طفولتهم، أي بالعقائد التي وجدوا عليها آباءهم كما وصف القرآن. وصاروا يعتدون على النبي وأصحابه ويضطهدونهم.

والملاحظ أن الناس بعد أن يقاوموا الدعوة الجديدة ويضطهدوها في بدء أمرها يدخلون فيها أخيراً حيث تصبح جزءاً من تراثيتهم.

وعند هذا قد يظهر في الناس مصلح يريد تنقية الدعوة من التحريف الذي طرأ عليها. وهذا المصلح سيجابه من الناس مقاومة تشبه تلك التي جابهها النبي من قبل. وهكذا يسير التاريخ مرة بعد مرة.

إن الناس لا يقاومون الدعوة الدينية أو الإصلاحية فقط بل هم يقاومون كذلك كل نظرية علمية جديدة تخالف التراثية التي نشؤوا عليها. إن ما فعله الناس تجاه غاليلو وبرونو وداروين وغيرهم أمر معروف لا حاجة بنا إلى ذكره.

وإني أذكر ما جرى في العشرينيات عندنا من صراع عنيف بين المحافظين والمجددين في قضايا كثيرة. وقد صدر في تلك الآونة كتاب عنوانه: (السيف البتار على الكفار الذين يقولون المطر من البخار). وشهدت أنا شخصاً يعتدي على آخر بالضرب والإهانة لأنه قال بأن المطر من البخار.

قصة الأسكيمو:

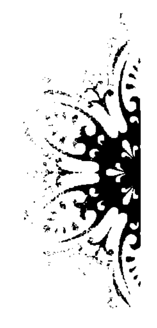
يقال عن قبائل الأسكيمو التي تسكن في شمال أمريكا بالقرب من القطب الشمالي إن لديهم عادة هي أن الضيف الذي ينزل في بيت أحدهم يجب أن ينام مع زوجة صاحب البيت. وقد يغضب صاحب البيت إذا وجد الضيف يمتنع عن النوم مع زوجته، ويعتبر ذلك إهانة له.

إننا حين نسمع هذا الخبر عن الأسكيمو نعتبره غير معقول ولا يمكن أن يحصل في أي مجتمع من المجتمعات البشرية. ولكننا لا ندري أننا لو كنا قد نشأنا في نفس التراثية التي نشأ فيها الأسكيمو لصرنا مثلهم. وفي هذا يظهر بوضوح مبلغ العجز أو الشلل الذي يصاب به العقل من جراء تأثره بالتنويم الاجتماعي.

إننا نستطيع أن نأتي بأمثله واقعية كثيرة في هذا الشأن. فنحن حين نسمع عن بعض المعتقدات الموجودة لدى بعض الشعوب، والتي هي سخيفة جداً في نظرنا كعبادة البقر عند الهندوس، أو عبادة الحجر عند الوثنيين، نتعجب منها ونتساءل كيف جاز لهؤلاء أن يتمسكوا بمثل هذه المعتقدات؟ أليس لديهم عقول يفكرون بها؟

نحن لا ندري أننا لو كنا قد نشأنا في مثل تراثية هؤلاء ولم نعرف غيرنا لصرنا مثلهم تماماً. إن عقلنا الآن يعتبر هذه المعتقدات سخيفة لأننا نشأنا في تراثية تستنكرها. ولو كنا قد نشأنا في بيئتهم لكان عقلنا يفكر على نمط آخر.





بين الجهل والعلم[1]

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي في ناحية واحدة من النواحي التي يكون فيها العقل البشري عاجزاً أو مشلولاً وهي (التراثية) وكان يعني بـ (التراثية) مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والعادات والمألوفات التي ينشأ عليها الإنسان منذ طفولته في مجتمعه المحلي. فالإنسان الذي يظل في كبره قابعاً في مجتمعه المحلي لا يعرف غيره يكون عقله محدوداً في إطار التراثية التي نشأ عليها، وهو لا يستطيع أن يفهم الأمور إلا من خلال هذا الإطار.

وقد وعدنا الدكتور الوردي أن يواصل الحديث في هذا الموضوع وفي هذه الحلقة يتحدث عن ناحية ثانية من النواحي التي يكون فيها العقل عاجزاً مشلولاً، وهذه الناحية هي الجهل.

يقول الوردي:

إن الجهل في تأثيره على العقل يشبه التراثية من جهة ويختلف عنها من الجهة الأخرى. فالناس حين يختلفون في تراثيتهم قد يؤدي ذلك بهم إلى التنازع والاقتتال، ولا سيما إذا كان الاختلاف في المعتقدات الدينية، على نحو

---

(١) العدد (١١٥) ٢٠ آذار ١٩٨٩.

ما حصل في المعارك الطائفية التي امتلأ بها التاريخ البشري. ولكن الناس حين يختلفون في درجة جهلهم للأمور فإن ذلك لا يؤدي إلى التنازع والاقتتال في أكثر الأحيان بل يؤدي إلى الاستغراب أو التكذيب فقط.

ويجب أن لا ننسى أن التراثية والجهل كثيراً ما يختلطان في الإنسان ويكونان دافعاً واحداً. خذ على سبيل المثال قصة غاليليو الإيطالي الذي قدم إلى محكمة التفتيش في عام ١٦٤٢ بتهمة قوله بأن الشمس واقفة وأن الأرض هي التي تدور حولها. فهذا الرجل عندما مثل أمام المحكمة اعترف بخطئه وطلب المعذرة. وقد ساعده هذا الاعتراف على تخفيف الحكم عنه حيث حكمت المحكمة عليه بأن يحجر في بيته ويعتزل الناس. وقد ظل غاليليو محجوزاً ببيته طيلة عشر سنوات إلى أن مات وهو في الثامنة والسبعين من عمره.

إن هذه القصة تدل على أن الجهل والتراثية يختلطان في بعض الناس ويكونان دافعاً واحداً. فقضاة محكمة التفتيش كان يدفعهم إلى معاقبة غاليليو سببان، أحدهما التراثية التي نشؤوا عليها وهي التي تعتبر القول بدوران الأرض حول الشمس نوعاً من الهرطقة أي الزندقة. أما السبب الثاني فهو قد نشأ عن الجهل، فالقضاة لو كانوا قد عاشوا في عصرنا ودرسوا في المدارس الحديثة عن دوران الأرض حول الشمس لما استنكروا قول غاليليو ولما عاقبوه.

س: ما هو الفرق الأساسي بين الجاهل والعالم في فهمهما للأمور؟

ج: إن الجهل والعلم أمران نسبيان، فليس هناك جهل مطلق أو علم مطلق. ويصح القول إن كل واحد منا وهو جاهل وعالم في الوقت نفسه، فهو يعرف بعض الأمور بينما هو يجهل أموراً أخرى. ولم يظهر في هذه الدنيا إنسان يعرف أسرار الكون أو أسرار الحياة كلها. وفي هذا مصداق لما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

في سنة ١٨٦٢ جاء أحد التجار من كربلاء إلى بغداد بغية إنجاز عمل

تجاري له. وكانت بغداد في تلك السنة قد وصلت إليها أسلاك التلغراف التي تربطها باسطنبول. وسمع التاجر الناس يتحدثون عن هذا الاختراع العجيب وكيف أن الإنسان يدق على حديدة في بغداد فيسمعها إنسان آخر في اسطنبول. وهو قد استنكر الخبر في بداية الأمر وكذبه، ولكن أصحابه التجار ذهبوا به إلى دائرة التلغراف ليشاهد بعينه الحديدة التي يدقها الإنسان فتسمع في اسطنبول. ولما عاد التاجر إلى كربلاء صار يتحدث إلى الناس عن الحديدة التي يدقها الإنسان فتسمع في اسطنبول. ولما عاد التاجر إلى كربلاء صار يتحدث إلى الناس عن الحديدة العجيبة التي شاهدها بعينه. فأخذ الناس يشككون في سلامة عقله، وفسروا حديثه بأنه ناتج للخمر الذي تعلم عليه في بغداد.

إن قصة هذا التاجر ليست شاذة أو نادرة، وقد شهدت أنا من أمثالها في حياتي كثيراً. فالناس إذا سمعوا عن أمر مخالف لمألوفاتهم العقلية السابقة أسرعوا إلى تكذيبه حالاً واعتبره غير معقول وقالوا إن العقل لا يمكن أن يقبل به، ولكنهم سوف يعتبرونه معقولاً بعدما يعتادون عليه.

ولا يقتصر هذا على العوام فقط بل هو يشمل العلماء أيضاً ولكن بدرجة أقل. فالمعروف عن بعض العلماء في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن أنهم أسرعوا إلى تكذيب المخترعات التي ظهرت في أيامهم واعتبروها مستحيلة، ثم تبين لهم أخيراً أنهم كانوا مخطئين.

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد إن الإنسان بوجه عام حين ينظر في الأمور لا بدّ أن تكون نظرته محدودة في إطار مفاهيمه ومألوفاته العقلية السابقة. فالعقل البشري وليس كما كان المفكرون العقلانيون يتصورونه قديماً من أنه قادر على فهم الحقيقة الخارجية فهماً كاملاً. فالواقع أن الحقيقة لا يمكن فهمها بشكلها النهائي الكامل أبداً. فالكون مملوء بالأسرار التي لا نعرف عنها إلا قليلاً، وكلما اكتشف العلم منها شيئاً ظهرت أمامه أسرار أخرى. إن أعظم العلماء في عصر يبدو جاهلاً تجاه عالم في عصر قادم.

س: إنك ذكرت في بعض كتبك أن هناك فرقاً كبيراً بين التفكير العلمي في القرن التاسع عشر والتفكير العلمي في القرن العشرين، فالرجاء توضيح ذلك.

ج: كان القرن الماضي يسمى قرن الغرور العلمي. فقد كانت الحقائق العلمية التي اكتشفها العلماء في ذلك القرن وما قبله بعثت فيهم الغرور وظنوا أنهم توصلوا إلى فهم الأسرار الكلية في الكون، ولم يبق عليهم سوى التوصل إلى فهم الجزيئات والتفاصيل. ومن هنا جاء قول بوخنر في منتصف القرن الماضي وهو:

(إن الكون ليس فيه سوى المادة والحركة فقط لا غير) وقد صارت هذه المقولة مسيطرة على أذهان العلماء حتى أواخر القرن فقد ظهرت حينذاك اكتشافات جديدة مذهلة في مجال الذرة والإشعاع والكون وطبيعة المادة والفضاء. وعند هذا أدرك العلماء أنهم كانوا قبلئذ واهمين مغرورين وأن الكون مملوء بالأسرار التي يعجز العقل البشري عن إدراك كنهها.

إن العقل البشري بطبيعته محدود جداً، فهو كما أشرت إليه آنفاً لا يستطيع أن يفهم شيئاً جديداً إلا من خلال مفاهيمه ومألوفاته السابقة. وإذا كان الشيء غير ملائم لتلك المفاهيم والمألوفات فإن العقل يعجز عن فهمه.

خذ مثلاً الكهرباء التي نستعملها في معظم شؤوننا اليومية، في الإنارة والتكييف والإذاعة والتلفزة ووسائل النقل والمواصلات. ولكننا على كثرة استعمالاتنا لا نعرف عن ماهيتها شيئاً.

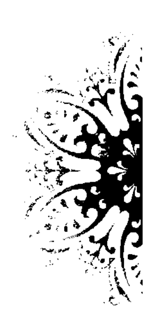
ويمكن أن نقول مثل هذا عن أسرار الحجيرة الحية، أو أسرار المخ، أو أسرار الفلك الواسع، فكلما تغلغل الباحثون في دراسة هذه الأسرار شعروا بالعجز المطبق. لهذا يمكن اعتبار القرن العشرين بأنه قرن التواضع العلمي، وذلك مقارنة بالقرن الماضي الذي كان يسمّى قرن الغرور العلمي كما أسلفنا.

نستنتج مما ذكرناه أن الناس جهلاء غير أنهم يتفاوتون في درجة الجهل فيهم. وهذا هو الذي جعل المنطق الاستنتاجي مغلوطاً وجعل المنطق الاستقرائي أقرب إلى الصواب منه.

إن المنطق الاستنتاجي كما ذكرنا في حلقة ماضية من هذه الصفحة يعتمد في التفكير على كليات عقلية عامة ويعتبرها حقائق مطلقة، ثم يستنتج منها الآراء التي يرغب فيها. فقد اتضح الآن علمياً أن ليس في هذه الدنيا حقائق مطلقة، فما نعتبره اليوم من الحقائق المطلقة قد نعتبره غداً مغلوطاً. وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ العلم الحديث كما هو معروف.

إن المنطق الاستقرائي هو على النقيض من المنطق الاستنتاجي في ذلك، إذ هو لا يعتمد على الكليات العقلية العامة أو الحقائق المطلقة، بل هو يعتمد على البحث الموضوعي والتجريبي ولا يبالي بغيرهما. إن العلماء اليوم حين يجدون ظاهرة جديدة غير مألوفة لديهم لا يسرعون إلى تكذيبها على نحو ما كان أسلافهم يفعلون قديماً، بل هم يضعونها على بساط البحث، وإذا توصلوا إلى نتيجة معينة في بحثهم فإنهم لا يجزمون بصحتها بصورة مطلقة، بل يقولون إن صحة النتيجة محدودة بحدود الوقائع التي وضعت تحت البحث، وربما جاء بعدهم باحثون آخرون يدرسون وقائع أخرى ويتوصلون إلى نتيجة تختلف عن النتيجة الأولى قليلاً أو كثيراً.







العاطفة والتفكير[1]

في الحلقتين الماضيتين تحدث الدكتور علي الوردي عن اثنتين من النواحي التي يكون العقل البشري فيها عاجزاً أو مشلولاً، هما التراثية والجهل. ويتحدث الوردي الآن عن ناحية ثالثة في هذا الموضوع وهي العاطفة.

يقول الوردي:

إن تأثير العاطفة على العقل البشري أدركه البشر ببديهيتم منذ قديم الزمان وقد وردت فيه أمثال متنوعة في جميع الشعوب، ولدينا في اللغة العربية أمثال من هذا النوع غير قليلة في العامية وفي الفصحى.

إن العوام في العراق يقولون في أحد أمثالهم الدارجة: (حب واحكي واكره واحكي). وفي مصر مثل عامي يشبه هذا المثل العراقي هو (حبيبك يبلع لك الزلط وعدوك يلقي لك الغلط). ومن الجدير بالذكر هنا أن أشهر مثل ورد في اللغة العربية الفصحى في هذا المعنى هو ما قاله الإمامِ الشافعي في بيت له من الشعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

---

(١) العدد (١١٦) ٢٧ آذار ١٩٨٩.

فهذا البيت كان الأدباء في الجيل الماضي يرددونه فيما بينهم دائماً وما زال البعض منهم يفعل ذلك حتى الآن.

أذكر فيما يلي مجموعة من الأمثال العربية القديمة التي تشير إلى مثل هذا المعنى وهي:

١ ـ حسن في كل عين ما تود.

٢ ـ عين الهوى لا تصدق.

٣ ـ الحب أعمى.

٤ ـ حبك للشيء يعمي ويصم.

٥ ـ إن الهوى شريك العمى.

٦ ـ كل فتاة بأبيها معجبة.

٧ ـ من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

٨ ـ الفرد في عين أمه غزال.

إن العاطفة تشبه الغربال للعقل فأنت إذا أحببت شيئاً أخذ عقلك يركز نظره على محاسن ذلك الشيء ويغض نظره عن مساوئه.

وعندما تتحول من الحب إلى البغض نحو ذلك الشيء تنقلب محاسنه إلى مساوئ طبعاً.

إني أتذكر ما فعل بعض الناس في العراق من تعاطف مع النازية خلال الحرب العالية الثانية ثم تحولوا بعدئذ إلى التعاطف مع الشيوعية. فالنازية والشيوعية متناقضتان في مبادئهما وأهدافهما ولكن الناس لم يكترثوا بهذا التناقض الواضح إذ كانوا يلهجون بمحاسن النازية في أول الأمر ثم صاروا يلهجون بمحاسن الشيوعية أخيراً. ولا لوم عليهم في ذلك فهم بشر كغيرهم من

الناس يفكرون بعواطفهم أكثر مما يفكرون بعقولهم المنطقية الواعية. وبعبارة أخرى: إنهم كانوا متذمرين وهم يتعاطفون مع كل دعوة تدغدغ تذمرهم.

س: إذا كان من طبيعة البشر أنهم يفكرون بعواطفهم أكثر مما يفكرون بعقولهم كما نقول فكيف يمكن أن يظهر من بينهم القاضي العادل الذي يحكم بين الناس بعين العدل والحياد، أو الباحث العلمي الذي يدرس الظواهر الاجتماعية أو التاريخية أو السياسية بأسلوب موضوعي لا تحيز فيه؟

ج: إن تجرد الإنسان من العواطف تجرداً تاماً أمر مستحيل ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن الأفراد يختلفون في درجة تأثرهم بالعواطف، فمنهم الموضوعي الذي ينظر في الأمور نظرة واقعية إلى درجة كبيرة ومنهم الذاتي الذي تلعب به العواطف كما تشاء. وبين هذا وذاك درجات متفاوتة.

والمفروض في الشخص الذي تختاره الحكومة قاضياً أن يكون عادلاً ومحايداً بقدر الإمكان. وإذا تبين بعدئذ أنه ليس كذلك وجب عزله. والقاضي بالإضافة إلى ذلك تقف تجاهه وسيلتان لتنبيهه وتحذيره هما:

١ - إن الذي له قضية أمام أحد القضاة يستطيع أن يطلب تحويل قضيته إلى قاض آخر إذا ثبت لديه أن القاضي الأول منحاز في عاطفته نحو خصمه.

٢ - إن صاحب القضية إذا وجد في حكم القاضي حيفاً عليه فهو يستطيع أن يطلب عرض قضيته مرة ثانية أو ثالثة على قضاة أرفع رتبة من القاضي الأول.

معنى هذا أن الذين وضعوا النظام القضائي يدركون مقدماً أن القاضي ليس معصوماً وهو قد ينحرف مع عاطفته قليلاً أو كثيراً ولهذا وضعوا تجاهه ما يردعه عن ذلك بقدر الإمكان.

خلاصة ما أريد قوله هنا أن القاضي الذي هو عادل كل العدل لم يخلقه

الله بعد. فما دام القاضي بشراً فهو لا بدّ أن يندفع بعاطفته قليلاً أو كثيراً. وكلما كان اندفاعه مع العاطفة أقل كان أقرب إلى العدالة ومعنى هذا أن المسألة نسبية وليست مطلقة.

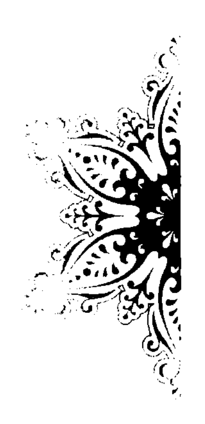
ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن النظام القضائي مهما كان سيئاً أو متحيزاً فإن وجوده أفضل للناس من عدم وجوده فلو ألغينا النظام القضائي بين الناس لعمت الفوضى فيهم وهلكوا. إن الناس عند غياب الرادع سوف يندفعون مع عواطفهم بلا حدود وعند هذا يأكل القوي منهم الضعيف.

وحين نأتي إلى الباحث العلمي نستطيع أن نقول عنه مثلما قلنا عن القاضي. فليس في هذه الدنيا باحث قادر على التجرد من عواطفه تجرداً تاماً. وكلما كان الباحث أقل اندفاعاً مع عواطفه كان أقرب إلى الموضوعية في بحثه.

يقول أحد علماء الاجتماع إن الحقيقة هي بالنسبة للإنسان كالهرم ذي الجوانب المتعددة. فالإنسان تحت تأثير عواطفه يصعب عليه أن ينظر إلى الحقيقة من جميع جوانبها بل هو يركز نظره على جانب واحد منها ويغض النظر عن الجوانب الأخرى. وهذا ما حدث فعلاً لدى المفكرين العقلانيين أصحاب المنطق الاستنتاجي الذي تحدثنا عنه في حلقة ماضية. فكل فريق منهم يلتقط الكليات العقلية التي تلائم مقصده ثم يستنتج منها الآراء التي يشتهيها. وكذلك يفعل خصمه. ولذا فإن المجادلات التي حدثت بينهم وما زالت تحدث لانهاية لها وكل فريق منهم يعتقد أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه عثرت في أحد رفوف مكتبتي مؤخراً على كتاب قديم كنت قد قرأته في عهد الشباب ونسيته، وأتيح لي الآن أن أقرأه مرة ثانية فوجدت فيه صورة واضحة للعقل البشري على نحو ما ذكرته آنفاً.

إنه كتاب يستعرض مؤلفه فيه المجادلات التي كانت تنشب في بغداد في القرن الرابع الهجري، وهي مجادلات طائفية وكل فريق فيها يأتي بالنصوص الدينية أو الكليات العقلية التي تلائم مقصده بينما هو يهمل الباقي منها.

وأعترف للقارئ أني عندما أقرأ الآن هذا الكتاب وأمثاله أضحك على نفسي وعلى غيري من البشر. فإني عندما كنت أقرؤه في عهد الشباب كنت أرى الحق واضحاً في جانب من تلك المجادلات كما أرى الباطل واضحاً في الجانب الآخر. والآن بعد أن درست النظريات العلمية الحديثة في العقل البشري أدركت أني كنت أعيش في الأوهام من حيث لا أدري ـ مع الأسف الشديد.

الأنوية والتفكير[1]

في الحلقات الثلاث الماضية تحدث الدكتور علي الوردي عن ثلاث من النواحي التي يكون العقل البشري فيها عاجزاً أو مشلولاً هي التراثية والجهل والعاطفة.

والآن يتحدث الوردي عن ناحية رابعة في هذا الموضوع وهي الأنوية.

إن الأنوية موضوع مهم من مواضيع النفس والمجتمع ومن المؤسف أن نرى الاهتمام به قليلاً في اللغة العربية.

والملاحظ أن أكثر القراء لا يعرفون عنه شيئاً. وقد طلب محرر هذه الصفحة من الدكتور الوردي أن يوضح لنا ما هي الأنوية؟ وما هو الفرق بينها وبين الأنانية، وما هي علاقة الأنوية بالتفكير والعقل البشري؟ وقد استجاب الوردي لهذا الطلب مشكوراً، وكتب لنا ما يلي:

يقول الوردي:

إن الأنوية هي كالأنانية نسبة إلى الأنا، ولكن بينهما فرقاً كبيراً في المعنى. فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو أنها التي تجعل الإنسان

(١) العدد (١١٧) ٣ نيسان ١٩٨٩.

يهتم بمصلحته الخاصة ولا يهتم بمصلحة الآخرين. أما الأنوية فلها معنى آخر، إذ هي تعني شعور الإنسان بذاته أي بالأنا ـ تجاه الآخرين، وهذا الشعور يجعل الإنسان في دأب متواصل نحو رفع مكانته في نظر الآخرين.

يمكن القول بوجه عام إن الإنسان أنوياً وليس إنانياً. ونحن لا ننكر وجود أفراد غير أسوياء تسيطر عليهم الأنانية، يهتمون بمصلحتهم فقط ولكن هؤلاء قليلون بالنسبة إلى غيرهم من الناس. فالإنسان السوي يميل عادة إلى خدمة الناس، وإلى التضحية بمصلحته الخاصة من أجلهم أحياناً بغية كسب تقديرهم ونيل المكانة العالية بينهم.

وبعبارة أخرى: إن الإنسان السوي يجد من مصلحته في أكثر الأحيان أن يخدم مصلحة الآخرين. فهو فرد في مجتمع وهو يسعى نحو رفع مكانته في نظر الآخرين من أفراد المجتمع، وهو يشعر بالارتياح والغبطة في ذلك، وكلما ازداد ارتفاع مكانته ازدادت بذلك غبطته.

إن النظرية الحديثة في طبيعة الإنسان هي: أن الأنا محور الشخصية البشرية. فالإنسان يركز معظم تفكيره حول الأنا وكيف يرفع من شأنها في نظر الآخرين وقد يصح القول إن معظم نشاط الإنسان في حياته يدور حول هذه النقطة، فالإنسان يناضل دائماً من أجل أن يكون موضع فخار لا موضع عار عند الناس.

يقول المثل البدوي: (النار ولا العار). ومعناه أن الفرد البدوي يفضل دخول النار في الآخرة على نيل العار في الدنيا. فالعار لا يمكن أن يحتمله الفرد البدوي في حياته على أي حال. والواقع أن هذا لا ينحصر في البدو فقط بل هو يشمل الناس جميعاً على درجات متفاوتة.

إن الأنوية تظهر في الإنسان منذ طفولته الباكرة. ومن علامات ظهورها في الطفل أنه ينشرح ويبدو عليه الزهو حين نمدحه، كما يبدو عليه الامتعاض

حين نذمه. ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه إذا قام به ونشجعه عليه.

والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال، فنحن لا نكاد نمدح طفلاً آخر بحضوره، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك له، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه.

وقد يبكي ويصرخ دون أن نعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك. إن تجاهلنا للأنوية في الطفل كثيراً ما يؤدي إلى تكوين العقدة النفسية؟

وهنا يجب أن لا ننسى أن الإنسان البالغ لا يختلف عن الطفل في ذلك. فالإنسان ـ كما قال أحد علماء النفس ـ طفل كبير. ولكن الإنسان البالغ اعتاد أن يكتم عواطفه التي يشعر بها في أعماق نفسه ويتظاهر بخلافها إنما هو في الواقع لا يختلف عن الطفل من حيث اغتباطه بالمدح والتقدير وانزعاجه من الاحتقار والذم.

إن الطفل ساذج لم يتعود بعد على الرياء والمدعيات المصطنعة، وهو لذلك يكشف عن نفسه بلا غطاء، أما الإنسان البالغ فهو لا يستطيع أن يعيش مع الناس إلا إذا تعلم كيف يداريهم ويتملق لهم وينافق.

أذكر فيما يلي بعض الظواهر الاجتماعية التي تدخل فيها الأنوية وتؤثر فيها:

١ ـ إنك إذا أقمت وليمة في مناسبة من المناسبات يجب أن تعلم أنك إذا دعوت إلى الوليمة عشرة أشخاص فسوف يغضب عليك مائة. فكل واحد من هؤلاء الغاضبين سوف يقدح فيك ويبغضك لأنك دعوت غيره ولم تدعه هو، وهو يعتقد أنه أفضل من الذين دعوتهم.

٢ ـ إنك إذا ساعدك الله ورفع مكانتك بين الناس فيجب أن تتوقع كثرة الخصوم لك من غير سبب ظاهر. وهذا أمر عرفه الناس منذ قديم

الزمان، وهو الذي أطلقوا عليه اسم (الحسد) أو (الغيرة). إن الحسد موجود في جميع الناس وهو يكاد لا يخلو أحد منه، غير أنه يختلف شدة وضعفاً في الأفراد تبعاً لظروفهم وتكوين شخصياتهم.

٣ ـ إنك إذا أردت مدح أحد من الناس، أو تقديم هدية له، فمن الأفضل أن تفعل ذلك على انفراد حيث لا يراك آخرون. فإن الناس حين يرون أحداً منهم قد انفرد بمدح أو هدية قد يخالج البعض منهم شعور بالنقمة. إذ هم يقولون في أنفسهم: (لماذا) اختص هذا الشخص بالمدح أو الهدية دوننا؟ وبأي شيء هو أفضل منا؟!!!).

٤ ـ إنك إذا أردت أن تكسب ودّ أحد الناس، فحاول أن تدغدغ الأنوية فيه، كأن تمدحه أو تحترمه أو تذكر حادثة حسنة قام بها في الماضي أو ما أشبه. وعلى العكس من ذلك إذا أردت أن تنال سخطه أو نقمته فليس عليك سوى ذمه أو الانتقاص من شأنه على وجه من الوجوه.

٥ ـ إذا تجادل اثنان في موضوع من المواضيع فإن الجدل بينهما لا ينتهي إلى وفاق في أكثر الأحيان. فكل منهما يريد أن يكون هو الغالب في الجدل، وهو يشعر بأن مغلوبيته في الجدل تؤدي إلى هبوط مكانته في نظر الحاضرين، وهو لذلك يظل يجادل ويجادل بمقدار جهده.

وإذا رأى أن خصمه على وشك أن يغلبه أسرع هو إلى تحويله لموضوع شخصي وأخذ يكيل التهم لخصمه أو يذكره بماضيه. بغية التخلص من مغبة المغلوبية على أي حال.

الخلاصة:

خلاصة القول إن الأنوية لها أثرها الكبير في تفكير الإنسان وفي سلوكه. فإذا توجهت أنوية الإنسان نحو أمر من الأمور أصبح عقله الواعي شبه مشلول

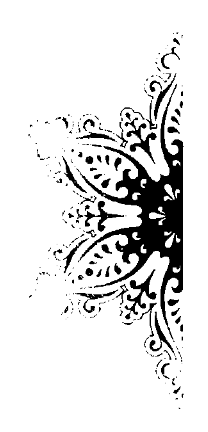
تجاه ذلك الأمر، إذ هو لا يفهمه كما هو في الواقع، بل يفهمه بمقدار ما ينسجم مع أنويته.

لعل من المناسب هنا أن أنقل ما قاله ديل كارينجي عن الأنوية من حيث تأثيرها في الجدل الذي يقع بين اثنين، فهو يقول:

(إن حب الظهور في معظم الأحيان هو الدافع الأول في المجادلة. فأنت تودّ أن تعرض سعة اطلاعك وحسن تنقيبك في الموضوع المطروح للجدل. ويمثل هذا بحسّ الرجل الآخر الذي تجادله فإذا قهرته بمنطقك السليم وفزت عليه فإنه لن يعتبر ذلك إلا إهانة منك وجرحاً لكرامته، وهو قلما يغفر لك ذلك. وبهذا تكون قد اشتريت خصومته دون نفع يصيبك من الشراء).

ينبغي أن نضيف شيئاً إلى ما قاله كارينجي لكي تتم الصورة لدينا. فالأنوية لا يقتصر تأثيرها على الجدل فقط، بل هي تشمل بتأثيرها أيضاً مختلف نشاطات الإنسان في حياته الاجتماعية. وصار من الواجب على من يريد التعامل مع الناس وينجح في تعامله، أن لا ينسى ذلك. إن هذا على كل حال موضوع طويل، وربما عدنا إليه في مناسبة قادمة ـ إن شاء الله!.





المصلحة والتفكير![1]

في الحلقات الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي عن أربع من النواحي التي يكون فيها العقل البشري عاجزاً أو مشلولاً وهي التراثية والجهل والعاطفة والأنوية. وفي هذه الحلقة يتحدث الدكتور الوردي عن ناحية خامسة هي المصلحة الخاصة.

يقول الوردي:

إن الإنسان حين تكون له مصلحة في شيء معين فإنه يركز تفكيره كله على ابتكار الوسائل التي تمكنه من الحصول على ذلك الشيء. والواقع أن هذا أمر بديهي أدركه الناس منذ قديم الزمان، ووردت فيه أمثال كثيرة لدى مختلف الشعوب وقد يكفي أن نذكر هنا بضعة أمثال من تراثنا العربي القديم وهي:

١ ـ كلّ يجر النار لقرصه.

٢ ـ صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاها.

٣ ـ أجع كلبك يتبعك.

٤ ـ كلكم طالب صيد.

---

(١) العدد (١١٨) ١٠ نيسان ١٩٨٩.

٥ ـ من جعل نفسه عظماً أكلته الكلاب.

وفي الوقت الذي نرى فيه الناس قد أدركوا هذا الأمر ببديهيتهم، نرى المفكرين الطوبائيين غافلين عنه أو هم لا يعرفون به. فهم إذا وضعوا خطة لإصلاح البشر غضوا النظر عن تأثير المصلحة الخاصة في عقل الإنسان وأخذوا يعطونه بأن يكون ملاكاً يطلب المصلحة العامة بدلاً من مصلحته الخاصة.

إن الإنسان مهما وعظته بأن ينسى مصلحته الخاصة وأن يسعى وراء المصلحة العامة، فإن موعظتك لا تؤثر فيه. إن المواعظ إذا كانت غير منسجمة مع طبيعة الإنسان فإنها قد تؤدي إلى نشوء ازدواج الشخصية فيه. وهو عندئذ سوف يبقى راكضاً وراء مصلحته الخاصة في سلوكه الفعلي بينما هو في أقواله يتحذلق بالأفكار العالية التي سمعها من الواعظين.

المصلحة وكفاءة الإنتاج:

من الظواهر الاقتصادية التي لفتت الأنظار في القرن العشرين هي الفرق الكبير في كفاءة الإنتاج بين المصنع الرأسمالي والمصنع الشيوعي. فالمصنع الرأسمالي بوجه عام هو أكثر كفاءة في الإنتاج من المصنع الشيوعي. والسبب في ذلك يعود في الدرجة الأولى إلى أن صاحب المصنع الرأسمالي أو مديره له مصلحة في نجاح مصنعه ونراه يسهر الليالي ويبذل أقصى جهده في سبيل إنجاح مصنعه. إنه يعلم أن ربح المصنع هو ربح له. أما مدير المصنع الشيوعي فهو موظف. وهناك فرق كبير بين صاحب المصنع والموظف فيه كما لا يخفى.

وحين نأتي إلى العامل في المصنع الرأسمالي نجده كذلك أكثر اهتماماً في عمله من العامل في المصنع الشيوعي. فهو كلما أبدى حذقاً ودأباً في عمله ازدادت مكافأته من صاحب المصنع. وهو في الوقت نفسه معرض للطرد الفوري إذا تكاسل أو أخطأ في عمله.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الحوانيت أو مخازن البيع في البلاد

الرأسمالية. فكل عامل في الحانوت الكبير هناك هو مراقب من قبل صاحب الحانوت، وهو ينال المكافأة على اهتمامه في عمله، أو ينال الطرد إذا أهمل أما في الحوانيت الشيوعية فالعامل قد يقبل الرشوة من الزبائن طمعاً في زيادة دخله. فهو لا يجد مراقبة شديدة من مدير الحانوت أو هو قد يشارك المدير في رشواته.

إن المفكرين الشيوعيين لم يكونوا في بداية أمرهم قد فطنوا إلى هذه الحقيقة. وكان معظم اهتمامهم منصباً على الصراع الطبقي وكان رأيهم أن الإنسان صالح بطبيعته وأن الاستغلال الطبقي والظروف السيئة هي التي أفسدته، فإذا زال الاستغلال الطبقي وصلحت الظروف صلحت طبيعة الإنسان تبعاً لذلك.

تبين الآن خطأ هذا الرأي فالإنسان مهما أصلحنا ظروفه ورفعنا عنه الاستغلال الطبقي فإنه يظل بشراً كما كان يركض وراء مصلحته الخاصة بينما هو يتظاهر أنه يسعى وراء المصلحة العامة. إن الإنسان كثيراً ما يخدع نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين.

المصلحة والأنوية:

يجب أن لا ننسى أن المصلحة الخاصة التي يسعى نحوها الإنسان في حياته لاقتصر على المصلحة المادية وحدها بل هي تشمل المصلحة المعنوية كذلك. وكثيراً ما تكون المصلحة المعنوية أكبر تأثيراً في الإنسان من المصلحة المادية.

إن الحيوان تنحصر حاجاته في الناحية المادية فقط. فهو إذا شبع من الطعام مثلاً اضطجع مطمئناً ولا يبالي بأي شيء آخر. أما الإنسان فهو يختلف كل الاختلاف عن الحيوان في ذلك. إنه يملك الأنوية التي لا يمتلكها الحيوان.

فهو إذا أشبع حاجاته المادية ظل راكضاً لاهثاً يطلب رفعة (الأنا) التي لا يمكن إشباعها.

يقول النبي محمد ﷺ: (إذا كان لابن آدم وادٍ من ذهب ووادٍ من فضة، فهو يبتغي الثالث. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب). والواقع أن هذا الحديث يصور لنا طبيعة الإنسان تصويراً رائعاً. فالإنسان حين يتكالب على اكتناز الأموال لا يقصد بذلك إشباع حاجاته المادية، بل هو يقصد به التباهي على الأقران. إنه عندما يشيد قصراً باذخاً. أو يقتني سيارة فارهة يريد بهما رفعة (الأنا) على وجه من الوجوه. وهو لا يقف عند حدٍّ في ذلك وكلما نال مكانة رفيعة طمح إلى مكانة أرفع منها. وهو يظل كذلك طيلة حياته حتى يدركه الموت فيريح ويستريح ـ على نحو ما ذكرناه في حلقة سابقة؟.

أمثال شعبية:

أورد الشيخ جلال الحنفي في أحد كتبه بضعة أمثال شعبية عربية فيها ذكر للكلب ولها صلة بموضوعنا الحالي. وهذه الأمثال تختلف في ألفاظها من بلد لآخر. غير أنها متشابهة في معناها وهي كما يلي:

١ ـ في مصر: (إذا كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي).

٢ ـ في بغداد: (إذا حاجتك يم الجلب سميه حاج كليب).

٣ ـ في بغداد أيضاً: (إذا حاجتك يم الكلب سميه عوعو آغا).

٤ ـ في البصرة: (إذا حاجتك يم الكلب سميه عمي كليبان).

في لبنان: (اللي يعوز الكلب يسميه الحاج كلبون).

إن هذه الأمثال تصور لنا كيف أن الإنسان إذا أراد شيئاً استخدم أساليب المديح والتزلف تجاه مالك الشيء لكي يحصل عليه منه. ومعنى هذا أن المنفعة تكون متبادلة بين طالب الشيء ومالكه. فالمالك يقدم الشيء إلى طالبه

ويأخذ عنه مكافأة معنوية في صورة المديح الذي ترتفع به مكانة (الأنا) في نظر الآخرين.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الكلب ليس لديه أنوية تجعله يبتهج بالمديح والتزلف، ولكن الذين وضعوا تلك الأمثال كانوا يقصدون بها الإنسان، إذ هم عكسوا طبيعتهم على الكلب كما لا يخفى.

س: إنك ذكرت حتى الآن خمسة عوامل تؤثر في العقل البشري وتجعله عاجزاً أو مشلولاً هي التراثية والجهل والعاطفة والأنوية والمصلحة. والسؤال الذي نريد توجيهه إليك في الختام هو: هل أن هذه العوامل على درجة واحدة من حيث تأثيرها في العقل البشري أم هي مختلفة في التأثير؟

ج: إن المجتمعات تختلف في درجة تأثرها بهذه العوامل وكذلك الأفراد في كل مجتمع.

لنأخذ من أجل التوضيح ثلاثة مجتمعات نموذجية هي المجتمع البدائي والمجتمع البدوي والمجتمع الحضري. فكل واحد من هذه المجتمعات الثلاثة يختلف عن الآخر من حيث تركيز اهتمامه على عامل معين من تلك العوامل الخمسة دون غيره.

إن المجتمع البدائي المنعزل تكون التراثية قوية التأثير في أفراده إلى الدرجة القصوى وكلما كان هذا المجتمع أكثر انعزالاً، أي أقل اتصالاً بالمجتمعات الأخرى كانت التراثية أقوى تأثيراً فيه وهو لا يكاد يتصل بالمجتمعات الأخرى حتى يبدأ تأثير التراثية بالتضاؤل فيه ولكن هذا التأثير يتفاوت في الأفراد تبعاً لمستوى ذكاء كل واحد منهم ومبلغ انفتاحه الاجتماعي واطلاعه الفكري.

وحين نأتي إلى المجتمع البدوي نجد التراثية فيه ليست بتلك القوة التي وجدناها في المجتمع البدائي. وهذا أمر لاحظناه بشكل خاص في المعتقدات

الدينية لدى البدو. ولكن المجتمع البدوي من الجهة الأخرى يولي اهتماماً كبيراً جداً للأنوية. فالفرد البدوي يركز معظم اهتمامه في حياته على كسب الذكر الحسن والمكانة الاجتماعية العالية. فهو مستعد أن يرمي بنفسه إلى الموت عند النخوة، وهو يفضل الموت المصحوب بالفخر على الحياة المصحوبة بالعار. وترى الفرد البدوي يقاتلك من أجل درهم واحد تأخذه منه غصباً بينما هو يذبح لك بعيراً أو عدة أباعر إذا جئت إليه ضيفاً.

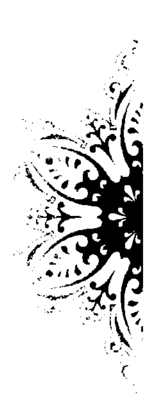
وفي الوقت نفسه نجد الأفراد في المجتمع البدوي ليسوا على درجة واحدة في هذا الانهماك الأنوي. وقد تجد بينهم الجبان أو البخيل، وذلك تبعاً لتكوين الشخصية في كل واحد منهم ولكن هؤلاء قليلون بالنسبة إلى الآخرين في المجتمع.

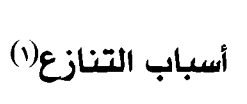
أما المجتمع الحضري فإنه يتميز عن المجتمع البدوي أو البدائي بكثرة تنوع الأفراد فيه. حيث نجد فيه الأنوي جداً. والتراثوي جداً، وكذلك نجد فيه اللاهث المتكالب على جمع المال، والعاطفي الهائم ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن المجتمع الحضري تسيطر فيه المصلحة المادية أكثر مما تسيطر في المجتمع البدوي والبدائي.

ففي المجتمع الحضري، ولا سيما المتقدم في حضارته، تكثر الحاجات المادية وتتنوع، وتنتشر وسائل الترف، وكثيراً ما تقاس قيمة الفرد فيه بمقدار ما لديه من الملايين أو ما لديه من قناطير الذهب والفضة حسب التعبير القديم.

إن هذا على كل حال موضوع طويل معقد لا يتسع المجال هنا للإسهاب فيه. وربما عدنا إليه في فرصة أخرى ـ إن شاء الله!







أسباب التنازع[1]

في حلقة سابقة من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي حول التنازع وقال: إنه محتوم لا يمكن أن يتخلص البشر منه لأنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية التي خلقها الله فيهم. وكان هذا الموضوع مثار نقاش ونقد لدى بعض القراء، وقد كتب الأستاذ حلمي علي شريف تعقيباً عليه نشرناه في هذه الصفحة في ٢٧/ ٣/ ١٩٨٩. وقد اتصل محرر هذه الصفحة بالدكتور الوردي يسأله عن رأيه في ذلك. فكتب لنا الوردي مشكوراً ما يلي:

يقول الوردي:

إني أشكر الأستاذ حلمي علي شريف على تعقيبه كما أشكر الذين اتصلوا بي هاتفياً أو كتابياً في هذا الشأن. والواقع أن (الانتقادات) التي جاؤوا بها لا تخلو من قيمة علمية. ولكني قد اختلف معهم فيها من بعض الوجوه.

ويجب أن لا ننسى أن موضوع التنازع مهم جداً بوجه عام. وهو كذلك مهم جداً لنا نحن العراقيين بوجه خاص. فنحن ندخل الآن في هذه المرحلة الديمقراطية المنفتحة. ويجب علينا أن نفهم طبيعة التنازع البشري لكي نفهم بها طبيعة الديمقراطية.

---

(١) العدد (١٢١) ١ مارس ١٩٨٩.

إن الديمقراطية ليست سوى وسيلة عملية ابتكرها البشر في العصر الحديث لكي يحلوا بها مشكلة التنازع السياسي الذي شغلوا به طيلة العصور القديمة. فلقد كان التنازع السياسي قديماً يؤدي إلى المعارك الطاحنة وسفك الدماء ثم جاءت الديمقراطية أخيراً لتقول للناس: (تنازعوا فيما بينكم كما تشاؤون، ولكنكم بدلاً من أن تستخدموا السيوف أو البنادق في تنازعكم استخدموا أوراق التصويت). وقد عبّر عن هذه الحقيقة أحد المفكرين الاجتماعيين عندما قال: إن الديمقراطية الحديثة هي عبارة عن استخدام أوراق التصويت بدلاً من طلقات الرصاص. أو هي كما عبّر باللغة الإنكيزية (Ballots instead of bullits).

معنى هذا أن البشر ظلوا يتنازعون كما كانوا يفعلون قديماً، ولكنهم استخدموا أوراق التصويت في تنازعهم بدلاً من استخدام السيوف أو البنادق فالفريق الذي يحصل على عدد أكبر من تلك الأوراق يتغلب على خصمه في المعركة. ولا حاجة إذن إلى التقاتل وسفك الدماء.

أسباب التنازع:

قد يواجهنا سؤال هو ما هو السبب أو الأسباب التي تجعل البشر يتنازعون؟ وهل في مقدور البشر أن يزيلوا هذه الأسباب لكي يعيشوا في صفاء وإخاء فلا تنازع بينهم ولا هم يحزنون؟

إني قد أجبت على هذا السؤال بشكل غير مباشر في حلقات سابقة من هذه الصفحة. ولعل من المناسب الآن أن أتحدث فيه بشكل مباشر.

تحدثت سابقاً عن العوامل اللاشعورية التي تؤثر في تفكير الإنسان وسلوكه من حيث لا يدري. وهذه العوامل هي التراثية والجهل والعاطفة والمصلحة والأنوية. وقلت إن العقل البشري ليس حرّاً مطلقاً كما كان يتصوره

المفكرون القدامى. وهو كثيراً ما يكون مشلولاً أو عاجزاً تجاه العوامل اللاشعورية التي أسلفنا ذكرها.

إن الفرد الذي ينشأ في بيئة اجتماعة معينة ويتربى فيها على مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد والمألوفات. وهي التي سميناها (التراثية). يكون تفكيره مصبوباً في قوالب تلك التراثية وهو لو كان قد نشأ في تراثية أخرى لكان تفكيره من نمط آخر.

ومثل هذا نقول عن الجهل فكل فرد من البشر هو عالم وجاهل في الوقت نفسه. ولم يظهر في البشر فرد عالم بجميع أسرار الكون. وإن عظم العلماء في عصرنا قد يبدو جاهلاً في عصر قادم. والإنسان حين يفكر في الأمور لا بدّ أن يكون تفكيره محدوداً في نطاق معرفته عنها فهو قد يعتبر أمراً ما غير معقول حسب المألوفات الذهنية التي اعتاد عليها أو المعلومات التي يعرفها ثم يتبين له بعدئذ أنه كان مخطئاً.

وحين ندرس العاطفة والمصلحة والأنوية من حيث تأثيرها على العقل نجد أن كل واحدة منها لا تقل في تأثيرها فيه عن التراثية أو الجهل.

نستخلص من هذا كله أن البشر لا يمكن أن يتفقوا على رأي واحد أو عقيدة واحدة. حتى لو جئنا لهم بأقوى البراهين العقلية وأوضحها فالبرهان القوي الواضح في نظرك قد يكون سخيفاً أو تافهاً في نظر غيرك. ومشكلة الإنسان أنه حين يعتنق رأياً أو عقيدة يتصور أن الحق كل الحق معه. وأن الباطل كل الباطل مع خصمه. وقد يدفعه هذا إلى بغض خصمه أو الحقد عليه. وهنا يكمن السبب الأكبر في التنازع البشري ـ كما لا يخفى.

آيات قرآنية:

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى أن التنازع ظاهرة بشرية عامة. نذكر بعضها فيما يلي:

١ ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

٢ ـ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

٣ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٤ ـ ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٥ ـ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

٦ ـ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾.

لعلني لا أغالي إذا قلت إن القرآن قد سبق علم الاجتماع الحديث بهذه النظرة الواقعية لطبيعة الإنسان!

وجهة نظر الطوبائيين

من الجدير بالذكر أن المفكرين الطوبائيين لا يقبلون بهذه النظرة الواقعية لطبيعة الإنسان. فهم عندما يفكرون في أمور البشر يحلقون عالياً وينسون هؤلاء البشر الذين يعيشون بينهم وقد ذكرنا بعض النماذج منهم في حلقات سابقة. ومن المؤسف أن البعض في عصرنا ما زالوا يسيرون في تفكيرهم على الطريقة الطوبائية التي سار عليها أفلاطون أو الفارابي قبلهم.

يعتقد بعض الطوبائيين في عصرنا أن الإنسان ميال بطبيعته نحو التعاون والتآخي. ولكن الظلم والاستغلال الطبقي هو الذي أدى إلى إثارة التنازع والتعادي بين البشر. وفي رأي هؤلاء المفكرين أن البشر سوف يعودون إلى طبيعتهم الأصلية في التعاون والتآخي عندما يلغى نظام الظلم والاستغلال الطبقي السائد فيهم. وهذا هو ما سوف يحصل في زعمهم عند قيام النظام الأمثل للمجتمع البشري في المستقبل القريب أو البعيد.

إن الذي أريد أن أقوله لهؤلاء الطوبائيين هو أنهم واهمون مع الأسف الشديد. فالإنسان بطبيعته ظالم مستغل عندما لا يجد رادعاً يردعه عن الظلم أو الاستغلال.

ولكن مشكلته أنه لا يدري أنه ظالم أو مستغل.

إن ما جبل عليه الإنسان من تقوقع أنوي وتحيز عقلي يجعله يركز نظره على الجوانب الحسنة من نفسه بينما هو يغض النظر عن الجوانب السيئة منها. وهو لذلك كثيراً ما يرى الباطل حقاً والظلم عدلاً.

إن الإنسان كثيراً ما يندفع في حياته حسبما تملي عليه دوافعه اللاشعورية على نحو ما ذكرناه سابقاً. ولكنه يتصور نفسه أنه سائر في سبيل الحق والحقيقة. أو سبيل الله. أو المصلحة العامة. أو ما أشبه. وهو لا يرضى أن ينبهه أحد إلى خطأ ما يفعل. أو يلومه عليه. وهو قد يعزو هذا التنبيه أو اللوم إلى غرض سيئ في صاحبه. وقد يدفعه ذلك إلى الحقد عليه أو الانتقام منه.

إن جميع الطغاة الذين امتلأت صفحات التاريخ بأعمالهم الظالمة كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر الناس عدلاً وتقوى وقد شهدنا الولاة في العهد العثماني وكيف كانوا يعبدون الله وينهبون عباد الله فهم كانوا في الغالب من أكثر حكام العالم ارتشاء وجوراً. ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يشيدون المساجد الفخمة وهم معتقدون أن الله سيبني لهم من القصور في جنة الفردوس أضعاف ما بنوا هم من المساجد في هذه الدنيا.

إن الديمقراطية الحديثة إنما أقيمت للقضاء على أمثال هؤلاء الحكام الذين يعبدون الله وينهبون عباد الله!

في رأي الطوبائيين الحديثين أن الحكومة سوف تختفي من بين البشر عندما يقام فيهم النظام الأمثل الذي يشبع جميع حاجاتهم المادية. وهم يقصدون من ذلك أن البشر عند قيام النظام الأمثل فيهم سوف لا يحتاجون إلى

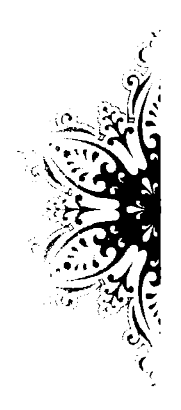
حكومة تردع الظالم والمعتدي منهم. وذلك لعدم وجود الظالم والمعتدي فيهم.

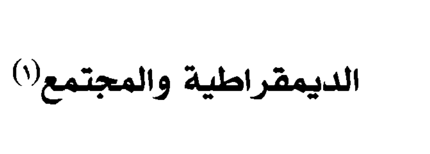
إن هؤلاء الطوبائيين يتصورون أن الإنسان ليس لديه في هذه الدنيا سوى حاجاته المادية. فإذا وفرناها له فإنه سيعيش هادئاً سعيداً لا يكدره شيء في هذه الدنيا. إنهم ينسون أن الحاجات المعنوية هي للإنسان أكثر أهمية من الحاجات المادية. فالإنسان. لا يكاد يشبع حاجاته المادية حتى يبدأ بالتطلع نحو رفع مكانته في نظر الآخرين وهو يمتعض ويتألم حين يرى غيره قد سبقه إلى مكانة كان هو يطمح إليها.

أضف إلى ذلك أن الحاجات المادية للإنسان غير محدودة. وهي نفسها خاضعة للحاجات المعنوية. فالإنسان إذا رأى غيره قد أخذ نصيباً من الحاجات المادية أكثر منه فإنه يرفع صوته محتجاً على هذا (الظلم الفظيع). إنه قد يكون غير محتاج إلى الشيء الذي أخذه غيره ولكن الذي يدفعه إلى الاحتجاج هو شعوره بأن الغير قد تفوق عليه في أمر كان هو الأولى به. وأنه لو كان هو الذي أخذ أكثر من غيره لاعتبر ذلك عدلاً وإنصافاً.

يجب أن لا ننسى أن هذه ليست صفة طارئة في البشر بل هي طبيعة أصيلة فيهم. ونحن نستطيع ملاحظتها في الأطفال كما نستطيع أن نلاحظها في البدائيين الذين لم يظهر فيهم نظام الاستغلال الطبقي.







الديمقراطية والمجتمع(١)

انتهزت هذه الصفحة فرصة العهد الديمقراطي الجديد الذي نباشره الآن فاتصل محرر بالدكتور علي الوردي ليتحدث إليه في موضوع الديمقراطية وعلاقتها بالمجتمع. وفيما يلي ننشر فحوى الحديث:

إنك قلت في مناسبة سابقة أن الديمقراطية عادات وليست محفوظات فما معنى ذلك؟ أرجو توضيحاً بقدر الإمكان، ولك الشكر.

ج: خلاصة رأيي في هذا الموضوع هي أن الديمقراطية ليست محفوظات يتواعظ الناس بها بل هي عادات اعتاد الناس عليها في سلوكهم الواقعي. وهذا الرأي كنت قد أعلنته على صفحات بعض الصحف في عام ١٩٥٢ عندما جرى جدال حول الديمقراطية بيني وبين أحد أعوان العهد الملكي. ولعل من المجدي أن أعيد الآن بعض ما ذكرته آنذاك. إننا حين نريد أن نعرف مستوى أي مجتمع من حيث أهليته للممارسة الديمقراطية علينا أن ندرس العلاقات التي اعتاد عليها الفرد في البيت والسوق والمقهى والمجلس والملهى والمنتزه وغيرها.

إن الحياة السياسية ليست سوى جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية العامة

---

(١) العدد (١٢٢) ١٥ مارس ١٩٨٩.

وفي هذا يظهر مصداق الحديث النبوي القائل: «كيفما تكونوا يولى عليكم».

إن أهم مظهر للديمقراطية في المجتمع هو اعتياده على حرية الرأي. وكلما كان الفرد فيه أكثر تسامحاً مع من يخالفه في الرأي، وأقل ميلاً إلى المشاجرة معه أو الحقد عليه. كان أقدر على ممارسة الديمقراطية في حياته السياسية.

إن الفرد في البلاد الديمقراطية المتقدمة ينشأ على عادات الديمقراطية منذ طفولته. فهو إذا تناقش مع أحد في رأي لا يحب أن يتغالب معه أو يظهر تفوقه الثقافي عليه. وهو كذلك لا يسرع إلى إهانة الشخص الذي يخالفه في الرأي أو الغضب عليه.

ولست أقصد من هذا أن جميع الأفراد في البلاد الديمقراطية هم من هذا الطراز. فقد عشت زماناً غير قليل في تلك البلاد وخالطت الناس فيها، فوجدت فيهم أفراداً غير قليلين اعتادوا على عادات غير ديمقراطية. ولكن الأكثرية فيهم على خلاف ذلك.

يمكن القول بوجه عام إن الناس في البلاد المتقدمة لا يختلفون عن غيرهم في البلاد الأخرى من حيث طبيعتهم البشرية إنما يختلفون من حيث القيم الاجتماعية والعادات التي نشؤوا عليها منذ طفولتهم.

س: إنك في أحاديثك ومقالاتك السابقة ذكرت أنك مولع بالتجول في الأسواق وارتياد المقاهي، وكذلك ذكرت أنك ترتاد المجالس الخاصة، وقلت إنك تستفيد من ذلك فوائد علمية غير قليلة في فهم المجتمع. والرجاء منك الآن أن توضح لنا ذلك لفائدة القراء.

ج: كنت في أيام شبابي وكهولتي مولعاً بالتجوال في الأسواق وبارتياد المقاهي الشعبية. وقد كنت أشعر أن دراسة أي مجتمع لا يكفي فيها أن تستمع إلى الخطب التي تلقى فيه أو تقرأ المقالات التي تنشر فيه، بل يجب أن تذهب

إلى الناس في شؤونهم اليومية لكي تفهمهم كما هم في الواقع وليس كما يتحذلقون به في خطبهم ومقالاتهم.

والآن بعد أن أدركتني الشيخوخة تركت ارتياد المقاهي وصرت أرتاد المجالس الخاصة. وهي مجالس ذات قيمة علمية لا يستهان بها.

هناك فائدتان رئيسيتان أجنيها من المجالس الخاصة، أولاهما في الحصول على المعلومات التي لا يمكن الحصول عليها من مصدر آخر. فكل من يحضر المجالس لا بدّ أن تكون له وجهة نظر معينة في الأمور كما تكون له ذكريات وتجارب واطلاعات خاصة لا نعرفها. وحين أستمع إلى أحاديث المجالس ألتقط منها فوائد غير قليلة. وقد اعتدت بعد خروجي من كل مجلس أن أسجل في مذكراتي ما سمعته من المعلومات التي قيلت فيه. وقد تجمع عندي من هذه المعلومات الشيء الكثير.

أما الفائدة الثانية التي أجنيها من المجالس فهي في تفهم المستوى الثقافي والحضاري للمجتمع ومبلغ أهليته للديمقراطية. فالحاضرون في المجلس يمثلون المجتمع وعاداته إلى درجة لا يُستهان بها. وهم على درجات متفاوتة من حيث مستواهم الثقافي والحضاري، وهم يمثلون فئات المجتمع أو طبقاته الفكرية.

وضع أحد الباحثين ثلاثة قواعد يقصد بها تقييم أي مجلس من حيث تمثيله للعادات الديمقراطية في المجتمع. وهي على النحو التالي:

١ - إذا تكلم أحد الحاضرين في المجلس ساد السكوت على الآخرين فلا يتكلم أحد منهم إلا بعد انتهاء المتكلم من كلامه.

٢ - إذا وجد أحد الحاضرين خطأ في كلام غيره فإنه لا يسرع إلى إعلان الخطأ أو تصحيحه أمام الحاضرين بل يؤجل ذلك إلى ما بعد انتهاء المجلس في حديث خاص بينه وبين المخطئ.

٣ ـ إذا حدث جدال بين اثنين من الحاضرين فإن الجدال يظل موضوعياً فلا تدخل فيه القضايا الشخصية ولا يقول أحدهما للآخر (أنت كذا).

من الجدير بالذكر أن هذه القواعد لا يمكن تطبيقها تطبيقاً تاماً في أي مجلس مهما كان مستواه الثقافي والحضاري. إن الكمال في كل الأمور لا يمكن أن يصل إليه أي مجلس أو أي إنسان مهما كان. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن المجلس كلما كان أكثر التزاماً بهذه القواعد كان مستواه الثقافي والحضاري أرفع والكمال لله وحده على كل حال!.

إني حضرت بعض المجالس في البلاد المتقدمة وقارنتها بمجالسنا فوجدت الناس هنا كالناس هناك. كلهم بشر ولكن الفرق بينهم في الدرجة لا في النوع.

أذكر فيما يلي بعض النماذج الشخصية التي اعتادت على العادات غير الديمقراطية في المجالس هنا وهناك:

١ ـ لاحظت في أحد الحاضرين أنه يتكلم في كل موضوع مهما كان. فهو موسوعي على طريقة الفارابي أو أفلاطون ولكنه يعيش في العصر الحديث الذي لا يلائم منهج الموسوعية. إنه لا يكاد يجد أحداً يتكلم في أي موضوع حتى يبدأ عقله بالبحث عن نقطة يأخذ بها زمام الحديث. وهو لو أتيح له لاحتكر المجلس له وحده غير أنه يجد في المجلس من ينافسه في ذلك فلا يترك له حرية الكلام كما يشتهي.

٢ ـ لاحظت في شخص آخر أنه لا يكاد يسمع متكلماً ينطق بكلمة هي مغلوطة في نظره حتى يجابهه بقوله إنها مغلوطة ويحاول ذكر وجه الصواب فيها حسب رأيه. والملاحظ أن هذا الشخص قد يكون أكثر خطأ من غيره ولكنه يغضب إذا جابهه أحد بخطئه.

وهو قد يعمد في بعض الأحيان إلى توجيه سؤال وهو يعرف جوابه،

ولكنه يقصد منه أن يجيبه أحد الحاضرين بجواب غير صحيح فيسرع هو إلى ذكر الجواب الصحيح بغية إظهار تفوقه وسعة معرفته.

٣ ـ لاحظت في شخص ثالث أنه كثير المقاطعة للمتكلمين في المجلس. وهو لايستطيع أن يصبر إلى ما بعد انتهاء المتكلم من كلامه. وإذا قيل له (انتظر قليلاً إلى ما بعد انتهاء المتكلم من كلامه) فإنه يرفض الانصياع لهذه النصيحة ويظل يواصل كلامه، وإذا لم يجد أحداً يستمع إليه التفت إلى الجالس بجواره ليتحدث إليه، وبذلك يصبح هذا الجالس في موقف حرج لا يدري هل يستمع إلى جاره أو إلى المتكلم الأول؟

٤ ـ لاحظت في شخص رابع أنه حين يسمع سؤالاً موجهاً إلى أحد الحاضرين يسرع هو من جانبه إلى الجواب عليه في نفس الوقت الذي يتكلم فيه المسؤول. وبذا يضيع الجواب على السائل لأنه يسمع اثنين أو ثلاثة يجيبون على نفس السؤال. وإذا كان السائل ضعيف السمع مثلي فإن المشكلة تكون أعوص!.

٥ ـ لاحظت في شخص خامس أنه إذا تجادل مع أحد الحاضرين في موضوع معين، ثم وجد نفسه أنه على وشك أن يغلبه مجادله فإنه يعمد إلى تحويل الجدل إلى موضوع شخصي ويأخذ بتوجيه الاتهام إلى المجادل ويصفه بما لا يليق لكي يتخلص من مغبة المغلوبية في الجدل.

أعود فأقول: إن هؤلاء الأشخاص الذين وصفتهم موجودون عندنا كمثل ما هم موجودون في البلاد المتقدمة ولكن عددهم يقل ويكثر تبعاً للمستوى الثقافي والحضاري في المجتمع. وتبعاً لانتشار العادات الديمقراطية فيه.

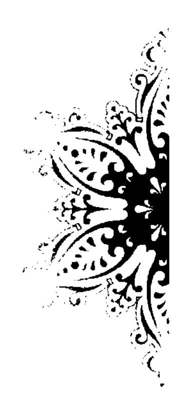
س: إذا كانت هذه العادات التي ذكرتها كثيرة الانتشار في مجتمع، كالمجتمع العراقي مثلاً، فهل معنى ذلك أن هذا المجتمع. لا يجوز تطبيق الديمقراطيه فيه؟

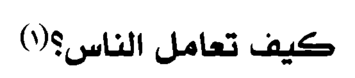
ج: إني قلت في عام ١٩٥٢، وأعيد القول الآن إن العادات الديمقراطية لا يمكن تعويد الناس عليها بالخطب والمقالات بل بالممارسة الفعلية لها.

إن ما فعلته حكومتنا في تطبيق الديمقراطية في العراق هو الطريقة العملية لتعويد شعبنا على الديمقراطية عملياً. ويجب أن نضع أمام أبصارنا عند ممارسة الديمقراطية أننا سنواجه في بداية الأمر كثيراً من المشاكل وسوء الاستعمال. فالعادات التي ذكرناها لا تختفي من الناس فجأة. بل هي تحتاج إلى مدة غير قليلة. ولكن ذلك يجب أن لا يمنعنا من ممارسة الديمقراطية، فهذه الممارسة مهما كانت صعبة في بداية الأمر فهي لا بدّ أن تؤدي في نهاية المطاف إلى ما نبتغيه من الوصول إلى المستوى الحضاري والديمقراطي اللائق بنا.

ليس هناك في هذه الدنيا نظام نافع كل النفع دون أن يخالطه شيء من الضرر. وقد قيل قديماً (ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل)!.







كيف تعامل الناس؟[1]

في ٢١/ ١/ ١٩٨٩ ألقى الدكتور علي الوردي محاضرة عامة في قاعة الإدريسي عنوانها (كيف تعامل الناس؟). وقد أجرى محرر هذه الصفحة حديثاً مع الدكتور الوردي حول هذا الموضوع، ويؤسفنا أن نشر الحديث قد تأخر لأسباب طارئة. ونحن ننشره الآن.. مع الاعتذار.. يقول الوردي:

إن عنوان المحاضرة (كيف تعامل الناس؟) هو عنوان يجذب القارئ وفي هذا الموضوع صدرت كتب كثيرة في الخارج، وقد ترجم بعض هذه الكتب إلى اللغة العربية كان أشهرها كتاب ديل كارينجي الذي هو بعنوان (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟). والغريب في هذا الكتاب أن مؤلفه ليس عالماً أو باحثاً علمياً بل هو مجرد كاتب اعتيادي ولكنه استطاع أن يتغلغل إلى أعماق الطبيعة البشرية عن طريق التجربة الشخصية في مخالطة الناس والتعامل معهم، وكان واقعياً صريحاً في أسلوبه فلا يلجأ إلى الخطابات والوعظيات التي ابتلي بها الكثير من الكتاب والمؤلفين. ولهذا راج كتابه رواجاً منقطع النظير.

ويقول الوردي إن كتاب كارينجي صدر في أميركا في عام ١٩٣٦، ولكنه لم يطلع على الكتاب إلا في عام ١٩٤٢، وذلك عندما كان يدرس في الجامعة

---

(١) العدد (١٢٣) ٢٢ مارس ١٩٨٩.

الأميركية في بيروت، وكان اطلاعه على الكتاب بمثابة نقطة تحول في حياته الفكرية لأنه هو الذي وجه اهتمامه نحو دراسة الطبيعة البشرية، وما زال اهتمامه منصباً في هذا الاتجاه حتى الآن ـ والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!

س: أرجو أن توضح لنا ما وصفته بنقطة تحول في حياتك. ويبدو لي أنك لست الوحيد بهذه التجربة الفكرية التي مررت بها، فهناك الكثيرون من أمثالك في هذه المرحلة الصاخبة من عصرنا، فما هو الواجب الذي يجب أن يقوموا به في هذه المرحلة؟

ج: أذكر لك في هذه المناسبة نكتة كنت قد ذكرتها في المحاضرة التي ألقيتها في قاعة الإدريسي ولا بأس أن أذكرها هنا مرة أخرى.

خلاصة القصة أن صديقاً لي علم بأني سألقي محاضرة عامة في موضوع (كيف تعامل الناس؟) فقال لي على سبيل المزاح: إنك ينطبق عليك قول الشاعر العربي (طبيب يداوي الناس وهو عليل). وكان يقصد من قوله هذا أني أقوم بتعليم غيري كيف يعامل الناس بينما أنا نفسي لا أعرف كيف أعامل الناس؟

إن هذه الكلمة التي قالها الصديق لي وإن كانت قد قيلت على سبيل المزاح هي في الواقع لا تخلو من حق. فأنا كغيري من أبناء جيلي نشأت على مفاهيم مغلوطة في الطبيعة البشرية وكيف نتعامل معها. وإني أعترف بأني قد تورطت في حياتي في كثير من الأخطاء الضارة من جراء تصديقي بتلك المفاهيم.

إني أرى من واجبي ومن واجب جميع الكتاب من أمثالي أن نكشف للناس مصدر الخطأ في المفاهيم التي نشؤوا عليها، ونحذرهم من مغبة الوقوع في نفس الأخطاء التي وقعنا فيها قبلهم.

من المؤسف أن أرى الكثيرين في مجتمعنا ما زالوا يعيشون في قوقعتهم الفكرية القديمة، وقد آن الأوان لهم أن يخرجوا منها!.

إن الطبيعة البشرية كما يفهمها العلم الآن تختلف كل الاختلاف عما كان يفهمها الناس في الماضي.

قرأت مؤخراً بحثاً للباحث الاجتماعي كوفمان مفاده أن الحياة الاجتماعية لا تختلف كثيراً عن التمثيلية التي يقوم بها ممثلون على المسرح، فكل واحد منهم يؤدي دوراً مطلوباً منه تأديته، وهو يحاول أن يكون بارعاً في تمثيله لكي ينال إعجاب المتفرجين وتصفيقهم. إن الفرد في المجتمع كثيراً ما يضمر في أعماق نفسه مشاعر تختلف عن تلك التي يظهرها أمام الآخرين. فهو بهذا الاعتبار ممثل يظهر غير ما يبطن، ولكنه يغالط نفسه أو يخدع نفسه من حيث لا يدري.

ذكرت في حلقة سابقة أن (الأنا) محور الشخصية البشرية، فكل فرد في أي مجتمع بشري يسعى دائماً نحو إظهار تفوقه ورفع مكانته في نظر الآخرين. فهو ينتعش حين ينال تقديرهم ويمتعض حين ينال احتقارهم.

لكي نفهم هذا بوضوح علينا أن نحضر إحدى الحفلات التي تلقى فيها القصائد والخطب. فكل شخص يشارك فيها يشعر بأن الأنظار ترمقه لكي تعرف مبلغ تفوقه في إلقاء خطبته أو قصيدته. وهو عندما ينتهي من إلقائها تراه يمشي بين الحاضرين مرفوع الرأس، حاسباً نفسه كأنه كان الأهم والأفضل بالمقارنة مع غيره، إنه يبتهج عندما يسمع تهنئة من أحد الحاضرين على جودة ما قال، وهو لا يدري أن غيره ربما نال من التهاني أكثر منه.

إن هذا الذي رأيناه في الحفلة لا يختلف في أساسه النفسي عما نراه في المقهى أو المجلس أو السوق أو الدائرة أو المدرسة أو الجامعة أو الملهى أو المرقص. أو غيرها. فكل من يساهم في واحد من هذه الاجتماعات يقوم بدور فيه وهو يحاول إظهار تفوقه في هذا الدور بكل هدوء. وكلما كان المجتمعون أكثر عدداً وأقل ألفة كانت نزعة التمثيل فيهم أكثر وضوحاً.

إن الإنسان حين يختلي بنفسه يسلك سلوكاً يختلف عما يفعله أمام

الناس. وهو لا يكاد يرى شخصاً ينظر إليه حتى يتغير سلوكه تبعاً لطبيعة ذلك الشخص من حيث علاقته الشخصية به أو مكانته الاجتماعية أو سلطته أو نفوذه.

أعود إلى موضوع العنوان الذي بدأت به هذا الحديث. فإنك عندما تريد أن تعامل الناس يجب أن لا تنسى أنهم ممثلون، وأنك أنت ممثل مثلهم. فأنت تحب أن يثني الناس على إتقانك لدورك، ويجب أن تعلم أنهم يحبون الثناء مثلك.

مشكلة الإنسان أنه يستثني نفسه من القاعدة التي تشمل الناس غيره. إنه يخضع للقاعدة كما يخضعون ولكنه لا يدري أو هو لا يدري أنه يدري. فتراه شامخ الأنف مزهواً بنفسه ولكنه لا يكاد يلمح في غيره شيئاً من الزهو حتى يشعر بالنفرة منه أو الحقد عليه.

أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما اعتاد عليه البعض منا في التسرع في إعلان أي خطأ يقوم به غيره بينما هو يغضب إذا أعلن غيره عن خطأ قام هو به.

حدثني صديق أنه كان يتحدث ذات مرة في مجلس فنقل قولاً مأثوراً ورد ذكره في أحد الكتب الدينية، فانبرى أحد الحاضرين يعلن وجود خطأ فيه. وشاءت الصدفة أن يكون الكتاب الديني قريباً فتناوله الصديق وأخرج القول منه، واتضح أنه كما قال هو وليس كما قاله الشخص الآخر. وقد غضب هذا الشخص من جراء ذلك وترك المجلس ناقماً، وصار فيما بعد من أعدائه الحاقدين عليه.

س: إذا كان الإعلان الخطأ الذي يقوم به أحد الناس غير مستحسن كما تقول فكيف يمكن إصلاح أخطاء الناس إذن؟

ج: إن الذي يعلن أخطاء غيره أمام الناس لا يقصد الإصلاح فعلاً بل هو يقصد إظهار التفوق في الغالب.

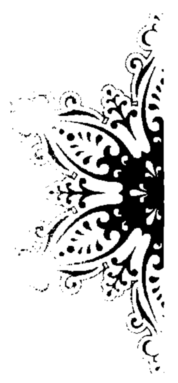
إن الذي يريد إصلاح الخطأ حقاً ينبغي أن لا يعلنه أمام الناس بل يؤجله إلى الوقت الذي يستطيع فيه أن ينفرد بالمخطئ ويناقشه في الخطأ بروح الإخلاص.

دلت بعض الدراسات العلمية أن الذي يعلن أخطاء الغير أمام الناس هو أكثر خطأً من غيره.

فهو في الواقع قليل المعرفة وهو يريد أن يغطي جهله بإعلان أخطاء الغير. وهو يفعل ذلك تحت تأثير دافع لا شعور ينبعث من داخل نفسه. إن الشخص الذي يتميز بسعة المعرفة ونضوج الفكر لا يسرع إلى تخطئة أحد إلا نادراً. فالناس يخطئون كثيراً. في أحاديثهم ولم يخلق الله أناساً لا يخطئون. ومن مصلحة العارف الناضج أن يتجنب تخطئة الناس جهد إمكانه فهو يعلم أن تخطئته لم تجلب عداءهم له دون أن ينفعهم شيئاً. ومن طبيعة الإنسان أنه يصر على الخطأ حين يرى أحداً يتحداه فيه.

هذه هي طبيعة البشر منذ خلقهم الله على وجه الأرض، وحتى قيام الساعة!.







بين المعاملة والإعلام(١)

تحدث الدكتور علي الوردي في الحلقة الماضية من هذه الصفحة في موضوع (كيف تعامل الناس؟) وهو الآن يواصل الحديث في هذا الموضوع.

يقول الوردي:

إن التعامل مع الناس ليس بالفن السهل، فهو كأي فن آخر لا يتقنه إلا القليلون.

إن الذي يريد التعامل مع الناس اعتماداً على الدليل العقلي وحده باعتبار أن الإنسان حيوان عاقل ينتهي أمره إلى الفشل في الغالب.

قلت مراراً وأعيد القول هنا أن هناك عدة عوامل لا شعورية تؤثر في الإنسان أهمها التراثية والجهل والعاطفة والأنوية والمصلحة. فهذه العوامل يجب أن نضعها أمام أبصارنا عندما نريد التعامل مع الناس. وإذا غفلنا عنها ثم أخفقنا في التعامل معهم فيجب أن نضع اللوم على أنفسنا لا عليهم.

قد يواجهنا هنا سؤال مهم هو كيف نستطيع أن نعرف العوامل اللاشعورية في أحد الأشخاص، أو مجموعة من الأشخاص، لكي نتمكن من النجاح في التعامل معهم؟

---

(١) العدد (١٢٤) ٢٩ مارس ١٩٨٩.

لنأخذ على سبيل المثال شخصاً تريد أن تتعامل معه في مجال التجارة أو السياسة أو تريد أن تجذبه إليك أو تقنعه في رأي من الآراء فإنك يجب أن تدرس أولاً البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها لكي تعرف المعتقدات والقيم التي يؤمن بها، ثم تدرس بعدئذ اتجاه مصالحه الخاصة وعواطفه ومستوى ثقافته وما أشبه ذلك وهذا أمر عسير طبعاً ولكنك كلما زدت معرفة بتلك العوامل المؤثرة في الشخص ازداد نجاحك في التعامل معه وفي التأثير عليه.

لنفرض شخصاً اعتنق رأياً تحت تأثير البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، ثم ارتبط الرأي بأنويته ومصلحته وعاطفته، فإن من الصعب جداً أو من المستحيل أحياناً، أن تقنع الشخص بتبديل رأيه حتى لو جئت له بأقوى الأدلة العقلية وأوضحها. غير أن هناك ثغرة يمكن التسلل منها إلى عقله وهي الإتيان بالأدلة المنسجمة مع عوامله اللاشعورية، بعضها أو كلها، وتراه عندئذ قد استجاب لك قليلاً أو كثيراً.

إن الدليل لا يؤثر في عقل الإنسان إلا بمقدار ما ينسجم مع العوامل اللاشعورية الكامنة في أعماق نفسه. فإذا كان الشخص مثلاً مؤمناً بعقيدة معينة فإن أقوى دليل تقدمه له هو الدليل المستند على نص وارد في أحد الكتب الدينية التي يعتقد بها أو على قول قاله أحد الأنبياء أو الأولياء الذين يقدسهم. أما الدليل الذي يستند على نص أو قول آخر فإنه لا فائدة فيه مهما كان في حدِّ ذاته قوياً.

س: ما قولك في فن الدعاية، أو الإعلام كما يسمى في أيامنا، فهل هو يشبه فن المعاملة من حيث تأثره بالعوامل اللاشعورية في الإنسان؟

ج: إن فن الإعلام وفن المعاملة ينبعان من مصدر واحد هو الطبيعة البشرية. فالذي يريد مخاطبة الجمهور والتأثير فيهم هو الذي يريد التعامل مع الفرد، إذ هو يجب أن يخاطب عقولهم الكامنة بدلاً من مخاطبة عقولهم الواعية.

إن أول من لفت الأنظار إلى فن الإعلام في المجال السياسي الحديث هو غوبلز الذي تولى وزارة الدعاية في ألمانية النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها. وينسب إلى هذا الرجل قول ما زال الناس يتداولونه حتى الآن هو: (اكذب واكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس).

لا ندري هل قال غوبلز هذا القول أم لا؟ ولكننا مع ذلك يجب أن نعلم أن هذا القول في حاجة إلى توضيح. فالكذب في الإعلام والتكرار فيه لا يؤثران في الناس إلا إذا كانا منسجمين مع عواملهم اللاشعورية. أما إذا كانا مخالفين لتلك العوامل فإن مردودهما في الناس يكون عكسياً.

المعروف عن غوبلز أنه نجح نجاحاً كبيراً في فن الإعلام، ولم يقتصر نجاحه على الشعب الألماني وحده بل تجاوز إلى بعض الشعوب الأخرى. فقد كانت إذاعة برلين خلال الحرب العالمية الثانية تحظى بتلهف الناس إلى سماعها في كثير من أنحاء العالم. وكنت أنا أحد المتلهفين إلى سماعها وكان هناك من أمثالي كثيرون في العراق والبلاد الأخرى.

إن السبب الأول في نجاح هذا الإعلام الغوبلزي هو أنه كان متجاوباً مع عواطف الناس ورغباتهم المكبوتة.

يجب أن لا ننسى أن الشعب الألماني كان عقب الحرب العالمية الأولى يشعر بالتذمر الشديد تجاه الحلفاء ويعتبرهم ناكثين بوعودهم له. وجاء هتلر ومعه غوبلز يضربان على هذا الوتر فاستجاب الشعب الألماني لهما بحماس شديد.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الشعوب التي كانت تتلهف إلى سماع إذاعة برلين فقد كانت تلك الشعوب تشعر بالتذمر أيضاً وقد وجدت إذاعة برلين صدى لرغباتها المكبوتة على وجه من الوجوه.

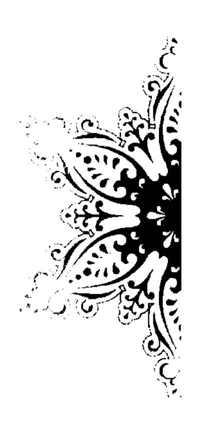
يصح أن أقول عن فن الإعلان مثلما قلته سابقاً عن فن المعاملة من أنه فن صعب لا يتقنه إلا القليلون.

إن الإعلامي عندما يريد أن يبدأ حملته الإعلامية يجب أن يفهم نفسية الناس الذين يخاطبهم وما لديهم من معتقدات ومصالح وعواطف. أما إذا غفل عن ذلك فإن حملته الإعلامية ستكون ذات مردود عكسي وكلما ازداد حماساً وتكراراً في حملته كان المردود العكسي عليه أشد!.

رأيت خلال الحرب العالمية الثانية منشوراً إعلامياً مصوراً وزعته السفارة البريطانية في العراق، وكان هذا المنشور يصور هتلر كأنه عملاق جبار يمد أذرعه الهائلة للاستحواذ على العالم والواقع أن هذا المنشور يكون له تأثيره الإيجابي في الناس لو أنه وزع في بريطانيا أو في أي بلد غربي آخر. أما في البلاد الشرقية فإن تأثيره سلبي، فالناس في الشرق كانوا يقدرون أي عملاق جبار قادر على مغالبة الدول الاستعمارية الكبرى وكسر شوكتها وهذا هو الذي جعلهم يهيمون بحب هتلر ويطربون لانتصاراته..

يبدو أن الذي أصدر المنشور الذي ذكرناه كان بريطانيا، فهو كان يتصور الناس في الشرق كالناس في بريطانيا. إنه لم يكن يعرف الفرق الكبير بين نفسية هؤلاء ونفسية أولئك.





حول الدهاء[1]

تحدث الدكتور علي الوردي في حلقة سابقة عن فن معاملة الناس. وقد وردنا من أحد القراء سؤال يسأل فيه عن الدهاء وعن علاقته بفن معاملة الناس. وقد أحلنا السؤال إلى الدكتور الوردي فأجابنا مشكوراً بما يلي:

يقول الوردي:

وردت في التاريخ العربي أقوال كثيرة حول الدهاء والمقصود به المقدرة التي يملكها بعض الأشخاص في التعامل مع الناس في مجال السياسة. ومن الممكن القول إن الدهاء لا يقتصر على مجال السياسة وحده بل هو يشمل مختلف مجالات الحياة الاجتماعية. فنحن قد نرى شخصاً بارعاً في معاملة الناس المحيطين به. ومن الممكن أن نصفه بالدهاء في نطاق البيئة المحدودة التي يعيش فيها. ولو أتيح لهذا الشخص أن يخرج من بيئته المحدودة ويدخل في مجال السياسة الواسع لربما صار من الدهاة المشهورين الذين غيّروا وجه التاريخ. ولكن الظروف، أو الحظ كما يسميه العوام، جعلته قابعاً في بيئته المحدودة ولم يستطع أن يستثمر مقدرة الدهاء كما ينبغي.

ومن الجدير بالذكر أن الدهاء يعتبر الآن نوعاً من الذكاء حسب النظرية

(١) العدد (١٢٥) ٥ حزيران ١٩٨٩.

التي جاء بها مؤخراً العالم النفسي هوارد غاردنر. ففي رأي هذا العالم أن الذكاء سبعة أنواع وأن الدهاء ـ أي فن معاملة الناس ـ أحد هذه الأنواع السبعة.

كان الناس قديماً، وما زال الكثيرون منهم حتى الآن، يحصرون موهبة الذكاء في نوع واحد فيه، فمن نجح فيه قالوا عنه إنه ذكي، أما من أظهر عجزاً أو قصوراً فيه فإنهم يعدونه غبياً لا خير فيه. وقد اتضح الآن خطأ هذه النظرية.

إن شخصاً ما قد يكون ذا درجة عالية في أحد أنواع الذكاء بينما هو ذو درجة واطئة في نوع آخر منه. ومشكلة هذا الشخص تكون على أشدها عندما ينشأ هذا الشخص في بيئة لا تقدر ذكاءه العالي، وهو قد يكون مصيره الفشل الذريع في حياته. ولو أنه كان قد نشأ في بيئة أخرى لربما كان من العظماء اللامعين فيه.

خير مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو أديسون الذي يعتبر من أعظم المخترعين في تاريخ البشرية، أو أعظمهم جميعاً. فقد كان هذا الرجل في طفولته يبدو عليه الغباء، وقد كتب مدير مدرسته تقريراً عنه إلى أهله يصفه بالتخلف العقلي. وقد انقطع هو عن المدرسة وصار يبيع الصحف في القطار. والظاهر أن ذكاءه المفرط في المدرسة كان أكثر مما ينبغي له، فضاق المعلمون به ذرعاً. ولكنه أتيحت له فيما بعد ظروف ملائمة أدت به إلى اكتشاف موهبته واستثمارها، فصار مشهوراً إلى الدرجة القصوى. ولو أنه كان قد عاش في مجتمع بدائي متخلف لظل كما كان في المدرسة محتقراً منبوذاً.

يمكن أن نقول مثل هذا عن الدهاة الذين اشتهروا في تاريخ الأمم. فالواحد منهم قد أتاحت له الظروف أن يستثمر موهبة الدهاء فيه على نطاق واسع فصار مشهوراً. ولنفرض أن شخصاً وهبه الله درجة عالية من الدهاء ولكنه كان دميماً، أو كان من أسرة وضيعة معدمة. فهو كلما حاول استثمار موهبته الدهائية مع الناس انثالت عليه الصفعات و(الكفخات) من كل جانب دون أن

تترك له مجالاً لكي يقول أو يفعل كما يريد. وقد رأينا من أمثال هذا (الأغبر) في مجتمعنا كثيراً.

ويمكن أن نأتي بمثل آخر في شخص موهوب بالدهاء ولكنه غير موهوب بالذكاء المدرسي. وكان أهله يطمحون له أن يتفوق في دراسته المدرسية لكي يكون طبيباً أو مهندساً مرموقاً، وتراه يكدح في المدرسة دون جدوى، ثم يلقى من لوم أهله وتوبيخهم ما لا يقدر على الصبر عليه. وربما أدى ذلك به إلى الانتحار أو الجنون.

كان المفروض من هذا الشخص أن يتوجه منذ طفولته نحو المهنة التي تلائم موهبته، فيدخل في مجال التجارة مثلاً أو أي مجال آخر يحتاج إلى فن معاملة الناس.

أعرف شخصاً كان يعد غبياً في المدرسة، ولكنه أصبح فيما بعد تاجراً مرموقاً. فهذا الشخص يجب أن يحمد ربه ألف مرة لأنه أتيح له أن يعمل في المهنة التي هو مؤهل لها.

العقلانية والدهاء:

لا يكفي في الموهوب بالدهاء أن تساعده الظروف على استثمار موهبته، بل يجب أن تكون له بالإضافة إلى ذلك ثقافة ملائمة وتجارب كافية.

إن الموهوب بالدهاء ربما نشأ في ثقافة عقلانية من النمط الذي كان سائداً عندنا في الجيل الماضي. فهذه الثقافة العقلانية تفسد موهبة الدهاء فيه، إذ هو يتعامل مع الناس في ضوء العقل والمنطق، يحاول إقناعهم أو التأثير فيهم بالأدلة العقلية فهو في وادٍ وهم في وادٍ آخر.

ومما يلفت النظر أن ابن خلدون فطن إلى هذه النقطة قبل أن يفطن إليها علم الاجتماع الحديث بنحو ستمائة سنة. فهو قد عقد في كتابه (المقدمة) فصلاً

عنوانه: (في أن العلماء من بني البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها). وهو يقول في تفسير ذلك ما يلي: إن العلماء قد اعتادوا على النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة. أما السياسة فهي تتطلب غير ذلك إذ إن أصحابها يحتاجون إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال، فإنها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكليات التي يحاول العلماء تطبيقها عليها. إن العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط كثيراً. ويفعل مثل ذلك الأذكياء العقلاء من غير العلماء إذ هم يفكرون على نمط ما يفكر به العلماء من حيث الغوص على المعاني والقياس فيقعون في الغلط.

ويقارن ابن خلدون هؤلاء العلماء والعقلاء بالفرد العامي الذي هو متوسط في ذكائه وسليم الطبع، فيقول إن هذا العامي أقدر على النجاح في السياسة منهم. فهو في نظر ابن خلدون ينظر في مادة حسب ظروفها، ولا يكترث للقياسات والتعميمات، ولا يفارق في نظره المواد المحسوسة، ولا يجاوزها في ذهنه فهو في ذهنه كالسابح الذي لا يبتعد عن الشاطئ عند اشتداد الموج.

ويستخلص ابن خلدون مما ذكره النتيجة التالية حيث يقول: (ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس. . .).

التجارب والدهاء:

إن التجارب والدهاء لا تقل في أهميتها للموهوب بالدهاء عن الثقافة الملائمة. فالإنسان مهما كان موهوباً بدرجة عالية من الدهاء لا يستطيع أن ينجح في التعامل مع الناس ما لم يكن قد مرت به التجارب الكثيرة وتعلم منها الدروس المفيدة.

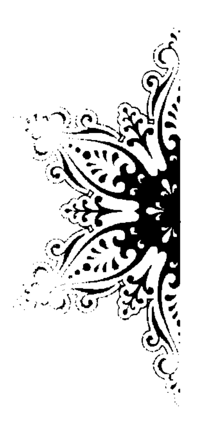
حين ندرس سيرة الملوك القدامى لا نجد فيهم من الدهاة إلا عدداً محدوداً. فهم قد ورثوا الملك عن آبائهم في الغالب ونشؤوا في القصور وفي أحضان العبيد والجواري، ولم يخالطوا الناس مخالطة واقعية إلا قليلاً. وهم عندما يتولون الحكم بعدئذ يحف بهم المتزلفون والمتملقون يزينون لهم أعمالهم. ولذا فهم لا يستطيعون أن يفهموا الناس كما هم عليه في حقيقتهم بل يفهمونهم حسبما يشتهونه فيهم.

إننا يجب أن نستثني من هذه القاعدة الملوك المؤسسين، أي الذين أسسوا الأسر الحاكمة في التاريخ. فالواحد من هؤلاء خالط الناس قبل توليه الحكم، وهم كذلك قد عانوا ما عانوا عند كفاحهم في تأسيس الأسرة. ولذلك نراهم من أبرع الناس في معاملة الناس.

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون تطرق إلى هذه النقطة أيضاً في كتابه (المقدمة). فهو يضع لكل أسرة حاكمة عمراً محدوداً، إذ هي تبدأ قوية على يد مؤسسها ثم تبدأ بالضعف تدريجياً جيلاً بعد جيل. وقد وصف ابن خلدون مؤسس الأسرة بأنه (باني المجد) وأنه مدرك لما عاناه في بنائه ومحافظ على الخصال التي هي أسباب كونه وبقائه. وعندما يموت المؤسس يرث الملك من بعده ولي العهد، وهذا الوارث قد ينتفع من تجارب المؤسس عن طريق السماع، ولكن السامع بالشيء ليس كالذي يعانيه ـ على حدِّ تعبير ابن خلدون.

ويأتي ابن خلدون إلى وصف الأجيال التالية في الأسرة الحاكمة بعد المؤسس ووراثه، فيقول بأنهم نشؤوا في أحضان الترف ولم يشاهدوا من الناس سوى التجلة، وهم لا يعرفون الخصال التي مكنت مؤسس الأسرة من بناء المجد، وبهذا تنحدر الأسرة الحاكمة شيئاً فشيئاً نحو السقوط. وعندما تقوم بعدها أسرة جديدة تمر بنفس الدورة التي مرت بها الأسرة الأولى. وهكذا يسير التاريخ دورة بعد دورة!.





الصحافة والمجتمع(١)

بمناسبة الاحتفال بعيد الصحافة طلبنا من الدكتور علي الوردي أن يتحدث لنا عن تاريخ الصحافة العراقية باعتبارها من معالم التطور الحضاري في المجتمع العراقي الحديث. وقد لبى الدكتور الوردي طلبنا مشكوراً وكتب لنا ما يلي.

يقول الوردي:

في ١٥ حزيران من عام ١٨٦٩ صدر العدد الأول من جريدة (الزوراء) التي هي أول جريدة تصدر في العراق وكان ذلك بداية تاريخ الصحافة العراقية ومن الممكن القول إن الصحافة العراقية مرت بعدئذ بعدة مراحل وكانت كل مرحلة منها تمثل طوراً من أطوار المجتمع العراقي جديراً بالذكر وبالاعتبار به.

سأحاول في هذه الحلقة وفي الحلقات التالية أن أتحدث عن المراحل المتتابعة التي مرت بها الصحافة العربية منذ ظهور العدد الأول من جريدة الزوراء حتى يومنا هذا وعن العلاقة بين الصحافة والمجتمع في كل مرحلة منها والرجاء من القراء أن يرشدوني إلى مواضع الخطأ في حديثي هذا فالخطأ لا خلاص منه في كل عمل بشري كما ذكرته سابقاً وسبحان الذي لا يخطئ!

---

(١) العدد (١٢٦) ١٢ حزيران ١٩٨٩.

المرحلة الأولى

استغرقت المرحلة الأولى للصحافة العراقية من ١٥ حزيران ١٨٦٩ إلى ٢٤ تموز ١٩٠٨ أي نحو تسع وثلاثين سنة ولم تظهر في هذه المرحلة سوى ثلاثِ جرائد وكانت كلها حكومية وهي:

١ ـ جريدة الزوراء التي أسلفنا ذكرها.

٢ ـ جريدة الموصل التي صدرت في الموصل في ١٨٨٥.

٣ ـ جريدة الفيحاء التي صدرت في البصرة في ١٨٨٩.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المجلات الدينية صدرت في تلك المرحلة أيضاً وهي كانت مسيحية ذات انتشار محدود أولها مجلة إكليل الورد التي أصدرها الآباء الدمنكيون في الموصل في عام ١٩٠٢ والثانية مجلة زهيرة بغداد التي أصدرها الآباء الكرمليون في بغداد في عام ١٩٠٥، والثالثة مجلة الإيمان والعمل التي أصدرها الآباء الكرمليون باللغة الفرنسية في بغداد في العام نفسه.

إن الجرائد الحكومية الثلاث لم يكن يقرأها سوى الأفندية ـ أي موظفي الحكومة ـ وبعض الوجهاء المتصلين بهم أما أكثر الناس فكانوا ينظرون إليها نظرة استنكار أو تحريم وكان يدفعهم إلى ذلك سببان:

١ ـ كان أكثر الناس في تلك المرحلة يشعرون بأن الجريدة لا تفيدهم في حياتهم العملية شيئاً، أو هي حسب تعبيرهم الشائع لا تعطي خبزاً.

فقد كان الفقر حينذاك سائداً في الناس وكان الأب يوصي ابنه أن لا يشغل نفسه بالأمور التي لا تعطي خبزاً وقد ظلت هذه النظرة سائدة في الناس حتى وقت قريب.

أعرف شخصاً كان في الحرب العالمية الأولى شاباً مولعاً بقراءة الجرائد. وكان أبوه ينصحه ويردعه عن ذلك دون جدوى وفي أحد الأيام جاء هذا الشاب إلى بيته وهو يصرخ قائلاً: سقطت وارشو فهو قرأ هذا الخبر في أحد الجرائد

وكان خبراً مثيراً من أخبار الحرب إذ سقطت وارشو في ذلك الحين بأيدي الألمان وأراد أبوه أن يلقنه درساً فأخذ به إلى بائعة شوك في السوق وقال لها: (هل تبيعين باقة الشوك بخبر سقوط وارشو؟) وكانت البائعة طبعاً لا تعرف ما هي وارشو وما هي أهمية سقوطها فرفضت أن تبيع شوكها بشيء لا قيمة له وعند هذا التفت الأب نحو ابنه ناصحاً (انظر إلى هذا الخبر الذي اهتممت به فهو لا يساوي باقة شوك).

٢ ـ إن السبب الثاني الذي هو أهم من السبب الأول في استنكار الناس لقراءة الجريدة هو أنهم يعدونها تشغل الناس عن قراءة القرآن والأدعية أو هي من مبتدعات الإفرنج الكفار الذين يريدون إفساد عقول المسلمين وهدم دينهم وإني أدركت الناس في العشرينيات إذ كانوا لا يزالون ينظرون إلى الجريدة مثل تلك النظرة، أعرف رجلاً متديناً من أهل السوق القريب من بيتنا وكان قد اعتاد على قراءة القرآن عند فتح دكانه صباحاً وقد لمح ذات يوم رجلاً من السوق يقرأ الجريدة بدلاً من القرآن فانهال عليه بالتوبيخ وخوفه من عذاب الله في الآخرة.

وحدثني صديق من أهل النجف أنه كان هو وزمرة من أصحابه في العشرينيات يجتمعون في بيت أحدهم سراً ليقرأوا الجريدة فإذا خرجوا من البيت أخفوها تحت عباءاتهم مخافة أن يراها الناس فيتهمونهم بالتفرنج والزندقة.

ويروى عن أحد رجال الدين المعروفين في بغداد في أواخر العهد العثماني أنه لاحظ ابنه ذات يوم يدخل غرفته ويسدها عليه سداً محكماً، فداهم الغرفة ليجد ابنه يقرأ الجريدة سراً، فانهال عليه بالضرب المبرح وقال له: (لقد خربت بيتي بإدخالك القسطة فيه).

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الجريدة كانت في تلك الأيام تسمى (قسطة) وهي لفظة مأخوذة من اللغة الإيطالية (غازيتا)، وقد حورها العوام إلى (قسطة) كما هي عادتهم دائماً في تعريب الألفاظ الأجنبية. وقد فعل العوام في

مصر مثل ذلك إذ هم أطلقوا على الجريدة اسم (جرنال) وهو مأخوذ من الفرنسية.

المرحلة الثانية:

في ٢٤ تموز من عام ١٩٠٨ فوجئ الناس في بغداد بظهور معالم الزينة في دوائر الحكومة، ورفع أعلام كتب عليها بالقلم العريض: (حريت عدالت مساوات أخوة) ـ وأخذ الناس يتساءلون عما جرى فقيل لهم إن انقلاباً حدث في اسطنبول قام به الجيش وأرغم السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإطلاق الحرية للناس، وبهذا بدأ عهد جديد في العراق والأقطار العثمانية الأخرى في (عهد الدستور). تميز عهد الدستور في العراق بظواهر اجتماعية غير قليلة نذكر فيما يلي أهمها:

١ ـ فسّر بعض الناس الحرية التي أعلن عنها في عهد الدستور بأن الإنسان يكون فيها حراً يفعل ما يشتهي دون رادع وبذا أصبحت أسواق بغداد معرضاً لمختلف أنواع الأسلحة كالخناجر والسيوف والمسدسات والبنادق، فكانت هذه الأسلحة تعرض للبيع علناً في الأسواق، وأخذ (الأشقياء) يتبارون في اقتنائها للتباهي بها. ويحكى عن أحد الأشقياء عندما سطا على بيت ليلاً وقتل صاحبه. ولمّا ألقي القبض عليه وصدر الحكم عليه بالإعدام صرخ محتجاً: (أين الحرية التي تنادون بها!؟). إنه كان يظن أن عهد الحرية يبيح له نهب الناس وقتلهم بلا حساب.

٢ ـ شهدت بغداد في هذا العهد أول مسرح ترقص عليه امرأة. وكانت هذه الراقصة من حلب اسمها (رحلو جرادة). وقد كان الناس في السنوات القليلة الماضية يشهدون غلماناً يرقصون على المسرح. أما في هذا العهد فقد شاهدوا امرأة ترقص، فكان ذلك حدثاً مثيراً هز المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً وذلك من جراء الجوع الجنسي الذي كان مسيطراً

على الناس حينذاك. وصارت الراقصات يتهافتن على بغداد من تركيا ومصر وبلاد الشام، وشاع بينهن أن التي تذهب إلى بغداد تجني ذهباً. فكانت الراقصة لا تكاد تغمز بعينها لأحد من رواد المرقص حتى يفقد لبه ويبذل لها كل ما في جيبه من مال، وربما اضطر في اليوم التالي إلى بيع داره أو أثاث بيته لكي ينال منها غمزة أخرى.

٣ ـ شهدت بغداد في عهد الدستور فورة صحافية عجيبة، فقد كان كل رجل يشعر بأنه قادر على الكتابة يطمح أن يكون صحافياً يشار إليه بالبنان وأن يصدر جريدة تحمل اسمه. وفي خلال ثلاث سنوات صدرت في بغداد نحو سبعين جريدة، وكانت معظم هذه الجرائد تموت من تلقاء نفسها بعد صدور أعداد قليلة منها لقلة الإقبال عليها.

عمد بعض الصحفيين إلى أسلوب الشتم المقذع أو المعارضة التهريجية بغية ترويج جرائدهم. وقد صبرت الحكومة على ذلك في بداية الأمر لكي تبرهن على أن العهد الجديد هو عهد الدستور والحرية حقاً ولكن صبرها نفد في عام ١٩١١، فأصدرت قانوناً قضت فيه بإلغاء امتياز أية جريدة توقفت عن النشر قبل ٥ آذار من تلك السنة.

وبهذا تم إلغاء امتياز ٣٨ جريدة دفعة واحدة.

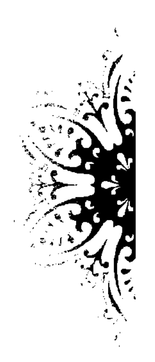
إن الديمقراطية، كما ذكرناها في حلقة سابقة من هذه الصفحة، هي عادات وليست محفوظات فالناس الذين اعتادوا على الشتائم والتهريج في حياتهم الاجتماعية يصعب عليهم ممارسة الديمقراطية في حياتهم السياسية. فهم في حاجة إلى زمن طويل يمارسون فيه الديمقراطية فعلياً لكي يعتادوا عليها.

إن عهد الحرية والدستور ظهر في العراق وفي الأقطار العثمانية الأخرى فجأة، فأساء الناس استعماله. وشاء القدر أن لا يستمر هذا العهد طويلاً. ففي عام ١٩١٤ ـ أي بعد ست سنوات من إعلان الدستور ـ دخلت الدولة العثمانية

الحرب بجانب ألمانيا، واختفى بذلك عهد الحرية، وحل محله عهد الرقابة الصارمة التي تقتضيها ظروف الحرب.

وسنحاول في الحلقة القادمة من هذه الصفحة دراسة ما جرى على الصحافة في أيام الحرب وما بعدها.







الصحافة والمجتمع[١]

في العدد الماضي تحدث الدكتور علي الوردي عن الصحافة العراقية في مرحلتين، أولاهما: في عهد ما قبل إعلان الدستور العثماني، والثانية: في عهد الدستور. والآن يواصل الدكتور الوردي حديثه عن الصحافة العراقية في مرحلة الحرب العالمية الأولى وما بعدها:

مرحلة الحرب العالمية الأولى:

كانت بغداد قبل الحرب الأولى تصدر فيها عدة جرائد ومجلات نذكر فيما ما يلي أهمها:

١ ـ جريدة (الرقيب) لصاحبها عبد اللطيف ثنيان.

٢ ـ جريدة (المصباح) لصاحبها عبد الحسين الأزري.

٣ ـ جريدة (صدى بابل) لصاحبها داود صليوه.

٤ ـ جريدة (الزهور) لصاحبها محمد رشيد الصفار.

٥ ـ جريدة (الرياض) لصاحبها سليمان دخيل.

٦ ـ مجلة (لغة العرب) لصاحبها الأب انستاس ماري الكرملي.

---

(١) د. علي الوردي ق ٢ ـ العدد (١٢٧) ١٩ حزيران ١٩٨٩.

٧ ـ مجلة الرياحين لصاحبها إبراهيم صالح شكر.

وبعدما احتل الإنكليز البصرة في تشرين الثاني من عام ١٩١٤ أصدروا فيها جريدة يومية اسمها (الأوقات البصرية) وكانت مليئة بمدح الإنكليز وذم الأتراك. وكان يرأس تحريرها جون فيلبي الذي كان يتقن العربية، ويساعده في تحريرها كتاب عراقيون.

وفي شهر أيار من عام ١٩١٥ جاء إلى بغداد وال جديد هو نور الدين بك وكان قائداً للجيش أيضاً. ويبدو أنه وجد الجرائد والمجلات التي تصدر في بغداد لم تقم بواجبها في الرد على جريدة (الأوقات البصرية) فأمر بغلقها جميعاً وبنفي أصحابها إلى أماكن نائية. وقد لقي هؤلاء في نفيهم من العناء والأذى شيئاً كثيراً.

في ٢٣ تموز من عام ١٩١٥ صدر في بغداد العدد الأول من جريدة (صدى السلام) وكان المقصود منها أن تكون نداً لمواصلة الأوقات البصرية فصارت تذم الإنكليز وتمدح الأتراك. وكان رئيس تحريرها رؤوف الجادرجي الذي كان يومذاك رئيساً لبلدية بغداد، وكان يساعده في التحرير إبراهيم حلمي العمر وخيري الهنداوي وعطا الخطيب ومحمود الوادي وعبد الرحمن البناء وجميل صدقي الزهاوي وغيرهم.

إن من يقرأ الجريدتين المتصاولتين ـ أي (صدى الإسلام) و(الأوقات البصرية) يجد صورة واضحة للعقل البشري في تحيزه. فكل منهما كانت تبالغ في ذكر محاسن أحد الجانبين المتحاربين كما تبالغ في ذكر مساوئ الجانب الآخر. وهذا أمر لا داعي للاستغراب منه، إذ هو طبيعة بشرية عامة تظهر معالمها في كل تنازع يقع بين البشر في كل زمان ومكان.

كانت تصدر في بغداد بالإضافة إلى جريدة (صدى الإسلام) نشرة تسمى (أجانص) وكان هذا الاسم مأخوذاً من لفظة فرنسية بمعنى الوكالة. وكانت هذه النشرة تصدر في بعض الأوقات لنشر الأخبار الحربية المهمة كالانتصارات التي

كانت الجيوش العثمانية والألمانية تنالها ضد الجيوش الانكليزية والروسية والفرنسية. وقد اعتاد الناس في بغداد أن يشاهدوا بين الحين والحين رجلاً يركض في الأسواق وهو ينادي: (أجانص أجانص)، فيشتريها البعض منهم ويفرحون بما يرد فيها من خبر الانتصار لجيش الإسلام على الكفار. وكانوا يعتبرون انتصار ألمانيا انتصاراً للإسلام أيضاً لأنها حليفة الدولة العثمانية التي كانت تمثل في نظرهم الخلافة الإسلامية.

مرحلة الاحتلال الإنكليزي:

في ١١ آذار ١٩١٧ سقطت بغداد بأيدي الإنكليز، وأراد الإنكليز إصدار جريدة فيها اسمها (الأوقات البغدادية) أسوة بـ(الأوقات البصرية). ولكن الأب انستاس ماري الكرملي أشار عليهم أن يسموها (العرب) وفي ٤ تموز ١٩١٧ صدر العدد الأول من جريدة (العرب) وكانت جريدة (الأوقات البصرية) مليئة بذم الأتراك ومدح الإنكليز. وكمان فيلبي يرأس تحريرها، ويساعده الكرملي فيها.

أخذ الكثيرون من شعراء العراق وكتابه ينشرون في جريدة (العرب)، بتواقيع مستعارة. فهم كانوا يخشون من عودة الأتراك فينتقمون منهم. وكانت الجريدة تعطي مكافآت لمن ينشر فيها من منظوم ومنثور، فانثال الناظمون والناثرون عليها من كل حدب وصوب.

الملاحظ أن أكثر الذين كانوا ينشرون نتاج قراءتهم في جريدة (العرب) كانوا يفعلون ذلك في جريدة (صدى الإسلام). ولا حاجة بنا لذكر أسمائهم. ولا لوم عليهم فيما فعلوه، إذ هم كانوا مضطرين إلى ذلك بحكم ظروفهم، ولو كنا في مثل ظروفهم لفعلنا فعلهم.

مرحلة العهد الفيصلي

كان العهد الفيصلي الذي امتد بين عامي ١٩٢١ و١٩٣٣ متميزاً ببعض

الخصائص التي تلفت النظر وتستحق التقدير. وليس هنا مجال للإسهاب في هذا الموضوع فقد أشبعته بحثاً في الجزء السادس من كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث). ويكفي الآن أن أذكر شيئاً يسيراً منه.

كان الملك فيصل الأول واقعاً بين تيارين متضادين، فقد كان الشعب من جهة يطالب بالاستقلال والحرية، بينما كان الإنكليز من الجهة الأخرى يريدون تدعيم مصالحهم في العراق. وكان فيصل يدرك أن الانحياز المطلق نحو أحد الجانبين يؤدي إلى مخاطر يصعب عليه مواجهتها. وهو مضطر أن يسير في سياسته نحو مداراة كلا الجانبين. وهي سياسة عسيرة جداً وتحتاج إلى دهاء وحذق. والواقع أن فيصلاً لقي عناءً غير قليل لاتباعه تلك السياسة.

وكان ذلك من أسباب موته المبكر، فخسر العراق بموته خسارة لا تعوض!

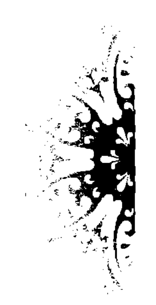
كانت الصحافة في العهد الفيصلي ذات طابع خاص تختلف به عما كانت عليه قبل ذلك أو بعد ذلك. وإني أدركت ذلك العهد وكنت من قراء الجرائد فيه. وأشهد أن الحرية الصحافية كانت حينذاك في مستوى يندر أن نجد له مثيلاً في أكثر البلاد النامية.

وصف أحد السياسيين الذين عاصروا الملك فيصل بأنه كان يسمح للأحزاب بأن تتصارع ولكنه كان يقف تجاهها كقائد أوركسترا يشرف على العازفين وينظم عزفهم. ومن الممكن أن نصف الديمقراطية في عهد الملك فيصل بأنها كانت ديمقراطية موجهة. وقد رأينا كيف استغلت الأحزاب موت فيصل فأخذت تعبث بالبلاد كما تشتهي، إذ هي كانت تثير العشائر تارة وتثير الجيش تارة أخرى. وقد مر المجتمع العراقي من جراء ذلك بمرحلة صاخبة لا تخلو من لؤم.

كانت الصحف في العهد الفيصلي تمثل الأحزاب المتصارعة فيه. وكثيراً

ما كانت تتصاول بالانتقادات اللاذعة، غير أنها لم تكن تخرج في انتقاداتها عن جادة الصواب إلا قليلاً.

إن انتقادات الصحف لها وظيفة نفسية واجتماعية. إذ هي بمثابة تنفيس لما يعانيه الناس من تذمر. وعندما تغيب انتقادات الصحف عن الناس يتحول التذمر فيهم إلى عقد مكبوتة..

حول العقل البشري ـ مرة أخرى![1]

وصلتنا من أحد القراء رسالة ينتقد فيها الدكتور علي الوردي ويصفه بالتناقض في أقواله، وقد ذكر القارئ في رسالته قولين للوردي يعتبرهما متناقضين، فالوردي في إحدى مقالاته المنشورة في هذه الصفحة يقول: إن عقل الإنسان يكون عاجزاً أو مشلولاً عند وجود مصلحة في شيء معين يركز تفكيره على ابتكار الوسائل التي تمكنه من الحصول على ذلك الشيء.

إن القارئ يسأل: كيف يمكن أن يكون العقل عاجزاً مشلولاً وهو في الوقت نفسه يركز تفكيره على ابتكار الوسائل التي تمكنه من الحصول على الشيء المطلوب؟!

وقد أحلنا هذا السؤال إلى الدكتور علي الوردي فأجابنا قائلاً مشكوراً بما يلي:

يقول الوردي:

إني قبل كل شيء لا أنكر وجود تناقضات كثيرة في أقوالي وكتاباتي، فأنا بشر كغيري من الناس لا بدّ أن أقع في التناقض من حيث أدري أو لا أدري. إن

(١) د. علي الوردي العدد (١٢٨) ٢٦ حزيران ١٩٨٩.

الذي ينزه نفسه من الوقوع في التناقض هو كالذي ينزه نفسه من الوقوع في الخطأ. فالتناقض هو كالخطأ محتوم في الإنسان لا مفر منه.

أما التناقض الذي ذكره القارئ صاحب الرسالة فليسمح لي أن أقول إنه لم يكن تناقضاً حقيقياً بل هو تناقض ظاهري سببه سوء التعبير مني أو سوء الفهم منه، أو كلاهما.

أحيل القارئ إلى نظرية جاء بها وليم جيمس في موضوع العقل البشري، وهي النظرية التي أميل إليها، ومفادها: أن العقل البشري ليس المقصود منه التوصل إلى الحقيقة المطلقة كما كان الفلاسفة القدماء يتصورون، بل هو بالأحرى عضو في الإنسان خلقه الله فيه لمساعدته في تنازع البقاء كما خلق الخرطوم في الفيل، والمخلب للأسد، والسم للعقرب، والقرون للخروف، إلخ..

إن الإنسان ضعيف في بدنه تجاه الحيوانات الأخرى، ولكن الله وهبه وسائل لتساعده في تنازع البقاء أهمها العقل. فالعقل إذن له وظيفة أساسية هي مساعدته في تنازع البقاء. أما البحث عن الحق والحقيقة وما أشبه ذلك من الأقاويل التي كان الفلاسفة القدماء يتحذلقون بها فهي بعيدة عن طبيعة العقل.

إن الإنسان لا يحب الحقيقة إلا إذا كانت له مصلحة فيها أو أية رابطة أخرى تربطه بها. وهو لا يكاد يرى الحقيقة مخالفة لتلك المصلحة أو الرابطة حتى ينبري لنقضها أو التشكيك فيها بكل وسيلة تتاح له، وهو يسعى للبحث عن الأدلة التي تؤيده في وجهة نظره.

إني عندما قلت إن العقل يكون مشلولاً أو عاجزاً تجاه المصلحة كنت أقصد أن العقل عندما تكون له مصلحة في شيء يركز كل تفكيره في ذلك الشيء وكيف يحصل عليه، أما في غير ذلك فإنه لا يفهم شيئاً ولا يريد أن يفهم شيئاً. وفي هذا مصداق للمثل العربي القديم القائل: (صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاها).

انظر إلى فريقين من البشر وهما يتنازعان في مصاولة السلاح، أو في دعوى قضائية، أو في جدال طائفي، أو في غير ذلك. ولنفرض أنك طلبت منهما ترك التنازع والإحكام إلى العقل. فماذا سوف تكون نتيجة طلبك منهما؟

إن العقل في هذا المجال عاجز أو مشلول. فكل فريق منهما حين يحكم إلى عقله يتصور أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه. ولا يمكن حل التنازع بينهما إلا بأن يتغلب أحدهما على الآخر بالقوة، أو يتدخل فريق ثالث قادر على فرض حكمه عليهما. وبغير هذا يظل التنازع بينهما مستمراً وقد يتفاقم تدريجياً بمرور الزمن.

استدراك:

إن القارئ صاحب الرسالة له شيء من الحق في وصف قولي بالتناقض. فالواقع إن العقل تجاه المصلحة لا يكون عاجزاً بشكل مطلق، بل هو يكون شديد النشاط والإبداع في المجال الذي يوصله إلى تحقيق مصلحته، أما في غير ذلك فإنه يكون عاجزاً.

يصف وليم جيمس العقل البشري بأنه متحيز، وإني أعترف بأن هذا الوصف أكثر دقة من وصفي للعقل بأنه عاجز أو مشلول. فالعقل يتحيز في نظرته إلى الأمور، وهو في بحث دائم عما ينفع صاحبه وعما يدرأ الضرر عنه.

وهنا يجب أن نضيف نقطة نظر غفل عنها وليم جيمس. فالإنسان ليس كالحيوان المفرد الذي ينازع غيره من أجل البقاء، بل هو عضو في مجتمع وينشأ في تراثية اجتماعية تجعله يعتقد بصحتهما اعتقاداً جازماً. ولهذا نجد عقل الإنسان متحيزاً نحو التراثية التي نشأ فيها، وهو يبحث عما يؤيدها وعما ينقض التراثية المخالفة لها.

معنى هذا أن الإنسان لا تهمه مصلحته الخاصة وحدها، بل تهمه مصلحة الجماعة التي ينتمي إليها. إن تنازع البقاء في الإنسان يختلف عن تنازع البقاء في

الحيوان. فالحيوان له صفة واحدة هي أنه فرد يريد أن يعيش، بينما الإنسان له صفتان إذ هو فرد بالإضافة إلى كونه عضواً في مجتمع. فهو من جهة يتعصب لنفسه تجاه خصومه في داخل مجتمعه، وهو من الجهة الأخرى يتعصب لمجتمعه تجاه المجتمعات الأخرى.

العقل والتراثية:

ذكرت في حلقة سابقة أن الإنسان إذ ينشأ في تراثية اجتماعية معينة يخضع لنوع من التنويم نسميه (التنويم الاجتماعي)، فهو ينظر في الأمور من خلال المفاهيم والمعتقدات والقيم التي نشأ عليها، وكلما كان المجتمع الذي يعيش فيه أكثر انغلاقاً وانعزالاً كان التنويم الاجتماعي أقوى فيه تأثيراً.

إن تعصب الإنسان للمجتمع الذي ينشأ فيه ناشئ عن هذا التنويم الاجتماعي. فالإنسان المتعصب يتصور أنه متعصب للحق وحده، وهو لا يدري أنه واقع تحت تأثير التنويم الاجتماعي.

حين نقرأ المؤلفات التي تدور حول الجدل الطائفي في الإسلام أو في غيره من الأديان الأخرى نرى فيها صورة واضحة لهذا التعصب اللاشعوري.

إني أملك في مكتبتي عدداً وفيراً من المؤلفات الطائفية، وإني أعتبرها مختبراً للدراسة الاجتماعية في طبيعة العقل. ويحلو لي في بعض الأحيان أن أستخرج مجموعة من تلك الكتب وأطالع فيها. ولا أكتم عن القارئ أني حين أقرأ في مثل هذه المؤلفات أشعر كأني أتفرج على مسرحية أو فيلم سينمائي.

إن كل مؤلف في هذه المؤلفات يحاول أن يأتي بأكبر عدد من الأدلة العقلية والنقلية لكي يبرهن بها على صحة معتقداته الطائفية كما يبرهن على فساد معتقدات الخصوم. وأنا واثق أنه لو كان قد نشأ في طائفة أخرى لكانت أدلته في الاتجاه المعاكس.

يجب أن لا ننسى أن التعصب اللاشعوري لا ينحصر في مجال

المعتقدات الطائفية فقط بل هو يشمل كذلك المجالات التراثية الأخرى. فالرجل الذي ينشأ في مجتمع يلتزم بعادة غسل العار مثلاً يسرع إلى قتل أخته أو بنته أو أمه بمجرد أن يسمع عنها ما يشين سمعته. ولا لوم عليه في ذلك إذ هو كالنائم مغناطيسياً يفعل ما يراد منه أن يفعل وليس ما يريد هو أن يفعل.

إن هذه هي طبيعة العقل البشري. أو هي بالأحرى طبيعة الإنسان في كل زمان ومكان. ونحن حين نتعجب منها يجب أن نعلم أننا جميعاً خاضعون لها من حيث لا ندري.





حول التناشز الاجتماعي[1]

إن مصطلح (التناشز الاجتماعي) ورد في بعض مؤلفات الدكتور علي الوردي ومقالاته، كما أن الوردي تطرق إلى هذا المصطلح في كلمته التي ألقاها في اتحاد المؤرخين العرب في مساء ١٧/ ٥/ ١٩٧٩.

وقد لفت هذا المصطلح أنظار بعض القراء الذين لا يعرفون عنه شيئاً، وهم يطلبون بعض الشرح له. وقد اتصل محرر هذه الصفحة بالدكتور الوردي وأجرى معه حديثاً حول هذا الموضوع ننشر فحواه فيما يلي:

س: ما معنى التناشز الاجتماعي؟ هل أن هذا المصطلح من إبداعك أم أنك اقتبسته من أحد العلماء الأجانب؟

ج: إني اقتبست هذا المصطلح من العالم الاجتماعي المعروف أوغبرن، وليس ليس من فضل فيه سوى ترجمته إلى اللغة العربية. فهو في أصله الإنكليزي يعبر عنه بـ (Cultural lag) وقد اختلف الكتاب العرب في ترجمته، ولكني وجدت أن تعبير (التناشز الاجتماعي) أكثر دقة من غيره وإني سوف أبقى أستعمله إلى أن تظهر ترجمة أخرى أفضل منه. والذي أرجوه من المجمع العلمي العراقي أن يبدي رأيه في ذلك إذ هو المسؤول بالدرجة الأولى عن ترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية.

---

(١) العدد (١٢٩) ٣ تموز ١٩٨٩.

وعلى كل حال فإن التناشز الاجتماعي ظاهرة اجتماعية تظهر في كل مجتمع يمر بمرحلة تغير. فإن بعض الجوانب من المجتمع تتغير بسرعة بينما الجوانب الأخرى تتغير ببطء. وهذا الفرق في سرعة التغير يؤدي إلى مشاكل مختلفة يعاني منها المجتمع قليلاً أو كثيراً.

إننا حين نطبق هذه النظرية على المجتمع العراقي نجد أنه مر بمرحلة تغير كبرى عقب الحرب العالمية الأولى. ففي هذه المرحلة جاءت الحضارة إلى العراق بزخم شديد وهي تحمل معها مخترعات ونظماً ومبادئ وقيماً لم يكن العراقيون يعرفون عنها من قبل إلا قليلاً. وقد أدى ذلك إلى ظهور تناشزات متنوعة في هذا المجتمع.

إني عاصرت هذا التغير الكبير في المجتمع العراقي وعانيت منه شخصياً. وقد كتبت ذات مرة في إحدى الصحف مقالاً بعنوان (من على ظهور الحمير إلى الجمبو) حيث ذكرت فيه كيف أني في طفولتي سافرت من بلدة إلى أخرى على ظهور الحمير ثم أتيح لي مؤخراً أن أركب طائرة (جمبو) الضخمة.

والواقع أن هذه التي مرت بي كانت من أعجب الفترات في تاريخ العراق إذ انتقل العراق فيها خلال مدة قصيرة لا تزيد عن السبعين سنة من وضع القرون الوسطى إلى وضع العصر الحديث. ففي تلك الفترة تغير العراقيون في كثير من مظاهر حياتهم الحضارية إلى الدرجة القصوى. بينما هم في قيمهم ومعتقداتهم وعاداتهم الاجتماعية لم يتغيروا بمثل تلك الدرجة. وهنا منبع المشكلة.

تحدثت في كلمتي التي ألقيتها في اتحاد المؤرخين العرب عن بعض معالم التناشز الاجتماعي في العراق كما تحدثت بالإضافة إلى ذلك عن موضوعين آخرين من مواضيع التغير الاجتماعي الكبير الذي حصل في العراق عقب الحرب العالمية الأولى هما: الانفتاح الطبقي والصراع بين المحافظين والمجددين.

ليس هنا مجال الحديث عن هذه المواضيع الثلاثة، وسوف يجد القارئ

شيئاً من الشرح عنها في عدد قادم من مجلة (المؤرخ العربي) التي تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، وهي مجلة ذات قيمة علمية لا يستهان بها وإني أحرّض القارئ على قراءتها.

س: إنك تقول إن التناشز الاجتماعي لا يظهر إلا في المجتمع الذي يمر بمرحلة تغير، ولكننا قرأنا في كتابك الذي صدر في عام ١٩٦٥ وهو (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) إن المجتمع العراقي كان في العهد العثماني يعاني الشيء الكثير من التناشز الاجتماعي، هذا مع العلم أن المجتمع العراقي كان في ذلك العهد راكداً ليس فيه تغير. فكيف نوفق بين قولك الأول وقولك الأخير؟!

ج: يجب أن لا ننسى أن المجتمع العراقي في العهد العثماني وإن كان راكداً منعزلاً غير أنه كان من بعض النواحي يعاني شيئاً من التغير. وهو بذلك يختلف عن غيره من المجتمعات الراكدة المنعزلة.

كان المجتمع العراقي في ذلك العهد مفتوحاً تجاه القبائل البدوية القادمة من الصحراء المجاورة. فقد كانت تلك القبائل تنتهز ضعف السلطة الحكومية القائمة في العراق فتتسلل إليه لتنتفع من كثرة المراعي والمياه فيه. وهي كانت في بداية مجيئها تبقى بدوية مترحلة، ثم تبدأ باحتراف الزراعة والاستقرار في الأرض تدريجياً بمرور الزمن. وعند هذا يظهر التناشز الاجتماعي فيها قليلاً أو كثيراً.

من الجدير بالذكر أن القيم البدوية السائدة في الصحراء تلائم حياة البداوة والترحل غير أنها لا تلائم حياة الزراعة والاستقرار. ومشكلة القبائل البدوية أنها بعد احترافها الزراعة في العراق تظل محافظة على قيمها البدوية القديمة بالرغم من تغير ظروفها. وهذا هو سبب ظهور التناشز الاجتماعي فيها.

إن هذا موضوع متشعب. ولتوضيحه أشرح جانباً واحداً منه هو فيما يخص عادة (غسل العار) المعروفة في العراق.

إن عادة غسل العار موجودة لدى البدو منذ قديم الزمن إذ هم اعتادوا أن يقتلوا المرأة عند الاشتباه بسلوكها أو عند انتشار إشاعة سيئة عنها. ولكن هذه العادة لا يلجأ إليها البدو في الصحراء إلا في حالات استثنائية نادرة، ولأن ظروف الحياة البدوية تساعد المرأة على المحافظة على عفتها وحسن سلوكها. فالرجل البدوي عفيف في الغالب وهو لا يحاول إغراء المرأة أو التحرش بها إلا نادراً. والمرأة البدوية من الجهة الأخرى تعيش بدون أبناء قبيلتها وهي قلما تحتك بغيرهم.

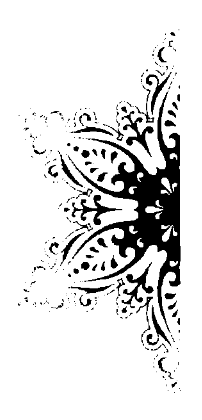
إن مشكلة المرأة البدوية لا تبدو بالظهور إلا عندما ينتقل البدو إلى الريف ويحترفون الزراعة. فالمرأة عندئذ سوف يستغلها الرجل في بعض أعمال الزراعة، كما يستغلها في بيع المنتجات الريفية في أسواق البلدة المجاورة. وهي بهذا تتعرض للإغراء والتحرش هنا وهناك من قبل الغرباء وأبناء البلدة.

من الظواهر الاجتماعية التي كانت كثيرة الانتشار في البلدات العراقية في العهد العثماني، وما زالت بقاياها موجودة حتى اليوم، هي تخصيص مواضع معينة في أسواق كل بلدة للنساء الريفيات يبعن فيها بعض المنتجات الريفية كاللبن والزبدة والبيض والدجاج والشوك. فهؤلاء النساء يأتين بهذه المنتجات إلى الأسواق منذ الصباح الباكر لكي يعرضنها على المشترين، ثم يعدن إلى بيوتهن في الريف بعد الانتهاء من البيع ليقدمن إلى رجالهن ما كسبن من حصيلة ذلك اليوم.

معنى هذا أن المرأة الريفية أصبحت ذات حرفة تدر الرزق. وهي في ذلك تختلف عن المرأة البدوية التي كانت لا تعرف من دنياها غير أعمال البيت والعناية بالأطفال، وبعبارة أخرى: إن المرأة الريفية أصبحت عرضة للانزلاق بمعدل أكبر جداً من تعرض المرأة البدوية له. ولكن سيف غسل العار واقف لها بالمرصاد فالرجل يسرع إلى قتلها حالماً يسمع شيئاً سيئاً عنها غير مكترث لما حدث من تغير كبير في ظروفها.

لقد سرت عدوى غسل العار من الريف إلى بعض المحلات الحضرية في العراق. وأصبح المجتمع العراقي في العهد العثماني أكثر مجتمعات العالم من حيث انتشار عادة غسل العار فيه. ولا يسع المجال هنا للتفصيل في ذلك وسوف نتحدث عنه في فرصة أخرى.





حول عادة غسل العار[1]

تحدث الدكتور علي الوردي في الحلقة الماضية من هذه الصفحة حول عادة غسل العار التي كانت واسعة الانتشار في المجتمع العراقي واعتبرها من مظاهر التناشز الاجتماعي في العراق. . والآن يواصل الوردي حديثه في هذا الموضوع لما له من أهمية اجتماعية غير قليلة.

يقول الوردي:

كان المجتمع العراقي في العهد العثماني من أكثر مجتمعات العالم إن لم يكن أكثرها، من حيث انتشار عادة غسل العار فيه. وليس في هذا ذم أو مدح للمجتمع العراقي فكل مجتمع في العالم هو نتاج الظروف التي عاش فيها عبر تاريخه القريب والبعيد.

إن الفترة (المظلمة) التي حلت بالعراق عقب سقوط الدولة العباسية والتي استغرقت نحو ستة قرون، أدت إلى انحطاط الحضارة فيه وإلى انتشار القيم العشائرية وبذا سيطرت العصبية القبلية على الناس فيه كما سيطرت قيم الثأر والدخالة والنخوة والضيافة والغزو وغسل العار وتقدير الغلبة والشطارة وما أشبه.

---

(١) د. علي الوردي العدد (١٣٠) ١٠ تموز ١٩٨٩.

إني أدركت بقية من العهد العثماني، وكنت في طفولتي وصباي أسمع الناس يتحدثون عنه، كما شهدت نماذج من الشخصيات التي كانت تنال تقدير الناس والتي كانت القيم القديمة تتمثل فيها. والواقع أن تلك القيم ما زالت بقاياها موجودة في بعض أنحاء العالم ولا سيما في الأرياف منه وفي المحلات الحضرية التي هي من أصل ريفي.

تفسير اجتماعي:

إن عادة غسل العار هي من جملة القيم العشائرية التي كانت سائدة في العراق في العهد العثماني ـ كما أشرت إليه آنفاً، وإني أتذكر عدداً غير قليل من حوادث غسل العار كنت قد سمعت عنها أو شاهدتها. ولعل من المناسب هنا أن أتحدث عن البعض منها لما فيها من دروس اجتماعية.

أعرف فتاة أخطأت وهربت من أهلها خشية القتل. وصار أهلها يبحثون عنها مدة طويلة وشاءت الصدفة أن يراها أخوها وهي تمشي في أحد أسواق بغداد، فأهوى عليها بالخنجر يطعنها به وهو يصرخ قائلاً: (مو حقي؟!) وكان المشاهدون من أصحاب الدكاكين وغيرهم يتجاوبون معه صارخين: (حقك! حقك!).

إن هذه الحادثة التي حدثت قبل نصف قرن تقريباً تشبه حادثة جرت في شارع الرشيد قبل أشهر معدودة. وخلاصتها أن فتاة تزوجت رجلاً غريباً من غير إذن أهلها وهربت معه. وصار أبوها يبحث عنها حتى وجدها أخيراً تمشي في شارع الرشيد، وانهال عليها بالخنجر يطعنها به، وهي تستغيث به صارخة أنها تزوجت على سنة الله ورسوله، ولكن الأب لم يلق بالاً لسنة الله ورسوله، بل كان كل اهتمامه منصباً على سمعته بين الناس والعار الذي لحقه منها. وهو مضطر إذن أن يغسل العار بالدم سواء أراد ذلك أم لم يرد.

أرجو أن يعلم القارئ أن هذا الرجل الذي قتل ابنته لم يفعل ذلك بإرادته

واختياره، بل هو مسير تحت تأثير القيم والتقاليد التي نشأ عليها في مجتمعه والتي ظلت تحيط به وتؤثر فيه. ولو كنا في مثل ظروفه لصرنا مثله.

اعتاد الناس في بعض مناطق العراق أن ينظروا إلى الرجل الذي لا يغسل عاره نظرة احتقار شديد فهم لا يردون له التحية إذا جالسهم في المضيف أو المقهى.. قد يديرون وجوههم عنه استنكافاً، ويعتبرونه (مخنثاً) وليس (ابن أجاويد) وهو يجد نفسه مضطراً إلى القيام بما يمليه عليه مجتمعه على كل حال.

إن الأنا محور الشخصية البشرية كما ذكرته في حلقة سابقة من هذه الصفحة. فالإنسان ليس كالحر وإن يطلب القوت فقط بل هو يطلب رفع الأنا أيضاً، وهو في سعي دائب طيلة حياته نحو نيل المكانة العليا والسمعة الحسنة في مجتمعه. إن الإنسان الذي لا يبالي بمكانته وسمعته هو غير سوي. أو هو شاذ في طبيعته البشرية.

قرأت في إحدى الصحف في الثلاثينيات أن رجلاً في قرية قريبة من بغداد قتل أخته لأنها (اتصلت) بزوجها قبل ليلة زفافها له. فهذه الفتاة المقتولة كانت مسلمة وهي لم تفعل شيئاً يحرمه الشرع الإسلامي لأن الرجل الذي اتصلت به كان زوجها بحكم الشرع. ولكنها من الجهة الأخرى قد اقترفت عملاً يشوه سمعتها وسمعة أسرتها، أي إنها قامت بفعل يعتبر عاراً في نظر المجتمع ويجب غسله.

مشكلة الكثيرين من الناس أنهم يسيرون في حياتهم على المبدأ البدوي القائل: (النار ولا العار) فهم يفضلون دخول النار في الآخرة على نيل العار في الدنيا.. فالواحد منهم قد نراه يتحذلق بالوعظيات والخطابيات الدينية، وينصح غيره بها، ولكنه في سلوكه العملي يسير حسبما تملي عليه القيم الاجتماعية التي نشأ عليها وهو ينسى أنها تخالف الوعظيات التي اعتاد على التحذلق بها.

من معالم الظلم الاجتماعي:

تبيّن الآن علمياً أن غشاء البكارة في الفتاة العذراء يختلف من فتاة إلى أخرى وهناك من الفتيات من يكون غشاء البكارة فيهن مطاطاً جداً أو رقيقاً جداً خالياً من الأوعية الدموية وهذا يؤدي إلى وقوعهن في الكارثة عند الزواج.

حدثني أحد الأطباء المختصين بالطب العدلي أن التشريح الذي أجراه على بعض جثث الفتيات المقتولات بسبب غسل العار دل على أنهن بريئات من كل فعل شائن، ولكن غشاء البكارة فيهن كان من النوع المطاط أو الرقيق الذي لا يسيل منه الدم في ليلة الزفاف، وقد أدى ذلك إلى قتلهن ظلماً.

ولا ينحصر الظلم الاجتماعي في شأن غشاء البكارة وحده بل هو يشمل أسباباً أخرى فإن بعض الفتيات البريئات قتلن بسبب كلمة عابرة أو إشارة غير مقصودة وجهت إلى رجل من أقربائهن فاندفع هو إلى غسل العار بلا رؤية.

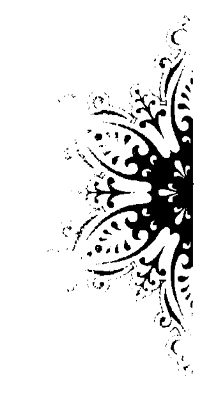
تروى في هذا الصدد قصة جديرة بالذكر هنا، فحواها: أن رجلاً ريفياً من أبناء العشائر المعروفة كان جالساً في مضيف. وكانت على عقاله قشة، فقال أحد الحاضرين ينبهه إلى وجود القشة على عقاله. ولكن الرجل ظن أن في هذا التنبيه إشارة إلى وجود امرأة سيئة السلوك في بيته، فأسرع إلى بيته وقتل إحدى نسائه. وتقول القصة إن الرجل عندما عاد إلى المضيف نبهه شخص آخر بوجود القشة على عقاله. فأسرع إلى بيته ليقتل امرأة أخرى من نسائه..

يرجح في ظني أن هذه القصة لا تخلو من مبالغة ومن عادة الناس أنهم يبالغون في رواية القصص من هذا النوع.. ولكنها بالرغم من وجود المبالغة فيها ذات مغزى اجتماعي إذ هي تدل على تسرع الرجل الريفي في قتل إحدى قريباته بمجرد أن يسمع عنها شيئاً يدعو إلى الريبة في سلوكها. والواقع أن كثيراً من البريئات وقعن ضحايا من جراء هذه العادة.

صرخة نداء:

إن عادة غسل العار ليست هي العادة الوحيدة التي ورثناها من الماضي فهناك عادات سيئة أخرى كثيرة ما زالت تعشعش في ثنايا مجتمعنا.. وقد أصبح من الواجب على كتابنا ومؤلفينا أن يهبوا لمكافحتها بمقدار جهدهم.

لا ننكر أن العادات السيئة الموروثة فينا هي في تقلص مستمر بمرور الزمن فإن التطور الحضاري الذي يشهده مجتمعنا لا بدّ أن يقضي عليها عاجلاً أو آجلاً.. ولكن الذي أريد لفت النظر إليه هو أننا يجب أن لا نعتمد على التطور الحضاري وحده لمعالجة عاداتنا الموروثة، بل يجب علينا في الوقت نفسه أن نعمل من جانبنا لمساعدة هذا التطور بالدراسة العلمية والتوجيه الرصين وسوف أعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى بعون الله!

التناشز الاجتماعي[1]
والمرأة الحديثة في العراق

في الحلقتين الماضيتين من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي عن التناشز الاجتماعي في العراق في العهد العثماني وذكر نموذجاً عنه في عادة غسل العار. والآن يتحدث الدكتور الوردي عن التناشز الاجتماعي في العراق بعد زوال العهد العثماني ومبلغ معاناة المرأة منه.

يقول الوردي:

إن المرأة بوجه عام تعاني من التناشز الاجتماعي أكثر مما يعاني الرجل، وذلك لأن القيم الاجتماعية التي تحيط بالمرأة هي أكثر تشدداً وصرامة من القيم المحيطة بالرجل.

إن المرأة العراقية أخذ وضعها الاجتماعي بتغير تدريجياً منذ بداية تشكيل الدولة العراقية عقب الحرب العالمية الأولى. فهي بدأت تدخل المدارس وتتعلم، واتخذت السفور الحديث، ودخلت مجال الوظيفة والعمل خارج البيت. والمشكلة في هذا التغير الكبير أنه لم يصحبه تغيير مثله في القيم والتقاليد التي تخص المرأة.

---

(١) د. علي الوردي العدد (١٣١) ١٩ تموز ١٩٨٩.

إن المرأة العراقية بعد أن تعلمت وخرجت من البيت صارت تطمح أن تكون كالمرأة الغربية في تحررها وفي اختيار زوجها وفي اتخاذ المهنة التي ترغب فيها. ولكن القيم الاجتماعية المتزمتة التي كانت سائدة في الماضي لم تختف دفعة واحدة وما زال الكثيرون من الناس يتمسكون بها فماذا تفعل المرأة إزاء ذلك؟!

يمكن القول إن المرأة العراقية الحديثة تقف بين تيارين متعارضين: فتيار الحضارة الحديثة يدفع بها نحو الأمام. بينما تيار القيم القديمة يجرها إلى الخلف. وما أكثر الضحايا من النسوة اللواتي وقعن من جراء الصراع بين هذين التيارين.

منذ عهد قريب تحدث إليَّ رجل محافظ وقلت له: ماذا تفعل لو رأيت ابنتك في مسبح عام وهي تلبس المائي (أي المايو) وتنزل إلى الماء مع الرجال؟ فأجابني غاضباً: (أقتلها!) فقلت له: إن أختك الآن سافرة في دائرتها تعامل المراجعين كالرجل، ولو كنا قد ذكرنا ذلك لأبيك المرحوم قبل أربعين سنة لأجابنا مثل جوابك (لقتلتها!). فسكت الرجل واجماً لا يدري ما يقول.

إن التيار الحضاري الحديث تيار ساحق لا مفر منه والذين يقاومونه اليوم يرضخون له غداً.

إني أتذكر الآن ما جرى من جدل عنيف في عام ١٩٢٤ بين دعاة السفور والحجاب في العراق. فكان دعاة الحجاب يعتبرون السفور مروقاً عن الدين وفساداً في الأخلاق وعمالة للاستعمار وما أشبه ذلك. ثم مرت الأيام فوجدنا بنات دعاة الحجاب سافرات وقد دخلن الكليات المختلطة وصرن موظفات، ولم يستطع الآباء أن يقولوا لهن شيئاً.

من طبيعة التغير الاجتماعي أنه لا يحدث على وتيرة واحدة في جميع نواحي المجتمع. ففي بعض نواحي المجتمع يكون التغير سريعاً كالملابس والمساكن والمهن ووسائل التعليم والثقافة، بينما يكون التغير بطيئاً في النواحي

الأخرى كالعادات والمعتقدات والتقاليد والقيم. وهذا يؤدي إلى التناشز الاجتماعي.

ولا حاجة إلى القول إن هذا التناشز لا ينحصر في مجتمعنا وحده، بل هو يشمل جميع مجتمعات العالم. وكلما كان التغير في المجتمع أسرع كان التناشز فيه أشد. وتلك سنة الله في خلقه في كل زمان ومكان.

التناشز في الزواج:

كان الزواج في الماضي يقوم على أساس (الخطبة)، وهو في الحضارة الحديثة يقوم على أساس (الحب). وقد أصبحت الفتاة العراقية الآن في مشكلة ذات حدين. فهي بعد أن تعلمت تطمح أن تختار زوجها على أساس الحب. بينما يريد أهلها أن يزوجوها على طريقة الخطبة.

كانت المرأة في الماضي لا يجوز لها أن تبدي رأيها بصراحة في اختيار زوجها. فكان أهلها هم الذين يفاوضون في أمر زواجها ويساومون على مقدار مهرها، وليس لها إلا أن تقول: (نعم) عند عقد النكاح. وإذا امتنعت عن النطق بهذه الكلمة أحاطت بها التهم ونالت العقاب الشديد من ولي أمرها.

مما أتذكره من فترة العشرينيات أن فتاة امتنعت عن النطق بكلمة (نعم) في أثناء عقد النكاح، فانهال عليها أبوها بالضرب المبرح على مسمع من الحاضرين وصرخ فيها متهماً إياها بأنها (عاشقة) ولا حاجة بنا إلى القول إن تهمة (العشق) كانت أبشع تهمة توجه إلى الفتاة في تلك الأيام. وهي على النقيض، مما اعتاد عليه الناس في الغرب إذ إن الحب هو الأساس الذي يقوم عليه الزواج هناك ـ كما أشرنا إليه آنفاً.

اتضح الآن علمياً أن الحب لا يصلح وحده لأن يكون أساساً للزواج الناجح، فإن له عيوبه كمثل ما كان للخطبة عيوبها، ولكن المرأة الحديثة في العراق لا تعرف ذلك. بل هي تحاول تقليد المرأة الغربية في الزواج القائم على

الحب، وتنفر من زواج الخطبة. وسوف يأتي عليها يوم قريب أو بعيد تدرك فيه أن زواج الحب هو نفسه لا يخلو من عيوب خاصة به.

ومن الجدير بالذكر أن تناشز الزواج لا ينحصر في المرأة العراقية وحدها، بل هو يشمل الرجل العراقي أيضاً ولكن على نمط آخر.

إن الشاب العراقي الآن هو كالشابة العراقية يرغب في اختيار زوجته على أساس الحب، ولكنه في أعماق نفسه يحتقر الفتاة التي تستجيب لغرامياته ولا يرغب في أن يجعلها زوجة له وأمًّا لأولاده. فتراه يتحرش بالفتيات ويحاول تبادل الغرام مع إحداهن. غير أنه لا يكاد يجدها قد استجابت له حتى يشعر بأنها امرأة غير (شريفة) وأنها لا تستحق أن تكون زوجة له (على سنّة الله ورسوله). إن التناشز الاجتماعي كامن في أعماق هذا الشاب، فهو يقلد الشاب الغربي بأفانين الغرام، ولكنه في الزواج يريد تقليد أبيه وأعمامه وأخواله.

إنه في غرامياته (دون جوان) وفي زواجه (حاج عليوي)!

التحرش بالنساء:

إن ظاهرة التحرش بالنساء أصبحت واسعة الانتشار في مجتمعنا، ولها صلة بموضوع التناشز الاجتماعي.

الملاحظ أن ظاهرة التحرش بالنساء لا وجود لها أو هي قليلة جداً في المجتمعات المتقدمة التي اعتادت على الاختلاط بين الجنسين وهي لا توجد عادة إلا في المجتمع الذي يسوده الحجاب الشديد والفصل بين الجنسين. إني عشت في بعض البلاد الغربية زمناً غير قصير فلم أر فيها شباناً يتحرشون بالفتيات كما هو الحال في بلادنا. فالشاب هناك لا يجد حاجة للتحرش بالفتيات لأنه يعيش معهن منذ صباه الباكر، فيخالطهن في المدرسة ويرافقهن في السفرات ويتعاطى الغرام معهن علناً دون أن يقول له أحد (لماذا؟!) أو يوبخه على ما يفعل.

إن التحرش بالفتيات في الواقع هو وسيلة للتنفيس عن الجوع الجنسي الذي يشعر به الرجل في المجتمع الحجابي.

قد يسأل هنا سائل: إذا كان التحرش لا يوجد في المجتمع الحجابي كما تقول فكيف تفسر ازدياد ظاهرة التحرش في مجتمعنا الآن مع العلم أن المرأة فيه قد أزاحت الحجاب عنها وصارت كالمرأة الغربية تغنجاً وتبرجاً؟!

للجواب على كل هذا السؤال يجب أن نعيد ذكر ما ذكرناه سابقاً من حيث التناشز الاجتماعي الذي تعاني منه المرأة العراقية في المرحلة الراهنة. فهي قد خرجت من البيت وتبرجت ولكن العادات والقيم الاجتماعية القديمة ما زالت باقية في أعماق الكثيرين من الناس حولها. وبعبارة أخرى إن الحجاب قد اختفى ظاهراً غير أنه ما زال كامناً في أعماق الناس.

كلمة لا بدّ منها:

قبل بضعة أشهر عقدت مديرية الشرطة العامة ندوة علمية للمناقشة حول موضوع التحرش بالنساء. وقد حضر هذه الندوة المسؤولون في وزارة الداخلية وكان السيد الوزير في مقدمتهم. وقد سرني أن أكون أحد الحاضرين فيها، وقد انتفعت منها كثيراً.

إن عقد هذه الندوة وأمثالها عمل جدير بالتقدير والتشجيع، وهو يدل على أننا نسير في معالجة مشاكلنا الاجتماعية في ضوء الدراسة العلمية بدلاً من أسلوب الوعظيات والخطابيات التي لا نهاية لها ولا جدوى فيها!




حول مشاكل الزواج[1]

في الحلقة الماضية تحدث الدكتور علي الوردي عن المرأة العراقية في وضعها الحاضر وما تعانيه من تناشز في أمر زواجها، وتطرق الوردي إلى زواج الحب الحديث بالمقارنة بزواج الخطبة القديم وقال: إن كلاً منهما له مساوئه الخاصة به.

الموضوع له أهمية كبيرة في المرحلة الراهنة التي نمر بها حيث نعاني من الصراع بين القديم والحديث في كثير من شؤوننا الاجتماعية، والسؤال الذي يواجهنا في هذا الشأن هو: إذا كان زواج الخطبة القديم له عيوبه كما أن زواج الحب الحديث له عيوبه أيضاً. فما هي الطريقة المثلى التي يمكن للجيل الجديد أن يأخذ بها لكي ينجح في زواجه. وقد كتب الدكتور الوردي جواباً لهذا السؤال ننشره فيما يلي:

يقول الوردي:

لعل من المناسب في هذا الصدد أن أقصّ لك قصة فتاة أميركية كنت أعرفها معرفة شخصية في أثناء دراستي في أمريكا في الأربعينيات. فقد كنت أسكن حينذاك مع عائلة أمريكية وكانت لهذه العائلة فتاة في مقتبل الشباب،

---

(١) د. علي الوردي ٢٧ ـ العدد (١٣٢) ٢٤ تموز ١٩٨٩.

وهي كغيرها من الفتيات الأمريكيات تتعاطى الغرام علناً مع أصدقاء لها، إنها كانت بين كل حين وآخر تأتي إلى البيت مع صديق لها، فتختلي به في الحديقة تحت جنح الظلام ليلاً، أو في زوايا البيت نهاراً. وكان ذلك مثار دهشتي لأني لم أعهد مثله في مجتمعاتنا الشرقية، وأبديت دهشتي لأم الفتاة. فكان جواب الأم أن الفتاة يجب أن تتعاطى الغرام مع أصدقاء عديدين من أجل أن تختار الزوج الأجدر والأصلح منهم.

وبعد فترة غير قصيرة من الزمن استقر رأي الفتاة على اختيار واحد من أصدقائها لكي يكون زوجاً لها. وقد استشارتني الأم في هذا القرار الذي اتخذته ابنتها. وكنت أعرف الشاب الذي اختارته الفتاة، وكان جوابي للأم أن هذا الشاب لا يصلح زوجاً لابنتها لأنه ذو مزاج انطوائي بينما هي ذات مزاج انبساطي. فهي تحب معاشرة الناس وكثرة الاختلاط بهم بينما هو يحب الاعتزال عن الناس والانفراد بنفسه. وهذا التفاوت بين المزاجين يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التنافر بينهما وإلى إخفاق الزواج أخيراً في أرجح الاحتمال.

يبدو أن الأم أدركت صواب ما قلته لها. وذكرت ذلك لابنتها. وصار موضع مداولة بين الفتاة وخطيبها. فقالت الفتاة إن خطيبها تعهد لها بأن يغير مزاجه من الانطوائية إلى الانبساطية، ثم قالت الفتاة أيضاً إن خطيبها إذا لم يقدر على تغيير مزاجه كما تعهد به فهي نفسها سوف تغير مزاجها.

كان رأيي أن الفتاة وخطيبها غير قادرين على تغيير مزاجهما، وهما حين تعهدا بتغيير مزاجهما كانا تحت تأثير الغرام المسيطر عليهما، وعندما تخمد فورة الغرام بعد شهر العسل عادة سوف يحل النفور محل الوئام بينهما.

لقد حصل الزواج بينهما أخيراً ولكنه سرعان ما انفصم عقده، وجاءتني الأم تندب حظها وحظ ابنتها وتلوم نفسها لعدم إصغائها لنصيحتي.

يجب أن أعترف أن النصيحة التي كنت قد قدمتها للأم لم تكن من بنات أفكاري، بل هي كانت خلاصة المحاضرات التي كنت أحضرها في الجامعة

في موضوع العائلة. فإن الباحثين الذين درسوا موضوع العائلة في المجتمع الأمريكي توصلوا إلى نفس النتيجة التي ذكرتها أنا للأم. وهي أن الحب وحده لا يصلح أن يكون الأساس الذي يقوم عليه الزواج. فإن الحب هو كما ورد وصفه في أحد الأمثال العربية القديمة(يعمي ويصم).

دلت الإحصاءات التي أجراها الباحثون الاجتماعيون في موضوع الزواج أن نصف الزيجات في الولايات المتحدة الأمريكية تتفكك خلال الخمس السنوات الأولى من الزواج. وهذا التفكك يعزوه الباحثون إلى ما يسمونه (أخدوعة الغرام) (Romantic Fallacy). فإن الغرام الذي يسيطر على الشاب والشابة يجعلهما يتسرعان في عقد الزواج قبل أن يفهم كل منهما الآخر أو ينسجم معه نفسياً. وعندما تخمد فورة الغرام بعدئذ يتضح لهما أنهما كانا واهمين.

دلت الإحصاءات أيضاً أنه كلما طالت فترة المعاشرة بين الشاب والشابة قبل زواجهما كان احتمال النجاح فيه أكبر. فإن طول المعاشرة بينهما يؤدي عادة إلى اكتشاف كل منهما جوانب الضعف في الآخر قبل أن يرتبطا برباط الزواج. ولا حاجة بنا إلى القول إن اكتشاف جوانب الضعف قبل الزواج هو أفضل جداً من اكتشافها بعده.

ألّف واحد من الباحثين الاجتماعيين كتاباً بعنوان (زواج التجربة) قدم فيه اقتراحاً لحل مشكلة الزواج في أميركا فحواه أن عقد الزواج يجب أن لا يكون دائمياً بل يجب أن يكون مؤقتاً لمدة سنة، ويشترط فيه خلال هذه السنة أن لا يحصل فيه إنجاب الأطفال.

إن هذا الباحث نظر إلى ما يفعله الشبان الأمريكيون من تسرع في عقد الزواج تحت تأثير فورة الغرام، وكان رأيه أن جعل الزواج مؤقتاً لمدة سنة يتيح للزوجين بأن يضعا نفسيهما تحت التجربة خلال تلك السنة. فإذا وجدا أنهما

منسجمان نفسياً وجنسياً جاز لهما تحويل عقد الزواج المؤقت إلى عقد دائم، وإلا فإن في مقدورها فسخ الزواج.

الزواج الحاسوبي:

المظنون أن زواج الحب سيختفي كمثل ما اختفى قبله زواج الخطبة، وأن نوعاً ثالثاً من الزواج سيكون هو السائد في المستقبل القريب أو البعيد وهو الزواج الذي يقوم على أساس الحاسوب أي الكمبيوتر.

أصبح للحاسوب في بعض البلاد المتقدمة دور مهم في اختيار رفيق الزواج. فقد أنشئت هناك نواد خاصة بالزواج الحاسوبي. فالعضو في هذه النوادي يسجل في حاسوب النادي جميع الصفات التي يطلبها في شريك حياته المقبلة، وكذلك يسجل فيه جميع صفاته هو على أن يكون التسجيل صادقاً لا غش فيه. وهناك أطباء ومحللون يراقبون عملية التسجيل ويدققون في فحصه. وليس من المجدي لطالب الزواج أن يكذب في وصف نفسه. بل إن ذلك قد يضره في المستقبل ضرراً بليغاً لأنه يؤدي إلى إخفاق الزواج في النهاية.

إن حاسوب النادي يسجل آلاف الطلبات من الرجال والنساء معاً. وهو يستطيع بعد إتمام التسجيل أن يعين أي رجل يصلح لأية مرأة. وحين يعرف كل منهما اسم الآخر وعنوانه يبدأ التعارف بينهما والمعاشرة. ولا بأس عند ذلك أن يقوم الغرام بينهما فإن الغرام في مثل هذه الحالة لا ضرر منه بل هو قد يزيد قوة رابطة الزواج التي سوف تنعقد بينهما.

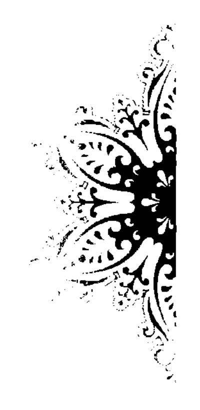
إن الزواج الحاسوبي أفضل من زواج الخطبة ومن زواج الحب. ففي زواج الخطبة يتزوج الإنسان دون أن يعرف شريكة حياته مسبقاً، أو يراها، وهو إذن يخضع في زواجه للحظ والنصيب. أما زواج الحب فإن فورة الغرام كثيراً ما تؤدي إلى التسرع في الزواج ثم يتبين للزوجين بعدئذ أنهما غير منسجمين نفسياً أو جنسياً ــ على نحو ما ذكرناه آنفاً.

أما الزواج الحاسوبي فهو يقوم على أساس أن يتعرف كل منهما إلى صفات الآخر ومدى إمكانية الانسجام بينهما.

لا ننكر أن الزواج الحاسوبي قد يكون له عيوبه الخاصة به. فليس في هذه الدنيا شيء كامل لا نقص فيه. ولكن المتوقع أن يكون الزواج الحاسوبي أقل عيوباً من زواج الخطبة وزواج الحب. ومن يدري فربما ظهر في المستقبل نوع رابع من الزواج هو أفضل من الزواج الحاسوبي.

من المؤسف أني أعيش في أواخر أيامي، وليس في مقدوري أن أحظى بهذا الزواج أو ذاك. وعسى أن يحظى به أحفادي أو أحفاد أحفادي ـ قل إن شاء الله.





حول التعليم العالي في العراق[1]

في أواخر شهر حزيران الماضي عقدت وزارة التعليم العالي ندوة لدراسة مشاكل التعليم العالي في العراق حضرها عدد كبير من الأساتذة، وكانت المناقشات التي جرت فيها تتصف بالصراحة والشمول. وقد طلبت هذه الصفحة من الدكتور علي الوردي لإبداء وجهة نظره في هذا الموضوع باعتباره أكبر الأساتذة سناً وله خبرة طويلة في الحياة الجامعية والتعليم العالي. وقد لبى الوردي طلبنا مشكوراً وكتب لنا ما يلي:

يقول الوردي:

يؤسفني كل الأسف أني لم أشارك في هذه الندوة فلم أعرف ما جرى فيها من المناقشات التي سمعت عنها أنها كانت ذات قيمة عملية لا يستهان بها.

أضف إلى ذلك أني أحلت على التقاعد من مهنة التدريس الجامعي منذ عشرين سنة تقريباً، ولهذا فإني لا أعرف الشيء الكافي عن المشاكل التي يعاني التعليم العالي منها في الوقت الحاضر. ولكني مع ذلك أستطيع أن أبدي رأياً في هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية وهي الناحية التي تدخل في مجال اختصاصي.

---

(١) العدد (١٣٣) ٣١ تموز ١٩٨٩.

إن التعليم العالي هو جزء أو امتداد للتعليم الحديث في العراق، ويجب أن لا ننسى أن التعليم الحديث بوجه عام هو حديث النشأة في العراق. إذ هو بدأ في الربع الأخير من القرن الماضي، وهو قد مر منذ بدايته حتى الآن بمراحل ثلاث كما سنأتي إليه، وكان في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث وثيق الصلة بالظروف الاجتماعية المحيطة به. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نفهم مشاكل التعليم العالي في وضعه الحالي ما لم نفهم المراحل التي مر بها التعليم الحديث والمشاكل التي عاناها في كل مرحلة منها.

إن المراحل التي مر بها التعليم الحديث في العراق هي كما يلي:

١ ـ مرحلة العهد العثماني.

٢ ـ مرحلة العهد الملكي.

٣ ـ المرحلة الحالية.

وسوف أحاول في هذه الحلقة وبعض الحلقات التالية دراسة هذه المراحل الثلاث في ضوء الظروف الاجتماعية التي أحاطت بها.

التعليم في العهد العثماني:

بدأ التعليم الحديث في العراق في عهد الوالي المشهور مدحت باشا الذي حكم العراق بين عامي ١٨٦٩ و١٨٧١.

فقد كان هذا الوالي نشطاً يحب التجديد والتمدين، وقد أنجز في خلال فترة حكمه القصيرة من الأعمال الحضارية ما لم ينجزه بضعه ولاة في عدة سنين. فهو بالإضافة إلى تأسيسه أول مدرسة حديثة في العراق أسس أول مطبعة وأول جريدة وأول دائرة للتسجيل العقاري وأول حديقة عامة وأول سكة لعربات الترامواي..

أخذ الولاة بعد مدحت باشا يحاولون الاقتداء به في التجديد والتمدين، ولكنهم لم يكونوا يملكون النشاط والدأب والنزاهة التي كان يملكها مدحت

باشا. فلم يفتح حتى نهاية العهد العثماني من المدارس الحديثة سوى عدد محدود، وكانت تلك المدارس محصورة في المدن الكبيرة كبغداد والموصل والبصرة، وكانت محتكرة في الغالب لأبناء الموظفين الذين يطلق عليهم اسم (الأفندية) أي السادة.

كان المقصود من فتح المدارس في ذلك العهد تخريج موظفين لدوائر الدولة. ولم يكن في مقدور عوام الناس وفقرائهم أن يدخلوا أبناءهم فيها، كما لم يكونوا هم يطمحون أن يكون أبناؤهم في يوم من الأيام (أفندية) من الطبقة الحاكمة.

كان الأفندية في تلك الأيام يمثلون الطبقة العالية في المجتمع، وكانوا يتعالون على الناس فلا يخالطوهم أو يجالسونهم في المقاهي، بل كانت لهم نواد ومجالس خاصة بهم. ولم يكن يخالطهم من الناس إلا (أهل الجبب) ونعني بهم الوجهاء في كل بلدة إذ هم كانوا يقومون بدور الوسطاء بين الأفندية وعامة الناس.

التعليم في العهد الملكي:

ظل الحال على هذا المنوال إلى حين تأسيس الحكومة العراقية واختيار فيصل الأول ملكاً عليها في عام ١٩٢١. فقد سارت هذه الحكومة في معاملة الشعب سيرة تختلف عن سيرة الولاة العثمانيين من بعض الوجوه. فهي أخذت تفتح المدارس على نطاق واسع مما كان له أثره في تغيير المجتمع والنظام الطبقي فيه.

لم تكتف الحكومة العراقية بفتح المدارس على نطاق واسع، بل صارت بالإضافة إلى ذلك تشجع الناس ولا سيما العوام والفقراء منهم على إدخال أبنائهم فيها. وهي قد نجحت في ذلك نجاحاً غير قليل ولكن كانت هناك ثلاثة عوامل تقف عقبة في طريق نجاحها وهي كما يلي:

١ ـ كان بعض المتزمتين من رجال الدين ينظرون إلى المدارس الحديثة نظرة استنكار أو تحريم، فقد كانت في نظرهم تعلم تلاميذها أفكاراً من قبيل أن الأرض كروية أو أن المطر من البخار. فهم كانوا يعتبرون هذه الأفكار تضعف العقيدة الدينية في النفوس وتؤدي إلى التشكيك بقدرة الله. والواقع أن هذه النظرة تجاه المدارس بدأت منذ أيام مدحت باشا، غير أنها استفحلت في أيام فيصل الأول.

٢ ـ كان العوام يعتقدون أن المدارس الحديثة تعلم تلاميذها الفساد كما تعلمهم الكفر. وكان الشائع بينهم منذ العهد العثماني أن المدرسة ـ أو (المكتب) كما كانوا يسمونها ـ ينتشر الفساد فيها ومن هنا جاء المثل الذي كان متداولاً بينهم: (ذب الكتب من إيدك شغل المكتب ما يفيدك).

٣ ـ لم يكن في ميسور الفقراء إدخال أبنائهم في المدارس. فهم كانوا يريدون من أبنائهم أن يساعدوهم في كسب الرزق منذ طفولتهم، ولم يكن في مقدورهم أن ينفقوا عليهم من أجل التعلم في المدرسة في الوقت الذي كانوا فيه بحاجة إلى رغيف الخبز.

كان الفقر المدقع سائداً على الكثير من الناس في تلك الأيام وكان (الخبز) أهم ما يشغل أذهانهم فيها. وكنت أقرأ في الصحف في بعض الأحيان آنذاك أن الحكومة فتحت مدرسة في إحدى المدن ثم أغلقتها لقلة الإقبال عليها.

ظل الإقبال على المدارس قليلاً حتى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن. فقد بدأ الناس حينذاك يغيرون نظرتهم التقليدية نحو المدارس. وكان لهذا التغيير سببان هما:

١ ـ أن التلاميذ الذين كانوا قد دخلوا المدارس سابقاً ثم تخرجوا منها صاروا موظفين أو معلمين لهم مكانتهم الاجتماعية العالية ومرتباتهم

المضمونة. وقد ندم الآباء الذين منعوا أبناءهم من دخول المدارس على ما فعلوه معهم فهم رأوا أبناءهم مغمورين محرومين بالمقارنة إلى أقرانهم المحظوظين. وقد أنتج ذلك رد فعل بين الناس ضد النظرة التقليدية تجاه المدارس.

٢ ـ حلت الأزمة الاقتصادية العالمية في عام ١٩٢٩ وفي الأعوام التالية له. وكان العراق من جملة الأقطار التي أصابها الضرر منها. فشحت الأرزاق فيه وكثر العاطلون، وقد لحق بالموظفين ضيق في تلك الأزمة ولكن نصيبهم منها كان أقل من نصيب غيرهم، فهم قد خفضت مرتباتهم بنسبة صغيرة كما فصل عدد قليل منهم حسب قانون صدر في ذلك الحين سمي (قانون الذيل).

ولكن الأكثرية منهم ظلوا محافظين على مستوى معاشهم العالي وكانوا بذلك موضع حسد من الآخرين.

يمكن القول على كل حال إن الثلاثينيات من هذا القرن شهدت بداية تهافت كبير على المدارس، وصار هذا التهافت يتصاعد عاماً بعد عام.

التعليم في المرحلة الراهنة:

كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في عام ١٩٢٠ نحو ثمانية آلاف، ثم أصبح في الستينيات نحو مليون، وهو اليوم قد يزيد على الثلاثة ملايين.

من طبيعة الدنيا أنها لا يمكن أن يكون فيها خير محض أو شر محض. فإن هذا التهافت الهائل على المدارس هو من معالم تطورنا الحضاري الحديث، ولكنه من الجهة الأخرى يؤدي إلى ظهور مشاكل اجتماعية ونفسية يصعب حلها.

إن هذه الملايين من التلاميذ الذين نشهدهم اليوم لا حدّ لطموحهم فالذي تخرج من المدرسة الابتدائية يريد الدخول إلى الثانوية، والذي تخرج من

الثانوية يريد الدخول إلى الجامعة، والذي يتخرج من الجامعة يريد الحصول على شهادة الماجستير والدكتوراه، والذي يحصل على هذه الشهادة يريد أن يكون العالم العلامة الذي لا يشق له غبار والذي يتحدث الناس عنه في كل مكان.

كل واحد من هؤلاء يحسب نفسه أفضل من غيره وأجدر منه بـ (الترقي) وهو إذا وجد مانعاً يمنعه في أية مرحلة من مراحل هذا الترقي رفع عبقريته بشتم هذا وذاك، وملأ الدنيا صراخاً، واحتجاجاً!

في السنة الماضية كان عدد المقبولين في الجامعات والمعاهد العالية نحو خمسين ألفاً. وهذا العدد كبير جداً بالنسبة إلى عدد سكان العراق. ولكنه مع ذلك كان سبب تذمر واسع النطاق بين المقبولين وغير المقبولين.

فالكثير من المقبولين لم يرضوا بنصيبهم من الكليات والمعاهد التي نسبوا إليها. وهم يصبون جام غضبهم على الحاسوب ـ أي الكمبيوتر ـ الذي قرر مصيرهم أو على الذين ملؤوا الحاسوب بالمعلومات. أما غير المقبولين فإن تذمرهم وصراخهم لا بدّ أن يكون من طراز آخر.

أقف عند هذا الحد في شرح هذا الموضوع على أن أواصل الشرح له في حلقة قادمة.




حول الانفتاح الطبقي في العراق[1]

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي بإيجاز عن المراحل الثلاث التي مر بها التعليم الحديث في العراق. وهو اليوم يواصل الحديث في هذا الموضوع ليشرح بعض النقاط منه.

يقول الوردي:

إننا اليوم نسير في طريق الحضارة الحديثة بخطى سريعة، وهذا لا بدّ أن يؤدي إلى ظهور مشاكل مستعصية تجب معالجتها، فكل شيء في هذه الدنيا له ثمنه. أو كما قال الشاعر العربي القديم، (ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل).

إن التعليم الحديث كان له أثره المهم جداً في تطوير المجتمع العراقي وفي تطوير الفرد من حيث تفكيره، وسلوكه، ولعلني لا أغالي إذا قلت: إن التعليم الحديث كان له الدور الأكبر من حيث تحريك المجتمع نحو الحضارة الحديثة.

حيث نقارن بما كان الطفل ينشأ عليه في العهد العثماني قبل سبعين سنة وصار ينشأ عليه بعدئذ تحت تأثير التعليم الحديث نجد فرقاً كبيراً جداً، أو بالأحرى نجد تبدلاً جذرياً.

---

(١) العدد (١٣٤) ٧ آب ١٩٨٩.

كان الطفل في العهد العثماني ينشأ على المبدأ القائل: (ما يصيبك إلا نصيبك) و(اللي انكتب على الجبين لازم تشوفه العين) و(كل شيء قسمة ونصيب) و(القناعة كنز لا يفنى) وما أشبه. ولكن هذا المبدأ انقلب إلى ضده بعدئذ، حيث صار على النحو التالي: (كل من جد وجد) و(كل من سار على الدرب وصل) و(كل من جال نال) و(من طلب العلا سهر الليالي) وما أشبه.

من الجدير بالذكر أن كلاً من هذين المبدأين له محاسنه ومساوئه، فمبدأ القناعة والرضا بالنصيب يمنح الإنسان الطمأنينة النفسية وراحة البال، ولكنه من الجهة الأخرى يؤدي إلى ركود المجتمع وضعف التطور فيه، أما المبدأ المعاكس له، أي مبدأ (من جد وجد)، فهو يؤدي إلى تحريك المجتمع وتطويره، ولكنه من الجهة الأخرى يجعل الإنسان شديد الطموح والتكالب والقلق لا يطمئن إلى شيء ولا يرضيه حال.

كان الفرد العراقي في العهد العثماني يتعلم مهنة أبيه في الغالب، ولا يطمح أن يكون أرفع من مستوى أبيه. وإذا شاء القدر أن يرتفع الفرد أكثر مما ينبغي له صار الناس يذكرونه بماضيه الوضيع، وهو يحاول من جانبه أن يتنكر لهذا الماضي أو يتستر عليه. وهذا على النقيض مما اعتاد الناس عليه في هذه الأيام إذ أصبح الفرد منهم يفتخر بأنه صنع نفسه بنفسه وأنه كان في بداية أمره فقيراً أو وضيعاً.

يمكن القول بوجه عام إن النظام الطبقي كان في العهد العثماني مغلقاً أو شبه مغلق، ولكنه انفتح على مصراعيه بعد تأسيس الحكومة العراقية وفتح المدارس على نطاق واسع ـ على نحو ما ذكرناه في الحلقة الماضية من هذه الصفحة.

أصبح ابن البقال أو العطار أو الحائك أو الحمال يطمح أن يدخل

المدرسة ليكون بعد تخرجه منها موظفاً في الحكومة، أي (أفندياً) مرموقاً يشار إليه بالبنان. وهنا ظهرت مشكلة لم يكن للناس عهد بها من قبل. وأخذت هذه المشكلة تنمو وتستفحل بمرور الأيام.

من طبيعة الإنسان بوجه عام أنه إذا انفتح النظام الطبقي أمامه حسب المبدأ القائل (كل من جد وجد) فإن طموحه وتهالكه على المكانه العالية لا يقفان عند حد، فهو كلما نال مكانة طمح إلى مكانة أعلى منها.

وهو يظل كذلك راكضاً لاهثاً بلا توقف حتى يدركه الموت فيستريح ويريح.

تبين الآن علمياً أن مبدأ (من جد وجد) لا يصح إلا ضمن حدود ضيقة، فالإنسان في الواقع لا يستطيع أن يصل إلى ما يطمح إليه عن طريق الجد والمثابرة وقوة الإرادة وحدها، ولا بدّ أن تساعده على مطمحة مواهبه الطبيعية من جهة وظروفه النفسية والاجتماعية من الجهة الأخرى. أما إذا كانت مواهبه أو ظروفه غير مساعدة له في ذلك فإن الجد لا ينفعه إلا قليلاً، أو هو يضره من بعض النواحي.

إن هذه الحقيقة العلمية لا يفهمها الكثيرون من الناس أو هم لا يريدون أن يفهموها، وقد لاحظنا ذلك بوضوح عندما بدأ الناس يدخلون أبناءهم في المدارس على نطاق واسع في الثلاثينيات من أبنائهم أن ينجحوا جميعاً في دراستهم. فإذا أخفق البعض منهم فيها صار موضع تعنيف وتوبيخ من أبيه وأمه، وانقلب البيت عليه إلى جحيم لا يطاق.

إن البشر يتفاوتون في درجة الذكاء فيهم كما يتفاوتون في جميع مواهبهم أو صفاتهم الأخرى. ففيهم المتفوق في ذكائه. وفيهم الوسط فيه، وفيهم الغبي والمتخلف وهم جميعاً لا إرادة لهم في ذلك، بل هم مخلوقون. وهم إذا

دخلوا المدارس في طفولتهم فلا بدّ أن يكون فيهم المتفوق في دراسته والفاشل فيها قليلاً أو كثيراً.

إني أتذكر تلك الأيام قبل نصف قرن عندما اشتد التهافت على المدارس. فكانت كل أم في المحلة أو القرية تريد من ابنها أن ينجح في المدرسة كما نجح ابن فلانة وفلانة وهي تواصل لومه وتوبيخه في كل صباح ومساء قائلة له: (لماذا نجح ابن فلانة ولم تنجح أنت؟ وهل هو أحسن منك؟ وهل تنقصك عين أو خشم؟).

وهو من جانبه قد يلوم نفسه على نحو ما تفعل أمه معه، وهو يكافح لكي ينجح في المدرسة كما نجح ابن فلانة دون جدوى.

أعرف شاباً أصيب بالجنون من جراء توبيخ أمه له في كل صباح ومساء، فهو لم يكن يملك درجة كافية من الذكاء للنجاح في المدرسة كغيره من أبناء المحلة. وكان يبذل جهده بلا فائدة.

وقد كان من الأصلح له أن يتوجه منذ طفولته نحو المهنة التي تلائمه، ولكنه كان مصراً على أن يكون (أفندياً) كما تريد أمه، وكانت عاقبته أن صار مجنوناً!

إن هذا الذي كان يجرب قبل نصف قرن ظل مستمراً حتى يومنا هذا، ولكن نطاقه قد اتسع وتبدل الطموح فيه من شكل إلى آخر.

كان طموح الجيل الناشئ قبل نصف قرن يقتصر في الغالب على نيل الوظيفة الحكومية والترقي فيها. أما الآن فقد أصبح الطموح متجهاً نحو الدراسة العالية ونيل شهادة الماجستير والدكتوراه..

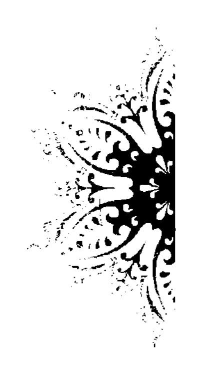
كانت الحكومة في الماضي تلقى عنتاً من جراء الطلب المتكاثر على الوظائف فيها. فهي كانت تواجه في كل سنة وجبة جديدة من المتخرجين الذين

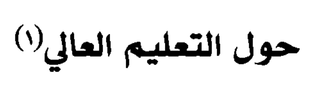
يطلبون الوظائف المناسبة لهم. وإذا عجزت الحكومة عن توفير الوظائف لهم أطلقوا ألسنتهم صارخين ناقدين..

إن المشكلة التي كانت تواجهها الحكومة في الماضي أصبحت وزارة التعليم العالي تواجهها الآن على نطاق أوسع وتركيز أشد. فهي تواجه في كل سنة عشرات الألوف من الطلاب يرومون الدخول في الكليات التي يطمحون إليها، وليس في الإمكان تلبية طلباتهم جميعاً، فإن هي أرضت فئة منهم سخط عليها آخرون.

إن هذه المشكلة لا نجد شبيهاً لها في البلاد المتقدمة. فإن الطلب على التعليم العالي هناك محدود جداً. ولا ترغب فيه سوى نسبة صغيرة جداً من المواطنين. ومن الممكن القول إن هذا الوضع سوف نصل إليه في المستقبل القريب أو البعيد. وهذا هو ما سوف أتحدث عنه في الحلقة القادمة من هذه الصفحة إن شاء الله.







حول التعليم العالي[١]

يواصل الدكتور علي الوردي في هذه الحلقة حديثه عن مشاكل التعليم العالي في العراق. وإن هذه الصفحة تعلن ترحيبها بأية مناقشة أو نقد يمكن توجيهها في هذا الموضوع لما له من أهمية كبيرة في المرحلة الاجتماعية الراهنة التي نعيش فيها.

يقول الوردي:

إن الدكتور مجيد خدوري قال في حديث له نشرته جريدة (القادسية) في ٩/ ٧/ ١٩٨٩ إن العراق جنة من ناحية التعليم العالي مقارنة ببلدان العالم الأخرى. ففي الولايات المتحدة مثلاً يدفع الطالب أجوراً سنوية لدراسته الجامعية ما بين ١٢ و١٥ ألف دولار، وهذا بالإضافة إلى أجور المعيشة والسكن.

إن ما قاله الدكتور خدوري صحيح، فالتعليم العالي في العراق مجاني. وهذا أمر ليس له مثيل في أكثر البلاد المتقدمة أو النامية. ولكن المشكلة فيه أنه فتح الباب على مصراعيه لكل من يريد إتمام دراسته العالية ومن هنا بدأ التنافس والتهالك وانتشار التذمر والشكاوى التي لا حد لها.

---

(١) العدد (١٣٥) ١٤ آب ١٩٨٩.

إن الذين يدخلون الجامعات في البلاد المتقدمة يؤلفون نسبة صغيرة جداً من السكان. وهم فريقان، فريق قادر على توفير الأجور الباهظة التي تطلبها الجامعات من طلابها، وفريق تقبله الجامعات بلا أجور لتفوقه في دراسته الثانوية ولقدرته المتميزة على مواصلة الدراسة في الجامعة. وهذا هو الذي جعل حملة الدكتوراه في البلاد المتقدمة قليلين جداً بالنسبة إلى مجموع السكان فيها. وهذا يختلف عما نلاحظه في بلادنا إذ إن نسبة حملة الدكتوراه عندنا تفوق نسبتها في البلاد المتقدمة، وهي في تصاعد عاماً بعد عام.

يمكن أن نعزو السبب في ذلك إلى أن البلاد المتقدمة فيها مجالات كثيرة يستطيع المتعلمون النجاح فيها بالإضافة إلى مجال التعليم العالي. فهناك مجالات المصانع والشركات والمصارف والوكالات والتقنيات المختلفة. وهي كلها قادرة على توفير الفرص التي ينال الفرد المتعلم بها المكانة العالية التي يطمح إليها. أما في بلادنا فإن مجال الطموح للمتعلمين يكاد ينحصر في التعليم العالي وحده. وهنا منبع المشكلة!

لا ننكر أن بلادنا اليوم قد ظهرت فيها مهن وحرف كثيرة تدر الربح الوفير. ولكن المشكلة فيها أن المتعلمين ما زالوا ينظرون إلى تلك الحرف بنفس نظرة التعالي التي اعتادوا عليها في الماضي. فالواحد منهم يفضل الدخل القليل الذي يأتيه من وظيفة ثقافية مرموقة على الدخل الكثير الذي يأتيه من حرف السمكرة أو النجار أو الحدادة أو ما أشبه.

إن نظرة الناس إلى هذه الحرف سوف تتغير في المستقبل طبعاً تبعاً لتقدم المسيرة الحضارية عندنا، ولكنها الآن ما زالت على وضعها القديم لم تتغير إلا قليلاً.

مقارنة بين جيلين:

لعل من المناسب هنا أن أتحدث إلى القارئ عما جرى لنا نحن الذين كنا

شباناً في الثلاثينيات من هذا القرن من حيث نظرتنا إلى الوظيفة الحكومية والحرف.

إني أتذكر تلك الفترة عندما اشتد التهافت على المدارس وعلى الوظائف الحكومية. فقد ارتأت وزارة المعارف ـ أي وزارة التربية كما نسميها الآن ـ أن توجه تلاميذ المدارس نحو احتراف المهن الحرة بدلاً من طلب الوظائف. وصار المعلمون بناء على إيعاز الوزارة إليهم يكررون في دروسهم نصائح وعظية تدعو التلاميذ إلى تقدير الحرفة وإلى احتقار الوظيفة فقد كانت الوزارة تظن أنها بهذه الطريقة تستطيع أن توجه رغبة التلاميذ من مجال في الحياة إلى آخر. إنها لم تكن تدري أن التوجيه الوعظي في مثل هذه الحالة قد يضرّ أكثر مما ينفع.

لقد كنت أنا أحد التلاميذ الذين كانوا يتلقون من المعلمين تلك النصائح الوعظية. وكنا في أعماق أنفسنا نستهزئ مما يقولون، ونقول عنهم إنهم إذا كانوا صادقين في كلامهم فلماذا لم يتركوا وظائفهم ويحترفوا المهن الحرة التي يمدحونها؟!

كانت الوظيفة في تلك الأيام تدر دخلاً على صاحبها أكثر مما تدره الحرف بمختلف أنواعها، وهذا بالإضافة إلى ما كانت الوظيفة تسبغ على صاحبها من مكانة اجتماعية عالية. ومعنى هذا أن أية نصيحة تدعو إلى احتقار الوظيفة لا بدّ أن تكون عبثية جوفاء في نظر من يستمع إليها.

حين نقارن ذلك الوضع الذي كان سائداً قبل نصف قرن بالوضع الذي نحن فيه نجد فرقاً غير قليل. فقد أصبحت الحرف والمهن الحرة الآن تدر دخلاً هو أضعاف ما تدره الشهادة العالية أو الوظيفة الحكومية. أضف إلى ذلك أن الوظيفة لم تبق لها تلك المكانة العالية التي كانت لها في الماضي.

إن هذا الوضع الجديد قد يفتح لنا باباً للأمل في تطوير النظام الاجتماعي والثقافي الذي نحن فيه.

إننا مقبلون على عهد تكون فيه الحرف غير محصورة في نطاق الأميين والجهلة على نحو ما هو عليه الحال الآن، بل سيدخل فيها المتعلمون. وهذا في الواقع من أهم معالم الحضارة الحديثة التي نسير اليوم في طريقها.

إننا نعاني الآن من الحرفيين مساوئ لا حصر لها. ولست أعني بهذا كل الحرفيين بل الأكثرية منهم. فهم علاوة على فرضهم الأسعار العجيبة على الناس يميلون إلى غشهم والضحك على ذقونهم حسب مبدأ (الشطارة) الذي اعتادوا عليه. وقد آن الأوان لكي نمنع هؤلاء من احتكارهم للحرف وأن نفتح المجال للمتعلمين لكي ينافسوهم فيها.

إن لدينا الآن معاهد غير قليلة للتدريب على الحرف الميكانيكية والسمكري وغيرها. ولكن مشكلة هذه المعاهد أن الطلاب لا يرغبون فيها لأنها لا تمنحهم المكانة الغالية التي يطمحون إليها. وفي رأيي أن في الإمكان جعلهم يرغبون فيها إذا وفرنا للمتخرجين منها مستقبلاً مضموناً يستطيعون به أن يحصلوا على المكانة العالية والدخل الوفير معاً.

إننا يجب أن لا نكتفي بتوسيع المعاهد الحرفية الحالية ورفع مستواها بل يجب أيضاً أن نحيط المتخرجين منها بالرعاية التي تجعلهم من أولي المكانة العالي في المجتمع وأعني بذلك أن المتخرجين من تلك المعاهد يجب أن يحصلوا عند تخرجهم على الأماكن والمعدات اللازمة لممارسة عملهم. وبذا سينشأ لدينا حرفيون متعلمون أقل نهباً للناس من الحرفيين الجهلة الذين اعتادوا عليهم.

إن الحرفيين الذين يسيطرون على السوق الآن قد تربوا على الحرف منذ طفولتهم، ونشؤوا على القيم السائدة في بيئتهم المحلية. وهذا هو الذي جعلهم يسلكون في معاملة الزبون مسلك (الشطارة) والغلبة باعتباره المسلك السائد في بيئتهم.

إن الذي نحتاج إليه الآن هو تربية جيل جديد من الحرفيين ينشؤون في

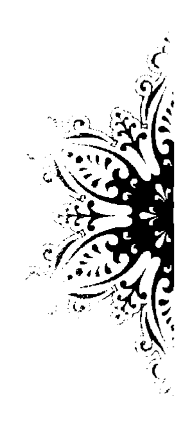
المدارس ثم يتدربون على الحرف بعد تخرجهم منها. وهؤلاء مهما كانوا فهم أفضل في المعاملة من أولئك (الشياطين). إن هناك فرقاً لا يستهان به بين من ينشأ منذ طفولته في المدارس الحديثة ومن ينشأ في بيئة جاهلة متفسخة.

الخلاصة:

خلاصة ما أردت قوله في هذا الصدد هو أن التهافت على التعليم العالي الذي نعاني منه الآن يمكن أن نكسر حدته بتوجيه الطلاب نحو الحرف وتوفير المستقبل المضمون لهم والمكانة العالية.

إني واثق بأن الكثير من الطلاب سوف يفضلون المعاهد الحرفية في طورها الجديد على الكليات التي أصبحت لا تضمن للمتخرجين منها مستقبلاً مرموقاً. والذي أرجوه من المسؤولين أن يأخذوا ذلك بعين الاعتبار ويعملوا على تحقيقه بكل الوسائل الممكنة.

إننا الآن في حاجة إلى متعلمين يعملون في مجالات الميكانيك والسمكرة والحدادة والنجارة أكثر من حاجتنا إلى متعلمين يتحدثون عن البنوية والسياب ونزار قباني. إن الحضارة الحديثة ليست حصيلة مفكرين نظريين فقط بل هي حصيلة تقنيين عمليين أيضاً.

إلى الحاسوب يا شباب[1]

في ٢٤/ ٧/ ١٩٨٩ نشرت (الاتحاد) حديثاً للدكتور علي الوردي حول مشاكل الزواج. وقد أثار هذا الحديث اهتماماً غير قليل لدى القراء. وقد وصلتنا منهم رسائل جديدة بعضها يتضمن نقداً وتجريحاً بالوردي، والبعض الآخر يتضمن تأييداً ومدحاً.

ملخص رأي الوردي في حديثه أن زواج الخطبة القديم كان كثير العيوب ولما حل محله زواج الحب في البلاد المتقدمة ظهر أنه كثير العيوب أيضاً. وقال الوردي: إن الزواج الحاسوبي الذي صار موضة العصر في بعض البلاد المتقدمة سوف يكون أقل عيوباً من زواج الخطبة ومن زواج الحب.

إن المؤيدين للوردي يطلبون منه أن يذكر لهم كيف يمكن أن نبدأ بتأسيس الزواج الحاسوبي في العراق.

فهم يرون فيه حلاً للمشاكل التي يعانيها طلاب الزواج عندنا.

وقد أحلنا هذا السؤال إلى الدكتور الوردي فكتب لنا ما يلي:

---

(١) العدد (١٣٦) ٢١ آب ١٩٨٩.

يقول الوردي:

إن الزواج الحاسوبي لا بدّ أن يأتي إلينا كمثل ما أتت إلينا الظواهر الحضارية الأخرى. ولا مناص من ذلك.

والمظنون أن بعض الشبان والشابات، ولا سيما خريجي الجامعات منهم سوف يؤسسون في يوم قريب أو بعيد نادياً مختصاً بالزواج الحاسوبي. وهذا أمر يجب أن تشجعه الدولة وترعاه لأنه يؤدي إلى قيام أسر متماسكة تخلو من التوتر والتفكك.

دلت الإحصاءات الاجتماعية على أن الكثير من المنحرفين والمهربين نشؤوا في طفولتهم في بيوت غير متماسكة. وهذا يوجب علينا أن نولي اهتماماً كبيراً لنظام الزواج والعائلة في مجتمعنا ونحاول توفير الظروف التي تجعله أكثر تماسكاً وأقل توتراً وتفككاً.

من الجدير بالذكر أن نوادي الزواج الحاسوبي على فرض تأسيسها في مجتمعنا لا يجوز أن تترك من غير إشراف أو رقابة فهي بغير ذلك قد يساء استعمالها من بعض طلاب اللذة أو طلاب المال، وربما صارت دوراً للدعارة بدلاً من الزواج الحاسوبي.

إني أقترح أن تكون هذه النوادي تحت إشراف بعض دوائر الحكومة، ولا سيما وزارة التعليم العالي أو وزارة التربية أو وزارة الشؤون الاجتماعية، وأن تتعهد الجهة المشرفة عليها بأن توفر لمنتسبيها الوسائل التي تمكنهم من بناء الدور الملائمة لهم وتجهيزها بالأثاث المناسب.

عقبات الزواج عندنا:

يجب أن لا ننسى أن طلاب الزواج عندنا لا تقتصر مشاكلهم على اختيار

الزوج أو الزوجة، بل هي تشمل مشاكل المهر وتوفير المسكن الملائم وما ينبغي له من أثاث. وهي مشاكل وصلت إلى القمة من حيث معاناة الناس لها في مجتمعنا.

إن المهور أصبحت الآن تفاخر ومباهاة بين الناس. فالفتاة ترغب في الزواج طبعاً ولا تريد أن يقف في طريق زواجها مانع من مهر أو غيره ولكن القيم الاجتماعية السائدة بين الناس تجعل أهل الفتاة يطالبون بالمهر الضخم لها، إذ هم يتساءلون مع أنفسهم:

(لماذا حصلت بنت فلان على ذلك المهر الكبير، وهل هي أفضل من بنتنا، وماذا نقول للناس إذا قبلنا بمهر لها هو أقل من مهر بنت فلان؟!)

إن هذا هو سر التصاعد الهائل الذي نراه الآن في المهور. ومن الجدير بالذكر أن العراق الآن يشهد ثورة اقتصادية كبرى وقد ظهر فيه أغنياء كثيرون قادرون على توفير المهور العالية. ولكن المشكلة ليست في هؤلاء الأغنياء بل هي في الذين لا يتمكنون من توفير هذه المهور العالية.

أما مشكلة السكن فهي أكثر استعصاءً وإعضالاً من مشكلة المهور. وتأتي بعدها مشكلة الأثاث. والواقع أن الآثاث أصبح كالمهور موضع تفاخر ومباهاة بين الناس، وكل واحد منهم يريد أن يبز غيره بفخامة الأثاث الذي يزين به بيته.

وعلى كل حال فإن هذه المشاكل التي تحف بالزواج عندنا قد نجد لها حلاً عن طريق الزواج الحاسوبي الذي نأمل انتشاره في بلادنا قريباً. إن النوادي التي تنشأ لهذا الغرض سوف تقوم على غير الأسس التي اعتاد عليها الناس في الوقت الحاضر والتي أصبحت موضع التفاخر والتباهي بينهم.

إن نوادي الزواج الحاسوبي ينبغي أن تنحصر عضويتها في بداية الأمر في نطاق الخريجين والمثقفين، وهي يجب أن تعلن للناس أنها لا تقبل في عضويتها من يطلب المهور العالية أو التباهي بالحفلات الباذخة والأثاث الفخم.

وهي كذلك يجب أن تكرس جهودها لإقامة مشاريع تعاونية لتوفير المساكن لأعضائها.

إني واثق أن هذه النوادي عند قيامها ستجد عوناً وتشجيعاً من الدولة وستمدها بالمال والتسهيلات المطلوبة. وإني أتخيل أن فورة اجتماعية كبرى سوف تظهر من جراء هذا التعاون بين الجهة المشرفة التي تساعدها الدولة ونوادي الزواج الحاسوبي.

تفسير اجتماعي:

قد يسأل سائل: لماذا تريد حصر نوادي الزواج الحاسوبي في نطاق الخريجين والمثقفين؟ ولماذا تحرم العوام وسواد الناس منها يا ترى؟

الواقع أني لم أقصد حصر هذه النوادي بالمثقفين دائماً، بل قصدت حصرها بهم في بداية الأمر فقط والسبب الذي يدعوني إلى ذلك هو أن كل موضة أو عادة جديدة لا يمكن انتشارها في المجتمع إلا إذا بدأت في أوساط الطبقة المحترمة فيه فهي عند ظهورها في تلك الطبقة تصبح موضع احترام وتقدير من أفراد الطبقات الأخرى وهم يحللون تقليدهم تدريجياً بمرور الزمن أما إذا بدأت في الطبقات الأخرى فإنها تظل منحصرة فيها ولا يمكن انتشارها في المجتمع إلا نادراً.

إن هذا ناموس اجتماعي عام نستطيع أن نرى أثره في الكثير من أحداث التاريخ وأحوال الشعوب ويمكن أن نجد مثلاً واقعياً عليه في منشأ حجاب المرأة في المجتمع الإسلامي قديماً. فالمرأة المسلمة كانت في صدر الإسلام سافرة على نمط سفور المرأة البدوية والريفية في أيامنا ولكن الحجاب بدأ فيها متأخراً عندما صار موضة اجتماعية تتميز به الطبقة العالية في المدن. وبذا أخذت الطبقات الأخرى في حجاب المرأة شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر إلى

الوضع العجيب الذي شهدناه في المدن العراقية في العهد العثماني وفي الفترة التي أعقبته.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن انتشار السفور الحديث في العراق في العقود الأخيرة فهو قد بدأ في أول الأمر بين المتعلمات من نساء الطبقة العالية، ثم صار ينتشر تدريجياً في نساء الطبقات الأخرى.

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد إن الزواج الحاسوبي إذا أريد له النجاح والانتشار في مجتمعنا فهو يجب أن يبدأ بين الخريجين والمثقفين من شبابنا في أول الأمر. وهو بذلك سوف ينتشر بين الآخرين تدريجياً.

صرخة عالية:

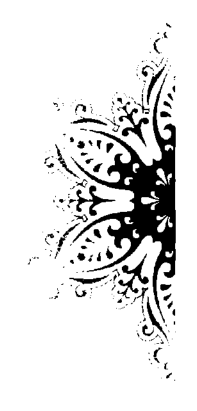
إني أريد أن أصرخ في الناس صرخة أرجو أن لا تكون كصرخة في واد أو نفخة في رماد ـ كما ورد في الأمثال القديمة.

فنحن الآن نعاني من المشاكل الاجتماعية مثلما يعانيه أي مجتمع آخر في هذه الدنيا. ومن المؤسف أن نرى صحفنا ومجلاتنا لا تولي هذه المشاكل الاهتمام الكافي بل نراها مشغولة بمشاكل الشعر والأدب، وكأن الدنيا قد خلت إلا من هذه المشاكل.

إن موضوع الزواج الحاسوبي الذي أطنبت فيه هنا ربما كان من المواضيع التي لا تجدي كثيراً أو هو من المواضيع التي لا تستحق مثل هذا الاهتمام، ولكنه مع ذلك أكثر اتصالاً بواقعنا الاجتماعي من تلك المواضيع التي أكل الدهر عليها وشرب والتي لا تجدينا نفعاً في فهم المرحلة الراهنة التي نعيش فيها.

إن مسيرتنا الحضارية محفوفة بالمشاكل من كل ناحية. وقد آن الأوان لكي نصب جهودنا الفكرية على دراستها بدلاً من دراسة البنوية والسياب ونزار قباني.





حول المجمع العلمي العراقي[1]

إن المجمع العلمي العراقي أنجز وضع عدد الألفاظ العربية لتكون بديلاً عن المصطلحات الأجنبية. وأخذت جريدة (العراق) تنشر تلك الألفاظ تباعاً. وقد اتصلنا بالدكتور علي الوردي نسأله عن رأيه في ذلك باعتباره من المعنيين بالمصطلحات وقد وضع عدداً منها كالتراثية والخارقية والتناشز. فكتب الوردي لنا ما يلي:

يقول الوردي:

إن المجمع العلمي العراقي جدير بالتقدير على الجهود التي بذلها في وضع الترجمات العربية للمصطلحات الأجنبية، وإني اطلعت على البعض منها فاستحسنت الكثير منها ولكن أوافق على القليل. وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه. فإن كل عمل بشري لا بدّ أن يعتريه النقص أو الخطأ على وجه من الوجوه. أو بعبارة أخرى: إن أي عمل بشري لا يمكن أن يرضى الناس عنه جميعاً. ـ فرضى الناس غاية لا تدرك ـ كما ورد في المثل العربي القديم.

لي بعض الملاحظات على ما نشرته جريدة (العراق) من ألفاظ المجمع، أذكرها فيما يلي عسى أن تكون ذات نفع للمجمع أو القراء:

---

(١) العدد (١٣٧) ٢٨ آب ١٩٨٩.

١ ـ وضع المجمع لفظة (قبان) بديلاً عن (كبان) ولست أدري ما الذي دفعه إلى ذلك. فاللفظتان هما لفظة واحدة ولكن العوام عندنا اعتادوا على أن ينطقوا القاف كافاً. وهذا أمر يعرفه الجميع وليس هناك داع للاهتمام به.

٢ ـ هناك ألفاظ جاء بها المجمع العلمي العراقي وهي معروفة ومتداولة وقد أوردها مجمع اللغة العربية في مصر في مجمعه، ولا داعي للاهتمام بها من جديد، كعلم النفس والإضبارة والمأساة وغيرها.

٣ ـ وضع المجمع لمصطلح الدكتوراه ثلاثة ألفاظ، وهي (الحكمة) و(العليمية) و(العالمية).

وهذا أمر يثير العجب وقد يثير الضحك أيضاً. فلو اتبعنا رأي المجمع في ذلك لكان حامل الدكتوراه يسمى (عالماً) تارة و(حليماً) تارة، و(عليماً) تارة أخرى، هذا مع العلم أن كل لفظة من هذه الألفاظ الثلاثة لا تعطي المعنى الواقعي لمصطلح الدكتوراه، وليس من السهل على الناس أن يقبلوا بها وأن تنتشر فيهم.

هناك من يقترح استعمال لفظة (الدال) و(الدالية) للدكتور والدكتوراه. ونرجو أن تنتشر هذه اللفظة، فهي على حال أفضل من (العالم) و(العليم) و(الحكيم).

٤ ـ وضع المجتمع لفظة (تحرك) لمصطلح (ديناميكية) و(مذهب) لمصطلح (إيديولوجية). وفي رأيي أن اللفظتين ينبغي أن تكونا (حركية) و(مذهبية) فإن (التحرك) له معنى في أذهان الناس يختلف عن الديناميكية، وكذلك (المذهب) إذ هو يدل على المذهب الفقهي. إن من أهم الشروط التي تجعل المصطلح مقبولاً وشائعاً بين الناس هو أن يكون واضح المعنى فلا يلتبس بمعنى آخر.

والواقع أني استغربت حين وجدت المجمع قد وضع لفظة (طفف) لترجمة (بالكون). فالذي أعرفه منذ كنت تلميذاً في الابتدائية أن (الشرفة) تعطي معنى (البالكون). ولست أدري ما هو السبب الذي جعل المجمع يفضل (الطفف) على (الشرفة).

٥ ـ الملاحظ في بعض المصطلحات التي جاء بها المجمع العلمي العراقي أنها مؤلفة من لفظتين، وقد كان الجدير بها أن تكون من لفظة واحدة، وهي: (سلم متحرك) و(قضيب حديد) و(شريط قياس) و(رواق النسيم) و(مانع الرطوبة) و(شريط المعراض) و(مجمع الفنون) و(فهرس هجائي) وغيرها. إن من السهل جداً ترجمة المصطلحات الأجنبية إلى العربية بلفظتين. وهذا أمر يقدر عليه الكثيرون، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في الإتيان بلفظة واحدة لتكون بديلاً عن المصطلح الأجنبي الذي هو بلفظه واحدة عادة. وتلك في وظيفة المجامع اللغوية في البلاد العربية ومنها المجمع العلمي العراقي.

من الجدير بالذكر في هذا الصدد أن مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عقد ندوة في مدينة (الرباط) المغربية في شهر شباط من عام ١٩٨١ لتوحيد المناهج في وضع المصطلحات العلمية الجديدة. وقد شارك في تلك الندوة عدد من الباحثين من مختلف البلاد العربية. وأقرت الندوة المبادئ الأساسية في اختيار المصطلحات العلمية، وكان من جملة تلك المبادئ تفضيل اللفظة المفردة لأنها تساعد على تسهيل الاشتقاق والنسبة والإضافة والتثنية والجمع.

إني أود أن أسأل في هذه المناسبة: هل أن المجمع العلمي العراقي شارك في تلك الندوة؟! وإذا كان قد شارك فيها فلماذا غفل عن أحد المبادئ المهمة التي قررتها الندوة؟!

إني حين أنتقد المجمع العلمي العراقي في بعض آرائه لا أعني أني أصح

رأياً منه. كل ما أقصده في هذا النقد أن يكون موضوع مناقشته لدى القراء أو المجمع نفسه. فإننا الآن في أشد الحاجة إلى وضع الألفاظ والمصطلحات التي تساعدنا في اجتياز المرحلة العسيرة التي نمر بها.

حول المجمع المصري:

إني حضرت بعض جلسات مجمع اللغة العربية في مصر، وقد أعجبني ما فيها من نقاش رصين ومستوى رفيع وقد أنجز هذا المجمع كثيراً من الأعمال القيمة كان منها إصداره (المجمع الوسيط) الذي يضم كثيراً من الألفاظ الجديدة التي شاع استعمالها. وإني إذ أقول هذا لا أقصد أن هذا المجمع المصري سلم من الوقوع في الخطأ على كل حال.

الواقع أن المجمع المصري قد تورط في أخطاء غير قليلة. وكان منها وضع لفظة (ثقافة) لتكون بديلاً عن المصطلح العلمي المعروف (Culture).

إن لفظة (الثقافة) في معناها العام المتداول بين الناس في البلاد العربية يختلف عن معنى المصطلح المطلوب. فهذا المصطلح يعني علمياً مجموعة العقائد والقيم والعادات والمألوفات التي يتميز بها مجتمع عن آخر. وهذه المجموعة موجودة في كل مجتمع من المجتمعات البشرية، البدائية والبدوية والنامية والمتقدمة. أما لفظة (ثقافة) فهي تعطي معنى العلم أو المعرفة أو النضوج الفكري أو ما أشبه. وهذا هو الذي أدى إلى وقوع كثير من الالتباس والارتباك في الكتابات العربية التي تبحث في هذا الموضوع.

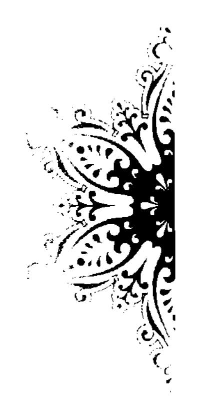
قرأت منذ عهد قريب مقالاً لكاتب معروف في مجلة عربية معروفة كان موضوعها (الثقافة) فوجدته قد التبس عليه المعنى، فهو تارة يبحث في الثقافة بمعناها العام الشائع بين الناس، وهو تارة أخرى يبحث فيها بمعناها الاصطلاحي الذي قرره المجمع المصري.

والأدهى من ذلك أن نجد بعض الكتاب لم يوافقوا على قرار المجمع

المصري وأرادوا ترجمة المصطلح إلى (حضارة). وهناك مقالات عديدة تنشرها الصحف والمجلات العربية في موضوع (الحضارة) بهذا المعنى.

وهكذا ضاع على القراء العرب هذا المصطلح العلمي ذي الأهمية الكبيرة، وقد يصدق عليهم المثل العراقي الدارج: (بين حانة ومانة ضاعت لحانا).

إني حاولت ترجمة هذا المصطلح إلى (تراثية). ففي رأيي أن هذه اللفظة قريبة في معناها من المعنى المقصود بـ (Culture)، كما يعرفه طلاب علم الاجتماع في كلياتنا. وقد أعلنت عنها في بعض المناسبات سابقاً. وطلبت من المجمع العلمي العراقي أن يبدي رأيه فيها، وما زلت أنتظر الجواب منه.

حول الحضارة الحديثة(١)

وردت في هذه الصفحة رسالة موجهة إلى الدكتور علي الوردي جاءت فيها النبذة التالية ننقلها بنصها:

(إنك أيها الدكتور العزيز تدعو في مقالاتك إلى الحضارة الحديثة وتطنب في مدحها وتقول عنها إنها محتومة علينا لا خلاص منها، ولكنك تنسى ما في هذه الحضارة من جوانب سيئة ومثالب عديدة فهل تريد منا يا دكتور أن نأخذ الحضارة على ما فيها من مساوئ كثيرة. ولماذا لا تدعونا إلى العودة إلى حضارتنا الإسلامية الرائعة ونترك هذه الخزعبلات التي يسمونها الحضارة الحديثة).

وقد أحلنا هذا السؤال إلى الدكتور علي الوردي فأجابنا مشكوراً بما يلي:

يقول الوردي:

إن هذا الذي يقول به الأخ السائل يشبه ما ورد في كتاب صدر في جدة في العام الماضي بعنوان (الشباب المسلم والحضارة الغربية) لمؤلفه الأستاذ حسن حسن سليمان. وفحوى ما جاء في الكتاب أن الحضارة الغربية تحمل تهديداً للبشرية عموماً لافتقارها للجانب الروحي، وأن فيها ما يؤدي إلى هدم

---

(١) العدد (١٣٨) ٤ أيلول ١٩٨٩.

الدين واللغة والأخلاق في شبابنا المسلم. وهذا يوجب علينا أن نعمل على إحياء الحضارة الإسلامية لإنقاذ البشرية من الضياع.

الواقع أن هذا الرأي الذي ورد في كتاب الأستاذ حسن وفي الرسالة التي وصلت في هذه الصفحة له مؤيدون كثيرون في أرجاء العالم الإسلامي. وهو رأي له قيمته ولكن المشكلة فيه أن تحقيقه صعب جداً أو هو يقرب من المستحيل في عصرنا.

إن الرأي العلمي في هذا الشأن يقول بأن الحضارة الحديثة محتومة علينا لا مفر منها. وإذا نحن قاومناها أصابنا من الضرر أكثر مما يصيبنا من النفع.

لا ننكر أن الحضارة الحديثة مليئة بالمساوئ والجوانب السلبية، فهي بطبيعتها تضعف العقيدة الدينية. وتؤدي إلى تفكك نظام الزواج والعائلة. كما تؤدي إلى انتشار الكآبة والانتحار والانحراف، بالإضافة إلى ما ينتج عنها من تلوث البيئة وتقلص طبقة الأوزون وتكاثر السكان واتساع التصحر والإشعاع النووي وغيرها. وهناك من يقول إن الحضارة الحديثة سوف تؤدي إلى فناء البشرية عاجلاً أو آجلاً.

ولكننا في الوقت الذي نعترف فيه بالجوانب السلبية من هذه الحضارة يجب أن نعترف أيضاً أننا لا نملك تجاهها أية قدرة لمنعها من المجيء إلينا. فهي آتية لا ريب فيها. شئنا أم أبينا.

إن من أهم مساوئ الحضارة هي أنها تضعف العقيدة الدينية في النفوس، وهذا ناموس بشري عام لا مقدرة على مقاومته.

يقول الإمام أحمد بن حنبل: (العقيدة تسليم ومن تمنطق فقد تزندق). وهذا القول الذي جاء به ابن حنبل قبل اثني عشر قرناً تقريباً يشبه ما يقول به علم الاجتماع الحديث.

فالحضارة بطبيعتها تحرك الذهن وتبعث على التساؤل والتشكيك في كل

الأمور. وهي لا بدّ أن تؤثر في العقيدة الراسخة في النفوس فتضعفها قليلاً أو كثيراً.

يجب أن لا ننسى أن مبدأ التساؤل والتشكيك هو الأساس الذي قام عليه العلم الحديث. والمشكلة فيه أنه يصعب حصره في المجال العلمي وحده. فإن الإنسان الذي يتخذ التشكيك مبدأً له في العلم قد يجره ذلك إلى التشكيك في الأمور الأخرى. وهذا هو ما فطن إليه ابن حنبل في القرن الثالث الهجري ـ أي في القرن التاسع الميلادي.

هناك أفراد قادرون على التوفيق في أنفسهم بين التشكيك العلمي واليقين العقائدي ولكنهم قليلون في عصرنا. وهم يقلون تدريجياً بمرور الزمن مع الأسف الشديد.

الملاحظ في عصرنا أن أبناء الجيل الجديد هم أضعف عقيدة من الذين عاشوا قبلهم ومن الممكن القول بوجه عام أن كل جيل قادم هو أضعف عقيدة من الجيل السابق له.

وهذه ظاهرة عامة لا تنحصر في مجتمعنا وحده، بل هي موجودة في جميع مجتمعات العالم التي وقعت تحت تأثير الحضارة الحديثة. وكلما كانت الحضارة أكثر تقدماً في المجتمع كانت العقيدة أضعف فيه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن النبي محمداً ﷺ قد تنبأ بهذا حين قال: (سيأتي يوم على أمتي يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر)، أو حين قال: (سيعود الدين غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي).

فائدة العقيدة:

إن العقيدة الدينية نعمة من الله على البشر، إذ هي تسبغ على الإنسان الطمأنينة والثقة والتفاؤل. فإذا هي ضعفت في الناس انتشر بينهم القلق

والتكالب والتشاؤم والانتحار. وهذا هو ما حصل فعلاً في البلاد التي بلغت درجة عالية في تقدمها الحضاري.

دلت الإحصاءات على أن معدل الانتحار بلغ في بلاد السويد أعلى مما بلغه في بلاد العالم الأخرى. هذا مع العلم أن السويد وصلت في تقدمها الحضاري إلى الدرجة القصوى. فالفرد فيها مضمون في معاشه ومسكنه وهو مجهز بالمعدات والمخترعات التي جعلت الحياة مريحة له إلى حدٍّ كبير. ولكنه في الوقت نفسه مصاب بالقلق والتشاؤم بحيث أصبحت الحياة تافهة في نظره لا جدوى فيها وليس وراءها سوى الموت الذي هو في نظره يعني الفناء.

حين أقارن حال الفرد السويدي هذا بالحال الذي كان الفرد عليه عندنا في العهد العثماني أجد فرقاً كبيراً فقد كان الفقر والحرمان شائعاً في الناس في ذلك العهد، ولكن العقيدة الراسخة كانت تعوضهم عن فقرهم وحرمانهم. وهم كانوا واثقين أن الله سيعوضهم أضعافاً في آخرتهم. فقد كانت الدنيا في نظرهم فانية والآخرة باقية.

أعرف امرأة من بقايا ذلك العهد فقدت زوجها وابنها الوحيد، ثم صارت في السنوات العشر الأخيرة من حياتها مقعدة لا تستطيع التحرك ولكن التفاؤل كان قوياً فيها، وكثيراً ما كانت تطلب من أقربائها أن يقرؤوا لها القرآن والأدعية المأثورة. وكانت مؤمنة إيماناً لا شك فيه أن الله سيرزقها الجنة بعد موتها تعويضاً لها عن الشقاء الذي عانته في حياتها.

طبيعة البشر:

إن البشر في حاجة إلى نظام يجمع بين العقيدة الراسخة والحضارة الراقية. ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل هذا أمر في مقدور البشر الحصول عليه؟! إن العلم الحديث يقول بأن هذا غير ممكن. فالطبيعة البشرية ناقصة، وليس في مقدورها أن تخلق النظام الكامل وأن تتلاءم معه بلا مروق أو خطيئة.

إن القرآن وصف الإنسان بما فيه الكفاية. وفيما يلي أذكر بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها وصف الطبيعة البشرية.

١ - ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾(١).

٢ - ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(٢).

٣ - ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾(٣).

٤ - ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾(٤).

٥ - ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٥).

٦ - ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

إن هذا الإنسان الذي رأينا وصفه في القرآن والذي اختبرناه في واقع حياتنا، هل يمكن أن يعيش في نظام يجمع كل المحاسن ويخلو من المساوئ على نحو ما تخيله الطوبائيون القدماء.

إننا يجب أن نقدر أولئك الذين يدعون إلى العودة إلى التراث القديم من حيث التمسك بالعقيدة الراسخة والطمأنينة النفسية، فهم يريدون الخير لنا، ولكن مشكلتهم أنهم يعيشون في غير زمانهم. فهم يعيشون في وسط العالم الصاخب وتحيط بهم الحضارة الحديثة من كل جانب، وهم مضطرون أن ينجرفوا بتيارها في نهاية المطاف. إن الذي يقاوم التيار لا بدّ أن يقع على الأرض وتسحقه الأقدام!!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.

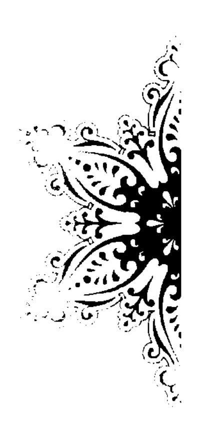
(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٠.

(٣) سورة العلق، الآية: ٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

(٥) سورة يس، الآية: ٣٠.

أرجو منهم أن لا يغضبوا من هذا الكلام، فهي الحقيقة التي يجب أن لا نغمض عيوننا عن رؤيتها. إن لهم الحق في أن يتأسفوا ويتألموا لما سوف يحل بالبشرية من مصير مظلم. ولكن ماذا يمكن للإنسان أن يصنع تجارة تيار أقوى منه؟!

حول الأسلوب الوعظي[1]

في الحلقة الماضية تحدث الدكتور علي الوردي عن الحضارة الحديثة جواباً على سؤال ورده من أحد القراء وقد وردنا من قارئ آخر سؤال آخر في موضوع الأسلوب الوعظي الذي اعتاد عليه المفكرون قديماً في إصلاح الناس أو توجيههم. فالوردي يعتبر هذا الأسلوب لا يؤثر في الناس إلا ضمن حدود معينة فإذا خرج عن تلك الحدود كان ضرره أكثر من نفعه.

إن القارئ يسأل الوردي عن تلك الحدود التي يكون الأسلوب الوعظي فيها مؤثراً. وقد أحلنا السؤال إلى الوردي، فأجابنا مشكوراً بما يلي:

يقول الوردي:

يحكى أن أعرابياً مر بمكتبة مليئة بالكتب من النمط القديم، فقال: إني أعرف كل ما في هذه الكتب فهي كلها تقول للإنسان (يا بن آدم صير خوش آدمي).

إن كلمة هذا الأعرابي على سذاجتها تصور لنا بعبارة موجزة منهج القدماء في الوعظ والتوجيه. فهم يطلبون من الإنسان أن يكون صالحاً، ولكنهم لا يحاولون البحث عن السبب الذي جعل الإنسان صالحاً.

---

(١) العدد (١٣٩) ١١ أيلول ١٩٨٩.

إن الإنسان مجبول على طبيعة معينة لا يمكنه التحول عنها مهما حاول. وقد جرى الناس على طبيعتهم هذه منذ خلقهم الله على وجه هذه الأرض. وسيظلون يجرون عليها حتى قيام الساعة التي لا ندري متى ستقوم.

إن الإنسان في سلوكه العملي لا يتأثر بالمواعظ والخطب التي تلقى عليه، بل هو يتأثر بالدرجة الأولى بالقيم الاجتماعية السائدة في محيطه المحلي.

إن للأنوية في الإنسان ـ كما ذكرته في حلقات سابقة من هذه الصفحة ـ تجعله يسعى نحو ارتفاع مكانته أو سمعته بين الناس. وهو لذلك لا يهتم بالمواعظ التي تلقى عليه ما دامت لا تنفعه في رفع مكانته أو سمعته، وهو لا يكاد يرى فيها نفعاً من هذا النوع حتى يأخذ بالانصياع لها والتأثر بها في تفكيره وسلوكه.

لنذكر على سبيل المثال طبيعة المجتمع الذي كنا نعيش فيه في العهد العثماني. فقد كان الناس حينذاك يقدرون (الشقي) الذي يهز أقرانه بقوته وشجاعته وجرأته. فكان الشقي يمشي بينهم مرفوع الرأس شامخ الأنف، وهم يشيرون إليه بالبنان ويبالغون في تحيته ومجاملته. إنه اعتاد أن يسطو على البيوت ويقطع الطريق ويفرض الإتاوة على التجار، ولكنه كان في الوقت نفسه ذا نخوة وشهامة يحمي جاره ويدافع عن محلته ضد أعدائها ببسالة لا تضاهى.

مما أتذكره في هذا الصدد أن أحد الأشقياء المعروفين كان جاراً لجدي ولهذا كان جدي وأسرته في أمن وسلامة لا حدّ لها، والويل لمن كان يجرؤ على السطو على بيت جدي. فإن جاره الشقي يعتبر ذلك عاراً عليه وثلباً من رجولته وشهامته وحسبما تقضي به القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في الناس في تلك الأيام.

إن القيم الاجتماعية كانت حينذاك توجه الفرد منذ طفولته نحو تقدير هذا النمط من السلوك. وكان الكثير من الأطفال الذين ينشؤون على مثل هذه القيم

يجعلون من (الشقي) قدوة لهم. وقد يحاول البعض منهم أن يكون في كبره شقياً إذا كان يملك المقدرة على ذلك.

يروي المرحوم عبد الكريم العلاف في كتابه (بغداد القديمة) أن شقياً مشهوراً في أواخر العهد العثماني اسمه (عباس السبع) قتل في أثناء معركة جرت بينه وبين الشرطة. وقد ربطت الشرطة جثة الشقي بذيل حصان وصار الحصان يسحب الجثة في الطرقات. إن الشرطة أرادت بعملها هذا أن تجعل مصير هذا الشقي عبرة لغيره من الناس لكي لا يقتدوا به في سلوكه غير أنه صار في الواقع على العكس مما أرادته الشرطة يقول العلاف: إن الناس صاروا يبكون على الشقي، وسارت خلف جثته جماعة منهم وهم يطلقون هوسة هي: (عباس السبع يا مطيع التجار) كما صارت النساء يلطمن حول الجثة قائلات: (يا أهل الزود اطلعوا ثارت الجيلات).

كان الناس يمدحون عباس السبع بوصفه (مطيع التجار) أي أنه كان يفرض الإتارة ـ أو ما كانوا يسمونه (الخاوة) على التجار، فتلك صفة كانت تدعو إلى الفخر في تلك الأيام. وكلما زاد عدد التجار الذين يدفعون الإتاوة للشقي ازداد ارتفاع مكانته في نظر الناس.

الفحوى:

قصدي مما ذكرته آنفاً أن أشرح للقارئ كيف أن القيم السائدة في المجتمع لها الأثر الأكبر في توجيه سلوك الناس، ومعنى هذا أن المواعظ إذا كانت تدعو الناس إلى مخالفة تلك القيم فإنها لا تؤثر فيهم شيئاً، أو هي قد تؤدي إلى ظهور ازدواج الشخصية فيهم.

كنت ذات يوم ـ منذ نصف قرن تقريباً جالساً في مقهى محلي أستمع إلى أحاديث الجالسين فيه من أهل المحلة. وكان الحديث الذي يدور بينهم حول خطبة وعظية ألقاها واعظ معروف في مسجد قريب، فهم كانوا معجبين كل

الإعجاب بتلك الخطبة وبالأسلوب البليغ الذي ألقيت به، وهي في موضوع الأخلاق الفاضلة التي جاء بها الإسلام كالحلم والتقوى والتسامح ورد السيئة بالحسنة.

وفي الوقت الذي كان فيه الجالسون يمدحون الواعظ وموعظته مر في الزقاق شقي معروف فصاروا يمدحونه أيضاً ويبدون إعجابهم ببطولته ومن جملة ما قالوا عنه وصفهم له أن (في بطنه سبع أو أدم) وكانوا يقصدون بذلك أنه قتل سبعة من أعدائه.

إن هؤلاء الناس يخضعون في سلوكهم العلمي للقيم الاجتماعية السائدة في مجتمعهم المحلي من حيث تقدير الرجل (السبع) واحتقار (المخنث) و(المكفخ) ولكن المواعظ التي تلقى عليهم تدعوهم إلى النقيض من ذلك والواقع أن هذه المواعظ لا تؤثر في سلوكهم، وإنما هي تجعلهم في أقوالهم مختلفين عنهم في أفعالهم فهم حين يتوانى من بينهم يقدرون أخلاق التقوى والعفو والرحمة التي جاء بها الدين. أما من حيث سلوكهم الواقعي فهم يقدرون الأشقياء الاعتدائيين.

إن الأسلوب الوعظي يقوم على أساس اتضح خطؤه الآن علمياً. إذ هو يخاطب الإنسان باعتباره حيواناً عاقلاً على نحو ما تصوره الفلاسفة القدامى أي أن الإنسان يمكن التأثير عليه عن طريق النصح والدليل العقلي.

يجب أن لا ننسى أن الإنسان هو أخو القرد أو ابن عمه. إنه يميز عن القرد بوجود مقدرة التفكير فيه ولكن هذه المقدرة ليست مطلقة بل هي محدودة وتكمن تحتها عوامل لا شعورية متنوعة تلعب بها ما تشاء ومن أهم تلك العوامل اللاشعورية هي الأنوية وهي التي تجعل الإنسان يسعى نحو رفع مكانته بين الناس حسب القيم الاجتماعية السائدة بينهم.

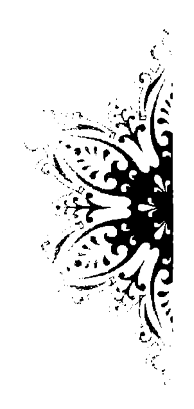
إننا لا نريد أن نؤثر في الإنسان أو نصلحه يجب أن نتسلل إلى عقله من

خلال عوامله اللاشعورية أما إذا أردنا مخاطبته بالأدلة العقلية وحدها فإننا لا بدّ أن يكون مصيرنا الفشل.

إن هذا الموضوع كنت قد تطرقت إليه مراراً في حلقات سابقة من هذه الصفحة وأجد نفسي مضطراً أن أعيد ذكره مرة أخرى وفي رأيي أن الأسلوب الوعظي هو من جملة العوامل التي تعرقل علينا فهم الحضارة الحديثة والتلاؤم معها وقد حان الوقت لكي ندرك ذلك قبل فوات الأوان.

من المؤسف أن نرى بعض كتابنا ومؤلفينا لا يزالون يتبعون الأسلوب الوعظي في كتاباتهم بالرغم من أنهم يعيشون في أواخر القرن العشرين.

إن الذي يريد تغيير أخلاق الناس يجب أن يغير قيمهم الاجتماعية بدلاً من إمطار الخطب الرنانة على رؤوسهم.

حول الظلم الاجتماعي[1]

تطرق الدكتور علي الوردي في حلقة سابقة من هذه الصفحة إلى موضوع سماه (الظلم الاجتماعي). وهو موضوع غير معروف لدى بعض القراء وقد طلبنا من الدكتور الوردي شيئاً من الشرح والتوضيح له فلبى طلبنا مشكوراً وكتب لنا ما يلي:

يقول الوردي:

إن الظلم الذي يقع بين البشر أنواع شتى كالظلم السياسي والظلم الاقتصادي والظلم الطبقي والظلم الشخصي. وقد كثر الحديث عن الظلم وأنواعه منذ زمن قديم، ولكن هناك نوعاً من الظلم غفل الناس عنه فلم يتحدثوا عنه إلا نادراً وهو الذي نسميه (الظلم الاجتماعي).

نقصد بالظلم الاجتماعي ذلك الظلم الذي ينشأ بين الناس من جراء بعض المعتقدات أو القيم أو المفاهيم السائدة فيهم والتي تجعل بعضهم يظلم بعضاً دون أن يكون للمظلومين أي ذنب يوجب ذلك، وهذا الظلم كان واسع الانتشار بين الناس في الماضي، ولكنه أخذ يتضاءل تدريجياً تحت تأثير الحضارة الحديثة.

---

(١) العدد (١٤٠) ١٨ أيلول ١٩٨٩.

من أهم معالم الظلم الاجتماعي هو المعاملة السيئة التي كان الناس يعاملون بها أصحاب العاهات ولا سيما المصابين بعاهة العمى. فقد كان العوام قديماً يعتقدون أن الله حين يبتلي شخصاً بعاهة إنما يفعل ذلك عقاباً له على ذنب قام به أو لأنه يستحق العقاب لسوء نيته أو لؤمه. وما زال الكثيرون من العوام متمسكين بهذا المفهوم الظالم حتى الآن. وحين ندرس الأمثال الدارجة بين العوام نجد بعض معالم الظلم الاجتماعي واضحة فيها، كقولهم: (إذا شفت الأعمى كبه أنت مو أشفق عليه من ربه) و(الله يعرف السلاية ويسود رأسها) إلخ...

وهناك أمثال عامية عديدة تتضمن احتقاراً لصاحب العاهة أو تشفياً به، وهي تلك الأمثال الموجهة نحو الأعرج والأعور والأقرع وغيرهم. ومن أبشعها قولهم يخاطبون الفتاة العرجاء: (عروجة بنتي كل البنات تزوجت ظليتي إنتي).

هناك قصة كنت في طفولتي أسمع الناس يتداولونها وينسبونها إلى النبي موسى. وفحواها أن موسى شاهد ذات مرة صبياناً يسبحون ويمرحون على شاطئ النهر، وكان بينهم صبي أعمى لا يستطيع أن يجاريهم في سباحتهم ومرحهم. فرقّ قلب موسى على هذا الصبي وسأل الله أن يعيد إليه بصره. وقد استجاب الله لموسى. ولكن الصبي لم يكد يرجع إليه البصر حتى صار يعتدي على رفاقه الصبيان وأغرق بعضهم. وعند هذا قال الله لموسى مرشداً له: (لا تظن أني أعميت هذا الصبي بلا سبب، فهو شرير، وفي فقد بصره حكمة. فلا تسألني بعد هذا بما لا علم لك به). فتاب موسى إلى ربه وأيقن أن الله لا يفعل شيئاً إلا لحكمة يراها فيه.

إن هذه القصة لها مغزاها الاجتماعي الكبير. فهي مثال صارخ على الظلم الاجتماعي الذي كان شائعاً بين الناس في الماضي، وما زالت بقية منه موجودة بينهم حتى الآن مع الأسف الشديد!

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن العاهات بوجه عام، والعمى بوجه

خاص، هي أكثر انتشاراً بين الفقراء منها بين الأغنياء، وذلك لانتشار الأمراض فيهم، وكثرة القذارة والذباب في بيوتهم. وسوء التغذية لديهم، وعجزهم عن مراجعة الأطباء. ولكن الناس لم يكونوا يفهمون ذلك بل كانوا يعزون سبب العاهات إلى غضب الله على أصحابها.

مفاهيم ظالمة أخرى:

لم يقتصر احتقار الناس على صاحب العاهة فقط بل شمل كذلك صاحب الوجه الدميم. وقد شاع بين الناس قديماً علم يسمى (علم الفراسة) الذي صدرت فيه عدة مؤلفات. وحين نقرأ هذه المؤلفات نرى الظلم الاجتماعي واضحاً فيها.

من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم الفراسة القديم هو أن الوجه الحسن يدل على الخلق الحسن في صاحبه كما أن الوجه الدميم يدل على الخلق السيئ فيه.

وقد تبين الآن علمياً أن هذا المفهوم مغلوط من أساسه، فليست هناك أية علاقة مباشرة بين أخلاق الإنسان وشكل وجهه، ولكن الناس حين يحتقرون الدميم ويعاملونه معاملة ظالمة قد يؤدي ذلك إلى نشوء عقد نفسية فيه، وهذه العقدة بدورها قد تؤدي إلى نشوء سوء الخلق فيه. ومعنى هذا أن الناس هم الذين يجعلون الدميم سيئ الخلق بمعاملتهم الظالمة له، غير أنهم يجهلون ذلك ويعتبرون سوء الخلق فيه طبيعة ثابتة خلقها الله فيه.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن معاملة الناس لابن الزنى، فهم يحتقرونه ويشتمونه دائماً مع العلم أنه غير مسؤول عما فعلته أمه، وهو لا يختلف في طبيعته من غيره من البشر، ولكن الناس اعتادوا أن ينسبوا إليه سوء الخلق فيضطرونه إلى أن يكون كذلك قليلاً أو كثيراً.

معاملة المستضعفين:

وهناك مجال آخر يظهر فيه الظلم الاجتماعي هو في احتقار المستضعف الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه تجاه من هو أقوى منه بدناً. وهذا الظلم كان واسع الانتشار عندنا في العهد العثماني وما زالت بقاياه موجودة فينا حتى الآن.

ففي ذلك العهد كان الناس يقدرون الشقي القوي الذي يغلب ولا ينغلب. فهم كانوا يسمونه (سبع) و(زلمة) و(رجال ليل)، وإذا مر بهم قاموا له احتراماً وردوا له التحية بأحسن منها، بينما هم كانوا يعاملون المستضعف بازدراء وإهانة ويصفونه بـ (المخنث) و(المكفخ).

إني شهدت في حياتي كثيراً من الحوادث التي يعتدي فيها رجل قوي على رجل ضعيف. فالقوي ينهال على الضعيف صفعاً وضرباً وركلاً، وعندما يسأله أحد عن سبب اعتدائه يبرر فعله بأن المعتدي عليه قد نطق بكلمة نابية أو فيها كفر أو بطر. والواقع أن سبب اعتدائه لم تكن تلك الكلمة حقاً.

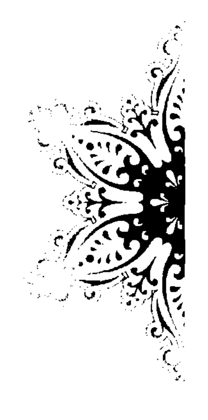
فهو يسمع مثل تلك الكلمة من أفواه الناس كثيراً فلا يرد عليهم أو هو قد يؤيدهم على ما نطقوا به إذا كانوا أقوياء أو من أولي الجاه أو المال. إنه لا يعتدي إلا على المستضعفين الذين يشعر هو بالقدرة عليهم. وهو لا يعتبر فعله اعتداء بل يعتبره دفاعاً عن الحق والحقيقة أو محافظة على القيم العالية.

أعرف حادثة من هذا النوع حدثت منذ عهد قريب، وقد رأيت المعتدي يتحدث عن اعتدائه بكل صراحة وأذكر كيف أخذ يصفع الرجل الضعيف ويرميه أرضاً ويكيل له الضربات والركلات. إنه ذكر السبب الذي دعاه إلى ذلك فكان سبباً بسيطاً جداً، ولو أنه واجه مثل هذا السبب من شخص أقوى منه لسكت عنه، ولكنه وجده ضعيفاً فانبعثت من أعماق نفسه نزعة الغلبة والاعتداء.

يجب أن لا ننسى أن أمثال هذه الحوادث كانت كثيرة في العهد العثماني وهي تقل بعد ذلك تحت تأثير القيم الحضارية الحديثة.

يمكن القول بوجه عام إن الظلم الاجتماعي في جميع معالمه يستفحل في المجتمعات التي يسودها الجهل والتخلف، وكلما ارتفع المجتمع في مستواه الحضاري والثقافي قل الظلم الاجتماعي فيه.

وسوف أعود إلى الحديث في هذا الموضوع مرة أخرى في حلقة قادمة.

حول الظلم الاجتماعي مرة أخرى(١)

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي في موضوع الظلم الاجتماعي وقد وعدنا أن يتم الحديث فيه في هذه الحلقة، وها هو الآن يواصل الحديث في هذا الموضوع ونحن من جانبنا نرحب بأي نقد أو مناقشة فيه:

يقول الوردي:

ذكرت سابقاً في تعريف الظلم الاجتماعي أن الظلم الذي ينشأ بين الناس من جراء بعض المعتقدات أو القيم أو المفاهيم السائدة فيهم والتي تجعلهم يظلمون بعضهم بعضاً دون أن يكون للمظلومين أي ذنب بموجب ذلك. وقد ذكرت نماذج من هذا الظلم في مجال معاملة أصحاب العاهات، أو أصحاب الوجوه الدميمة، أو المستضعفين الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه من هو أقوى بدناً منهم. وسوف أحاول في هذه الحلقة دراسة الظلم الاجتماعي في مجالات أخرى، وأبدأ بالمجال الذي يتعامل الناس فيه مع الفاشلين في حياتهم.

إن الحياة الاجتماعية هي في حقيقة أمرها معركة مستمرة يتنافس الناس

---

(١) العدد (١٤١) ٢٥ أيلول ١٩٨٩.

فيها للوصول إلى المكانة العالية فيها، فينجح القليلون منهم ويفشل الكثيرون. وتلك سنة الله في أرضه منذ خلق البشر حتى يومنا هذا، فليس في مقدور أي نظام اجتماعي ـ مهما كان ـ أن يجعل الناس كلهم ناجحين في حياتهم، ولا بدّ أن يكون فيه الناجحون والفاشلون على وجه من الوجوه.

إن النظام الاجتماعي يمكن أن يكون قادراً على توفير الحاجات المادية للناس جميعاً في المستقبل القريب أو البعيد، غير أنه لا يستطيع أن يحقق للناس كل ما يطمحون إليه من جاه أو نفوذ أو مكانة عالية. وهنا يجب أن لا ننسى أن الإنسان ليس كالحيوان تقتصر حاجاته على النواحي المادية فقط بل هو يطلب دائماً رفعة الأنا في نظر الآخرين ـ كما شرحته في حلقات سابقة من هذه الصفحة.

من الأخطاء الشائعة التي كانت متداولة بين الناس قديماً قولهم: (كل من جد وجد) و(كل من سار على الدرب وصل) و(كل من جال نال) والواقع أن هذه الأقاويل المغلوطة أدت إلى الكثير من الظلم الاجتماعي بين الناس، فهم يحسبون أن النجاح في الحياة هو حصيلة الجد والمثابرة والدأب. ولهذا رأيناهم يقدرون الناجح في حياته، إذ هم يعتبرون نجاحه حصيلة الجد والمثابرة، فهم يضربون به المثل ويطلبون من أبنائهم أن يقتدوا به. والأدهى من ذلك أن الناجح نفسه قد يغتر بنفسه ويشمخ بأنفه ويتعالى على الناس قائلاً: (انظروا إلى ما وصلت إليه من نجاح فهو كله نتاج تعبي وحسن تدبيري). وقد رأينا من أمثال هذا كثيرين!

وفي الوقت الذي ينال فيه الناجح مثل هذا التقدير من الناس ينال الفشل منهم الاحتقار والتقريع. فهم ينسبون إلى الفاشل السبب في فشله. وهو نفسه قد يصدق ما يقولون له فيلوم نفسه معهم أو يندب حظه.

تبين الآن علمياً أن كلاً من الفاشل والناجح ليس مسؤولاً عن فشله أو نجاحه إلا في نطاق محدود. فهناك المواهب والقدرات الذكائية والنفسية لها

دورها في نجاح الإنسان، كما أن الظروف والصُّدف التي يمر بها الإنسان في حياته لها دورها في نجاحه أيضاً. ولكن الناس في تعاملهم مع الناجح والفاشل يجهلون ذلك ويعزون سبب النجاح والفشل فيهما إلى الجد وحده.

إن الناس في تقديرهم للنجاح يمنحونه أكثر مما يستحق، وفي احتقارهم للفاشل يظلمونه.

معاملة المجرمين:

إن معاملة الناس للمجرمين والمنحرفين قديماً تشبه معاملتهم للفاشلين من بعض الوجوه. فمن يدرس ما كان يجري في السجون الأوروبية في القرون الوسطى يجد فيها من الظلم شيئاً كثيراً.

ومن يزر المتاحف الأوروبية الآن يجد فيها آلات التعذيب التي كانت تستعمل مع السجناء وهي فظيعة جداً.

كان الناس في الماضي يحسبون أن المجرم قد صار مجرماً بإرادته واختياره، وهذا رأي قد اتضح خطؤه حديثاً. إن شخصية المجرم هي كشخصية أي إنسان آخر نتاج التفاعل بين العوامل الموروثة فيه وعوامل البيئة التي عاش فيها. ولو كان أي واحد منا لديه نفس النوازع والدوافع النفسية الموجودة في المجرم وعاش في نفس الظروف التي عاش فيها لصار مجرماً مثله أو مقارباً له قليلاً أو كثيراً.

قال أحد علماء الاجتماع كلمة في هذا الشأن جديرة بالذكر هنا، هي: إننا في معاقبتنا للمجرم نظلمه لأنه ليس مسؤولاً عن إجرامه، ولكننا في عدم معاقبته نظلم المجتمع لأن إطلاق سراحه يجعل المجتمع عرضة لنزعته الإجرامية مرة بعد مرة.

إن الحكومات الحديثة تتبع في معاملة المجرم طريقة وسطى، فهي تحاول إصلاحه بدلاً من معاقبته، وهي تحاول حجره عن مخالطة الناس إذا

وجدت في إطلاق سراحه ضرراً عليهم، ولكنها توفر له في السجن كل ما يحتاج إليه من حاجات مادية أو ثقافية أو روحية باعتباره إنساناً كغيره من الناس.

معاملة المخالفين:

أقصد بالمخالفين أولئك الذين يخالفوننا في معتقداتهم الدينية. فقد كان الناس قديماً يحسبون أن الإنسان يعتنق عقيدته الدينية بإرادته واختياره. وهذا رأي يخالف ما جاء به العلم الحديث كما يخالف ما ورد عن النبي ﷺ إذ قال: (يولد المرء على الفطرة إنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

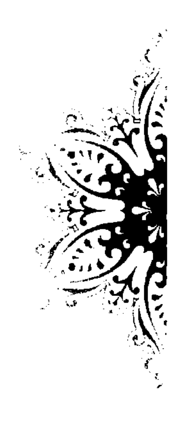
إن الإنسان في الغالب يأخذ عقيدته الدينية من البيئة المحلية التي ينشأ فيها، وليست له أية إرادة أو اختيار فيها. ولكن الناس قديماً لم يكونوا يفهمون ذلك. وهذا هو سبب المذابح والاضطهادات الطائفية التي امتلأت بها صفحات التاريخ.

إن المذبحة الكبرى التي جرت على البروتستانت في فرنسا في عام ١٥٧٢، وهي التي سميت (مذبحة سان برثلميو)، تعطينا نموذجاً واضحاً للظلم الاجتماعي. وهناك نموذج آخر رأيناه في العهد العثماني وهو الذي جرى على طائفة اليزيدية الذين يسكنون في شمال العراق. فعندما وقع العراق تحت وطأة الحكم العثماني في القرن السادس عشر. أصدر مفتي الدولة فتواه في أن اليزيدية أشد كفراً من الكفار الأصليين، وأن جهادهم أكثر ثواباً من العبادات الدينية. وأنهم يجب أن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وأطفالهم. وكانت هذه الفتوى سبباً في الاضطهادات والمذابح المتتابعة التي حلت باليزيدية طيلة العهد العثماني الذي استمر نحو أربعة قرون.

إن الفرد اليزيدي لم يكن يزيدياً بإرادته واختياره على نحو ما أشرنا إليه آنفاً. فلو أن أي واحد منا نشأ في بيت يزيدي في بيئة يزيدية لصار يزيدياً ولهذا فإن من الظلم معاقبته على أمر لا إراده له فيه.

إن التسامح مع المعتقدات الدينية على مختلف أنواعها هو من معالم الحضارة الحديثة. فالحكومات الحديثة تجري في معاملة رعاياها على سنّة المساواة التامة بينهم بغض النظر عن معتقداتهم المختلفة.

إن الحكومة التي تميز بين رعاياها على أساس من المعتقد الديني هي حكومة لا تليق أن تعيش في هذا العصر الحديث.

بين المثقف والمتعلم[1]

يتحدث الناس عادة عن الفرق بين المثقف والمتعلم. وقد ورد إلى هذه الصفحة سؤال من أحد القراء يطلب فيه صاحبه توضيح الفرق بينهما. وقد أحلنا السؤال إلى الدكتور علي الوردي، فكتب لنا مشكوراً ما يلي:

يقول الوردي:

في البداية يجب أن نفهم معنى (الثقافة) لكي نعرف بها (المثقف). فالثقافة قد التبس معناها في اللغة العربية المعاصرة ـ كما أشرت إليه في حلقة سابقة من هذه الصفحة. وسبب هذا الالتباس أن مجمع اللغة العربية في مصر قد ترجم المصطلح العلمي المعروف (Culture) إلى ثقافة، وهو قد أخطأ في ذلك لأن الثقافة في معناها المتداول بين الناس لا تؤدي نفس المعنى الذي أراده المجمع في مصر.

إن مصطلح (المثقف) كما يفهمه الناس قريب من المصطلح الإنكليزي (intellectual) ومعناه الشخص الذي يملك قدرة على الفهم تفوق القدرة الاعتيادية. واستناداً على هذا يمكن القول إن هناك فرقاً بين المثقف والمتعلم. فالمتعلم قد يكون واسع المعرفة كثير الاطلاع ولكنه في الوقت نفسه يفهم

---

(١) العدد (١٤٢) ٢ تشرين الأول ١٩٨٩.

الأمور على نحو ما يفهمها عامة الناس وسوادهم. أما المثقف فهو يسمو على العامة في ذلك. ويظهر هذا فيه بوضوح عند فهمه للمألوفات التي نشأ عليها في مجتمعه، فهو لا يأخذها على علاتها كما يفعل العوام بل هو يتفحصها موضوعياً بمقدار جهده، وقد يدفعه ذلك إلى التحرر منها أو الثورة عليها.

إن كل إنسان في الواقع لديه نزعة الانسجام مع المجتمع الذي يعيش فيه كما أن لديه نزعة التمرد عليه ولكن الأفراد يختلفون في نسبة كل من هاتين النزعتين إلى الأخرى فيهم. فالعوام من الناس تكون النزعة الأولى أكثر سيطرة عليهم من الثانية. أما النخبة منهم فهم الذين تسيطر عليهم النزعة الثانية قليلاً أو كثيراً.

يستطيع أي واحد منا أن يضع نفسه تحت الاختبار في هذا الشأن، فهو يسأل نفسه: هل هو موافق على جميع المعتقدات والتقاليد والقيم التي نشأ عليها في بيئته المحلية، أم هو يختلف معها وإلى أي درجة هو مختلف معها؟

أعرف أشخاصاً يملكون شيئاً كثيراً من المعرفة العلمية الحديثة وقد حصلوا على الشهادات العالية فيها، ولكنهم عندما نتناقش معهم في بعض المعتقدات التي نشؤوا عليها، أي التي وجدوا عليها آباءهم على حدّ تعبير القرآن الكريم، نراهم يؤيدونها على الرغم مما فيها من جوانب مستهجنة أو غير معقولة. إن الواحد من هؤلاء هو الذي نطلق عليه لقب (المتعلم)، وهو بعيد طبعاً عن صفة (المثقف)، الذي يميل عادة إلى غربلة المألوفات القديمة قبل الالتزام بها.

رأينا بعض المتعلمين قد تركوا المألوفات القديمة والتزموا بمألوفات جديدة وأخذوا يتحمسون لها. وهم في حقيقة أمرهم لم يفعلوا ذلك تحت تأثير تفكير موضوعي من قبلهم، بل هم اندفعوا فيها تقليداً (لموضة) اجتماعية شاعت في وقت معين، وهم لا يترددون أن يغيروا آراءهم وحماسهم تقليداً (لموضة) اجتماعية أخرى في وقت آخر.

مرت علينا في العراق بعض الفترات الغوغائية. وهي فترات يمكن أن نعتبرها بمثابة مختبر اجتماعي يقاس به الفرق بين المثقف والمتعلم من الناس.

رأينا في تلك الفترات كيف اندفع بعض المتعلمين مع الغوغاء يؤيدونهم في كل ما يفعلونه من أفاعيل عجيبة. ومنهم من اشترك فيها فعلاً. وكانوا مستعدين للإتيان لمختلف الأدلة العقلية والنقلية لتأييد تلك الأفاعيل واعتبارها (مكسباً شعبياً).

طبيعة الأنا:

لكي نفهم الفرق بين المثقف والمتعلم يجب أن نعرف شيئاً عن طبيعة (الأنا) في الإنسان. فالأنا كما ذكرت في حلقة سابقة من هذه الصفحة هي محور الشخصية البشرية، وليس في مقدورنا أن نفهم شخصاً من الأشخاص ما لم نفهم شعوره بالأنا وكيف يحاول التعبير عنها أو التنفيس عنها.

يقول العالم الاجتماعي المعروف هربرت ميد: إن (الأنا) في الإنسان نوعان هما الأنا الاجتماعية والأنا الفردية. فالأنا الاجتماعية هي التي تجعل الإنسان يتمسك بالمعتقدات والقيم التي نشأ عليها، وهو لا يحب مخالفتها لأن مخالفتها تؤدي إلى هبوط مكانته الاجتماعية وإلى احتقار الناس له. أما الأنا الفردية فهي التي تدفع الإنسان نحو الثورة أو التمرد على مألوفات مجتمعة قليلاً أو كثيراً.

في رأي ميد أن كل فرد من البشر لديه هذان النوعان من الأنا، إنما يختلف الأفراد في نسبة ما في كل واحد منهم من هذه الأنا أو تلك. فأكثر الناس هم الذين تسيطر عليهم الأنا الاجتماعية. وهم الذين نراهم في العوام والغوغاء، وهم الذين يصفهم الحسن البصري بأنهم (قتلة الأنبياء).

إن الحسن البصري حين وصف الغوغاء بأنهم (قتلة الأنبياء) إنما استمد هذا الوصف من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي وصف الغوغائيين بأنهم

(ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح). فهم يسرعون إلى قتل الأنبياء لأنهم يجدونهم يدعون إلى مخالفة المعتقدات والقيم التي وجدوا عليها آباءهم ـ على نحو ما ذكره القرآن الكريم.

في المجتمع الراكد المنعزل تكون الأنا الاجتماعية هي الطاغية على الأفراد. فإذا ظهر فيه فرد ثائر أو مصلح أهانوه أو عاقبوه أو طردوه من مجتمعهم. وهذا يؤدي إلى استمرار المجتمع في انغلاقه وركوده فلا يقع فيه من التغير عبر الأجيال إلا قليلاً.

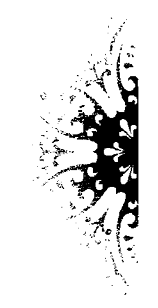
إن الفرد الذي يملك درجة كبيرة من الأنا الفردية، وهو يعيش في مجتمع راكد منعزل. مضطر للسكوت تجاه مجتمعه فلا ينتقد فيه شيئاً أو يثور عليه. ولكن هذا الفرد يجد فرصته في المجتمع المتقدم المنفتح، إذ هو يساهم في تطويره بمقدار جهده.

إن هذه النظرية التي جاء بها (ميد) توضح لنا سبب الفرق بين المثقف والمتعلم. فالمتعلم قد يكون له اطلاع على الكثير من المعلومات، وقد يحمل الشهادات العالية كما رأينا ولكنه مع ذلك يبقى كالعوام والغوغاء محافظاً على ما نشأ عليه ولا يريد أي تغيير فيه. أما المثقف فهو يختلف عن المتعلم لكونه يملك في أعماق نفسه ثورة تحاول الانطلاق. فهو يرى في مألوفات مجتمعنا أموراً لا ترضيه، وهو يحاول انتقادها أو المجادلة ضدها، وكثيراً ما يورط نفسه في مشاكل هو في غنى عنها.

إن مع المجتمع، والموافقة على مألوفاته وقيمه الموروثة، أنفع له في حياته العلمية، ولكنه يجد نفسه في بعض الأحيان مدفوعاً إلى إعلان رأيه المخالف بغض النظر عن الأضرار التي تنتج عنه. ومن الممكن القول إنه لا إرادة له فيما يفعل، إذ هو مدفوع بدافع لا شعوري لا سيطرة له عليه. إنه بعبارة أخرى يملك من الأنا الفردية قسطاً أكبر مما لدى الآخرين من الناس. وهو قد يكون معذباً طيلة حياته من جراء ذلك.

إن هذه الصفة التي يتميز بها المثقف هي نفسها التي يتميز بها جميع المصلحين والمجددين الذين غيروا مجرى التاريخ وإن كانوا بمقياس أكبر. فالواحد من هؤلاء المصلحين والمجددين يشعر في أعماقه بحرقة تدفعه نحو تجديد مجتمعه أو إصلاحه، وهو يندفع بها غير مكترث بالخسارة التي تصيبه من جراء ذلك.





بين المثقف والمتعلم مرة أخرى!![1]

الحلقة الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي عن الفرق بين المثقف والمتعلم حسب وجهة نظره وقال: إن المثقف يتميز بقوة الأنا الفردية فيه بينما المتعلم يتميز بضعف هذه الأنا فيه، وقد أثار هذا الموضوع اهتمام عدد غير قليل من القراء فهو موضوع جديد عليهم. وقد رجونا من الدكتور الوردي أن يواصل الحديث فيه لفائدة القراء. فكتب لنا الوردي.

يقول الوردي:

قلت مسبقاً إن هناك نوعين من الأنا هما الأنا الاجتماعية والأنا الفردية فالأولى تدفع الإنسان نحو مجاراة المجتمع الذي يعيش فيه بغية كسب المكانة العالية فيه، بينما الثانية تدفع الإنسان نحو الثورة على المجتمع. والواقع أن كل إنسان لديه هذان النوعان من الأنا، ولكن الأفراد يتفاوتون في قوة كل منهما بالنسبة إلى الآخر فيهم.

إن الشخص الذي تكون فيه الأنا الاجتماعية غالبة على الأنا الفردية هو الذي صح أن نطلق عليه صفة (العامي). وهو الذي يتمثل في سواد الناس وعوامهم والكثرة الغالبة فيهم.

---

(١) بين المثقف والمتعلم مرة أخرى!! د. علي الوردي (٣٨) العدد (١٤٣) ٩ تشرين الأول ١٩٨٩.

وهؤلاء هم الذين وصفهم الحسن البصري بأنهم (قتلة الأنبياء). فهم يحاربون كل دعوة نبوية أو إصلاحية جديدة أو القيم والتقاليد التي نشؤوا عليها، أي التي وجدوا عليها آباءهم ـ كما ذكره القرآن الكريم.

وقد ذكرت سابقاً كيف أن بعض المتعلمين الذين يحملون الشهادات العالية ويتحذلقون بالأفكار الحديثة هم عاميون في تفكيرهم، إذ هم يؤيدون جميع المعتقدات والقيم التي نشؤوا عليها بالرغم مما فيها من جوانب مستهجنة. أما المثقف فهو على النقيض من ذلك إذ هو قادر على التحرر من القوقعة الذهنية التي نشأ عليها قليلاً أو كثيراً.

وهنا يجب أن لا ننسى أن المثقفين ليسوا كلهم على درجة واحدة في تحررهم الفكري، كما أن المتعلمين ليسوا كلهم على درجة واحدة من حيث عاميتهم. إن البشر بوجه عام كما ذكرناه في حلقة سابقة ـ يتفاوتون في جميع صفاتهم وقدراتهم، فمنهم القوي فيها ومنهم الضعيف، ومنهم من هو على درجات شتى.

نستطيع أن نشبه الفرق بين المثقف والمتعلم من هذه الناحية بالفرق بين الناجح والراسب من تلاميذ المدارس. فالتلاميذ في نجاحهم أو رسوبهم على درجات متفاوتة. فإن أصحاب الدرجات العالية جداً أو الدرجات الواطئة جداً قليلون بين التلاميذ، أما أكثر التلاميذ فهم الذين وضعت درجة الخمسين أو الستين لتكون الحد الفاصل بين الناجحين والراسبين. إن هذه الدرجة ليست هي في الواقع مقياساً دقيقاً للتمييز بين هاتين الفئتين من التلاميذ، ولكننا مضطرين إلى وضع درجة مهما كانت للتمييز بينهما من الناحية العلمية.

من الممكن القول إن التمييز بين المثقف والمتعلم هو كالتمييز الذي ذكرناه بين الناجح والراسب من تلاميذ المدارس. إذ هو تمييز درجي أكثر مما هو تمييز نوعي.

فأفراد البشر متفاوتون في درجة عاميتهم أو في درجة تحررهم الذهني.

وهناك أفراد يمكن أن نضعهم في الوسط بين الفئتين، إذ نراهم مثقفين متحررين تارة، وعاميين متزمتين تارة أخرى، وليس في مقدورنا أن نضع لهم درجة ثابتة في هذا الجانب أو ذاك.

مخالفة المألوف:

الملاحظ في بعض الأفراد أنهم عاميون في تفكيرهم ولكنهم يتعمدون في بعض الأحيان مخالفة المعتقدات والقيم السائدة بغية كسب الشهرة بين الناس. فهم يسيرون في حياتهم على المبدأ القائل: (خالف تعرف).

الواقع أن هناك فرقاً كبيراً بين هذا (المخالف) والمثقف الحقيقي.

فالمثقف لا تهمه الشهرة بقدر ما تهمه الفكرة التي يؤمن بها. وتراه أحياناً يتحمس لفكرة يؤمن بها وهو يدري أنها قد تضر سمعته أو مكانته بين الناس، ولكنه إذ يفعل ذلك لا يبالي بالضرر الناتج عنها لأنه مدفوع بدافع لا شعوري لا إرادة له فيه، هو دافع الأنا الفردية.

أما الذي يخالف المألوف من أجل الشهرة فهو مدفوع بدافع آخر، فإن الأنا الاجتماعية هي الغالبة عليه وهو حين يجد نفسه قد أخفق في كسب المكانة العالية بالوسائل المألوفة يلجأ إلى استخدام الوسائل غير المألوفة. وهو لا بدّ أن يكون مصيره الفشل في النهاية.

التزلف للعوام:

وهنا لا بدّ لنا من أن نتطرق إلى أفراد آخرين من الناس هم الذين يطلبون المكانة العالية بوسيلة هي على النقيض من وسيلة مخالفة المألوف. وأقصد بهم أولئك الذين يتظاهرون بشدة التمسك بالمعتقدات والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع بغية نيل تقدير العوام وإعجابهم.

فالواحد من هؤلاء قد يكون متعلماً واسع المعرفة ولكنه يستخدم معرفته

في تأييد كل فكرة يميل إليها العوام. وتراه إذا حضر في مجلس نظر إلى الجالسين فيه وأخذ يحدثهم بما يشتهون.

أعرف واحداً من هؤلاء مات منذ مدة غير قصيرة فكنت أراه يغير أفكاره وأحاديثه تبعاً للأشخاص الذين يستمعون إليه، فإذا وجد بعض العوام يستمعون إليه أطلق لسانه في تمجيد المعتقدات التي يؤمنون بها مع العلم أنه في قلبه يستهجنها، وهو يأتي بالأدلة العقلية والنقلية في تأييدها، وهو يتوقع من العوام الحاضرين أنهم سيلهجون بذكره فيما بعد وينشرون اسمه بين الناس. وقد أحبه الكثيرون بسبب هذه العادة فيه لأنهم لم يعرفوا حقيقته، أما الذين عرفوا حقيقته فكانوا يحتقرونه، ولكنهم كانوا قليلين.

كلمة أخيرة:

إن المثقف الحقيقي هو الذي تكون فيه الأنا الاجتماعية والأنا الفردية كلاهما قوية فيه. فهو يطمح إلى نيل المكانة العالية بين الناس كما يطمح إليها أي إنسان سوي آخر. إنه بشر كغيره من البشر وليس في مقدوره أن يكون منعزلاً عن الناس أو بعيداً عما تتطلبه الحياة الاجتماعية منه. ولكنه في الوقت نفسه يشعر بدافع لا شعوري يدفعه نحو التمرد على ما في مجتمعه من جوانب مستهجنة.

إن المثقف الحقيقي كثيراً ما يعاني صراعاً بين دافعين متناقضين في أعماق نفسه، أحدهما يدفعه إلى مجاراة الناس والآخر يدفعه نحو التمرد عليهم. إنه قد يقف في حياته حائراً بين خيارين كلاهما مر، فإن هو أعلن عن آرائه أدى إلى بغض الناس له، وإن هو آثر السكوت والصبر عانى من الألم المكبوت في نفسه.



حول الحضارة الحديثة مرة أخرى!![1]

وردنا من أحد القراء نقد للدكتور علي الوردي على بعض أحاديثه الماضية، فهو يصفه بالتناقض في أقواله. وقد سبق لقارئ آخر أن وصف الوردي بهذه الصفة كما نشرناه في حلقة سابقة من هذه الصفحة ونشرنا رد الوردي عليه. أما الناقد فهو ينتقد الوردي على تناقض آرائه في موضوع الحضارة الحديثة. وهذا نص ما قاله الناقد:

(إن الوردي يقول: إن الحضارة الحديثة مليئة بالمساوئ والمخاطر وهو ينقل رأياً لأحد الباحثين فحواه أن الحضارة الحديثة سوف تؤدي إلى هلاك البشرية. ولكن الوردي في الوقت الذي يقول بهذا الرأي يقول أيضاً؛ إننا يجب أن نسير في طريق الحضارة الحديثة وأن نزيح عنه كل ما يعرقل علينا السير فيه، فكيف يمكن التوفيق بين قوله الأول وقوله الثاني؟!).

وقد أحلنا هذا النقد إلى الدكتور الوردي فكتب في الرد عليه ما يأتي:

يقول الوردي:

إني قد تطرقت في حلقة سابقة من هذه الصفحة إلى مناقشة هذا الموضوع

---

(١) العدد (١٤٤) ١٦ تشرين الأول ١٩٨٩.

الذي ذكره الأخ الناقد في شأن الحضارة الحديثة. ولعل من المجدي أن أعود إلى مناقشته مرة أخرى من أجل توضيح بعض الجوانب منه.

الواقع أننا نقف تجاه الحضارة الحديثة في مأزق ـ أو ما يسمى باللغة الإنكليزية (dilemma) ـ فنحن يجب أن نسير في طريقها من جهة، ولكنها من الجهة الأخرى مليئة بالمساوئ والجوانب السلبية فماذا نصنع تجاه ذلك؟!

الحضارة الحديثة لا يمكن أن تبقى صامدة تجاه الصراع الهائل الذي يعم العالم اليوم.

إن الحروب كانت في الماضي تقوم على السيف ولا ينتصر فيها إلا من يحذق استعمال السيف ومن يملك الشجاعة في الصولة به. أما الآن فإن السيف قد ذهب زمانه وحل محله العلم والتقنية الحديثة. إن الأمّة التي لا تريد السير في هذا الطريق الجديد لا بدّ أن تقع في أيدي الذين هم أقوى منها فيه.

حاول إمام اليمن السابق يحيى حميد الدين أن يعزل بلاده عن الحضارة الحديثة. إذ هو كان يعتبرها مفسدة للدين والأخلاق، (وهو كان مصيباً في رأيه هذا). ولكن مشكلته أنه لم يستطع أن ينجح في سياسته الانعزالية. فالتيار كان أقوى منه. وهو لو لم يسقط في الوقت الذي سقط فيه لسقط في وقت آخر بعده. إن سقوطه كان محتوماً لا مفر منه.

يروى عن الإمام يحيى في أثناء الحرب التي نشبت بينه وبين خصمه عبد العزيز بن سعود، في عام ١٩٣٣، أنه لجأ إلى قراءة الأدعية مع أصحابه بغية كسب النصر على خصمه. ونحن لا ننكر تأثير الأدعية في تقوية المعنوية لدى المقاتلين ولكنها لا تجدي وحدها في ذلك بل يجب أن يصحبها السلاح المتفوق وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم. حين قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ﴾.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن (رباط الخيل) الذي ذكره القرآن

ليس المقصود به الخيل فعلاً بل المقصود به السلاح الذي يمكن به التغلب على العدو. فإن الطائرات والصواريخ والدبابات تقوم اليوم مقام الخيل كما لا يخفى. وفي حالة التقصير في اعدادها فإن الأدعية لا تنفع مهما كانت بليغة!

خلاصة القول إن الذي يريد أن يعيش في هذا العصر يجب أن يتسلح بسلاحه ويستعد بعدته. وهذا أمر لا خيار لنا فيه بل هو محتوم علينا شئنا أم أبينا.

سؤال:

قد يسأل هنا سائل: أليس في مقدورنا أن نأخذ من الحضارة الجانب العلمي والتقني ونترك الجوانب الأخرى التي هي سيئة؟

يجب أن لا ننسى أن الحضارة لا تخضع للانتقاء والاختيار على نحو ما يفعل أحدنا عند شراء الفاكهة من البقال، إذ هو يلتقط الجيدة منها ويترك الرديئة، إن من طبيعة الحضارة أنها تأتي كلاً لا يتجزأ. أي أنها تأتي بمحاسنها ومساوئها معاً.

ليس في مقدور أية أمّة من الأمم أن تضع على حدودها حراساً يقفون في وجه الحضارة القادمة فيسمحون بدخول الجوانب الحسنة منها ويمنعون الجوانب السيئة من الدخول.

إن العالم اليوم أصبح بمثابة قرية كبيرة يختلط الحابل والنابل فيها. فإن وسائل النقل والاتصال الحديثة وصلت إلى درجة لا يمكن إيقافها عند حد معين، وهي في تصاعد مستمر يوماً بعد يوم.

يقال: إن الفرد في القرن القادم أو الذي بعده سيكون لديه صاروخ يحمله إلى أقصى الأرض في دقائق معدودة، وإنه سيحمل في جيبه هاتفاً في مقدوره مخاطبة أي إنسان ورؤيته، وإنه سيملك إلى جانبه حاسوباً يمكن أن يعطيه أية معلومة يطلبها في أية لحظة، إلخ...

يعتبرون الطائرة والمذياع والتلفاز، ولكنه آت لا ريب فيه. ومعنى هذا أن الذي يريد الأخذ بأسلوب الانتقاء الحضاري سوف لا يبقى له مكان في هذه الدنيا، وهو مخير بين أن ينجرف مع التيار أو أن يسحقه التيار.

قصة ذات مغزى:

إني أتذكر عام ١٩٢٤ عندما نشب الصراع في بغداد بين دعاة السفور والحجاب وكان أكثر الناس من دعاة الحجاب وكانوا يعدون السفور مفسداً للأخلاق ومن وسائل الاستعمار لإضعاف الأمة. وقد كنت في ذلك العام تلميذاً في المدرسة الابتدائية وكان المرحوم عوني بكر صدقي من معلمينا في المدرسة، وكان هو أحد الكتاب المجددين والذين كانوا يدعون إلى السير في طريق الحضارة الحديثة، والذين كانوا قليلين جداً في تلك الأيام.

كان عوني بكر صدقي من دعاة السفور، وقد غضب منه أحد الوعاظ فحرض العوام عليه يبحثون عنه بغية تأديبه، ولكنهم لم يعثروا عليه بل عثروا على شخص آخر يشبهه في ملامحه فأشبعوه ضرباً وصفعاً وكفخاً.

ومرت الأيام بعد ذلك، فرأيت بنات هذا الواعظ وحفيداته وزوجات أبنائه قد أسفرن عن وجوههن كسائر النساء، وهو قد شاهد ذلك قبل موته ولم يقل شيئاً.

إني لا ألوم هذا الواعظ فيما فعل أولاً وما فعل أخيراً، فهو قد انجرف مع التيار على نحو ما انجرف الكثيرون غيره، ولو كنا في مثل ظروفه لصرنا مثله.

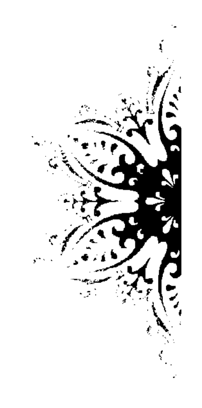
تروي المرحومة صبحية داود في كتابها (أول الطريق) قصة رجل من المحافظين كان يمنع ابنته من مغادرة بيتها إلى البيوت المجاورة إلا إذا كانت ملفعة بعباءتين.

ثم مرت به الأيام فوجد ابنته قد أسفرت عن وجهها كغيرها من بنات محلتها وطبقتها. وعندما تخرجت هذه البنت من الثانوية وأرادت الدخول في

إحدى الكليات المختلطة أخذ والدها يساعدها في ذلك بمقدار جهده. ولما سئل عن الفرق الكبير بين موقفه هذا وموقفه القديم هز رأسه ضاحكاً وقال: (ذاك زمان.. وهذا زمان)!

إننا يجب أن نضع هذه العبارة أمام أبصارنا دائماً. فكل زمان له مقتضياته وظروفه. وللإمام علي بن أبي طالب كلمة جديرة بالذكر هنا في قوله: (لا تعلموا أولادكم على عاداتكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم).





حول تغير القيم الاجتماعية(١)

في حلقة ماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي عن الأسلوب الواعي ومبلغ تأثيره في توجيه الناس وإصلاحهم، وكان رأي الوردي أن القيم الاجتماعية السائدة هي التي توجه الناس في حياتهم الاجتماعية وإذا كانت المواعظ مخالفة لتلك القيم فإنها تضر الناس أكثر مما تنفعهم، ونحن إذ نريد تغيير أخلاق الناس يجب أن نغير قيمهم الاجتماعية بدلاً من قرعهم بالخطب الرنانة.

إن السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو: ما هي الطريقة التي يمكن بها تغيير القيم الاجتماعية السائدة بين الناس من أجل إصلاحهم ما دام الأسلوب الوعظي لا يؤثر فيهم؟ وقد طلبنا من الدكتور الوردي الجواب على هذا السؤال، فكتب لنا ما يلي:

يقول الوردي:

الواقع أن تغيير القيم ليس بالأمر السهل، بل هو من أصعب الأمور ولست أدعي أني أعرف الطريقة الكافية والوافية في هذا الشأن، ولو كنت أعرف كيف أغير قيم الناس لصرت في حالة أفضل من هذه الحالة التي أنا فيها.

---

(١) العدد (١٤٥) ٢٣ تشرين الأول ١٩٨٩.

إننا حين ندرس ما فعله النبي محمد ﷺ أو غيره من الأنبياء في جهودهم الإصلاحية ندرك أنهم لم يكتفوا بإلقاء المواعظ على الناس، بل كانوا هم أنفسهم قدوة عملية للناس في سلوكهم.

إن كل نبي لا يتبعه في بداية دعوته إلا القليلون من الناس، هؤلاء القليلون يقتدون بالنبي في أفعاله كمثل ما يقتدون به في عقيدته الجديدة، وعندما تنجح دعوة النبي أخيراً، ويدخل فيها أتباع كثيرون، يكون الأتباع الأولون بمثابة القدوة للأتباع الجدد، وهذا لا بدّ أن يؤدي إلى تغيير القيم الاجتماعية فيهم قليلاً أو كثيراً.

أذكر على سبيل المثال حادثة بسيطة حدثت في المدينة في زمن النبي محمد ﷺ فقد تشاجر رجلان أمام النبي وشتم أحدهما الآخر قائلاً له: (يا بن السوداء).

فغضب النبي من الشاتم وقال له: (إنك امرؤ فيك جاهلية).

إن هذه الحادثة صغيرة ولكنها من الناحية الاجتماعية ذات مغزى كبير. فهي تدل على أن النبي لم يأت بعقيدة جديدة فقط بل هي التي أيضاً بقيم اجتماعية جديدة مناقضة للقيم التي كانت سائدة في الجاهلية.

كانت قيم الجاهلية تقدر الفرد تبعاً لحسبه ونسبه ولانتمائه القبلي، وجاء الإسلام يدعو إلى تقييم الفرد حسب عمله الشخصي. فالفرد قد يكون ابن سوداء ولكنه قادر أن يتفوق بعمله الصالح على أبناء الأشراف.

حدث مرة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن جاء إليه في مقره نفر من الذين كانت لهم مكانة عالية في الجاهلية وطلبوا الإذن بالدخول عليه، فلم يأذن لهم، ثم جاء بعدهم نفر من الذين كانت لهم مكانة عالية في الجاهلية وطلبوا الإذن بالدخول عليه، فلم يأذن لهم، ثم جاء بعدهم نفر من الذين كانوا في الجاهلية من المستضعفين والعبيد وارتفعت مكانتهم في الإسلام، فأذن لهم

عمر بالدخول. معنى هذا أن الخليفة جرى في معاملة الناس على أساس القيمة الشخصية لكل واحد منهم، وليس على أساس الحسب والنسب أو المكانة الاجتماعية التي كانت لهم سابقاً.

وهناك قصة أخرى تشبه هذه القصة في مغزاها الاجتماعي جرت في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب. فقد تبلغ الخليفة أن عامله في البصره عثمان ابن حنيف ذهب إلى وليمة من تلك الولائم الباذخة التي تتصف بالتباهي والإسراف والتي يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء، فكتب إليه الخليفة ما نصه:

(أما بعد يا بن حنيف: فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجنان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيهم مدعو.. ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه. إلا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد...).

إن هذه القصة تدل على أن الولائم الفخمة التي يتباهى بها الناس لا يمكن تغييرها بالكلام المجرد، بل يمكن تغييرها عن طريق القدوة العالية، وأعني بذلك أن أصحاب المكانة العالية في المجتمع هم الذين يغيرون قيمهم، فيكونون بذلك قدوة لغيرهم من الناس.

حول المرحلة الراهنة:

قد يواجهنا في هذا الموضوع سؤال هو فيما يخص المرحلة الراهنة التي نعيش فيها، فقد كانت لدينا في العهد العثماني قيم عشائرية معينة، ثم جاءت إلينا الحضارة الحديثة بقيم أخرى تختلف عنها أو مناقضة لها من بعض الوجوه، وصار كثير من الناس يسيرون على القيم الحضارية الحديثة، بينما ظل آخرون متمسكين بالقيم العشائرية القديمة. فماذا نصنع مع هؤلاء وأولئك؟ هل نتركهم

يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون أم نحاول توجيههم؟ وما هي الطريقة التي يمكن توجيههم بها؟

إن هذا السؤال يحتاج إلى توضيح قبل الإجابة عليه، فالناس الآن لا يصح تصنيفهم إلى فريقين على نحو ما ورد في السؤال، أي محافظين باقين على القيم العشائرية القديمة. ومجددين أخذوا بالقيم الحضارية الحديثة. فالواقع أن أكثر الناس في العراق هم بين بين، إذ هم في ظاهرهم حضاريون وفي باطنهم عشائريون.

فأنت الآن قد ترى أفندياً مثقفاً يتمقص أحدث الأزياء ويسكن أحدث المساكن، ويتحدث عن أحدث النظريات والأفكار العلمية، ولكنه ما زال يتباهى بالولائم الفخمة، ويصر على أن يكون هو الذي يدفع النقود في المقهى أو المطعم، ويتبع قوة النخوة في الوساطات، ويلح في الدعوة إلى تناول الطعام أو غيره.

إننا الآن في حاجة ماسة إلى الكشف عن مكامن هذه الازدواجية فينا، وأن نحاول إظهار عيوبها ومخالفتها للحضارة الحديثة التي نسير اليوم في طريقها.

لست أقصد بهذا أن نتبع الأسلوب الوعظي في مكافحة هذه الازدواجية فينا، بل يجب أن نتبع طريق الإعلام المؤثر، وأعني به الإعلام الذي يتغلغل في أعماق الناس بدلاً من مخاطبة عقولهم الواعية.

إن كل واحد من العاملين في مجال الفنون والأدب والكتابة يمكن أن يكون له دوره في الإعلام المؤثر. فهو لا يمطر الناس بالنصائح والمواعظ العالية بل هو يعرض عليهم مناظر من الأفعال المتناقضة التي يقومون بها في حياتهم اليومية حين يكون أحدهم عشائرياً وحضارياً تارة أخرى.

وهنا يجب أن لا ننسى أهمية التلفاز في مجال الإعلام المؤثر، فهو قادر

أن يعرض على الناس صوراً من تناقضاتهم اليومية، كما يعرض النتائج السيئة التي تنتج عنها، ويجعل الناس يضحكون على أنفسهم بها.

حين نشهد زحام الناس على ركوب الباص، أو في الحصول على سلعة، أو في دخول مكان، ونلاحظ عدم التزامهم للنظام فيه ندرك ما في أعماق نفوسهم من نزعة التغالب والشطارة... ولكننا حين نتحدث إلى الفرد منهم في الأمور العامة نجده قد انقلب حالاً إلى ناقد اجتماعي من الطراز الأول.

المطلوب من التلفاز وغيره من وسائل الإعلام أن يعرض علينا صوراً من هذه الظواهر الاجتماعية لكي نعرف أنفسنا بها ونضحك عليها!

ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

فنحن ما دمنا باقين على عاداتنا القديمة فليس من السهل علينا أن نتقدم في طريق الحضارة الحديثة!





بين العقل والعلم[1]

في أواخر أيلول الماضي أذاعت إذاعة بغداد كلمة موجزة للدكتور علي الوردي في موضوع إصابة العين وهي كانت جواباً على سؤال وجهته إليه الإذاعة. وقد أثارت تلك الكلمة استنكار بعض القراء. ووردتنا من أحدهم رسالة يقول فيها: إن إصابة العين من خرافات العوام ولا يمكن أن يقبل بها العقل ولا العلم فكيف يجوز للوردي أن يعتبرها من الحقائق العلمية التي أقر بها؟ وقد أحلنا هذا السؤال إلى الدكتور الوردي فكتب ما يلي:

يقول الوردي:

إن هذا الموضوع قد تحدثت عنه في مناسبات سابقة وربما كان من المجدي أن أتحدث مرة أخرى لعل فيه شيئاً من الفائدة للقراء.

إني لاحظت في هذا السؤال رأياً طالما لاحظته لدى الكثيرين وهو أنهم يخلطون بين العقل والعلم. فالسؤال هنا يعتبر إصابة العين أمراً لا يقبل به العقل ولا العلم. والذي أريد أن ألفت النظر إليه هو أن العقل شيء والعلم شيء آخر، وكل منهما له منهج يختلف به عن منهج الآخر فالعقل قد يرى رأياً لا يرضى به العلم، وكذلك قد يأتي العلم برأي لا يقبل به العقل.

---

(١) العدد (١٤٦) ٣٠ تشرين الأول ١٩٨٩.

ومن الجدير بالذكر أني أقصد بالعقل هنا المنهج العقلاني الذي اتبعه الفلاسفة القدامى في تفكيرهم ولا يزال الكثير من مفكرينا وكتابنا يجرون عليه حتى الآن. فهم إذا سمعوا بأمر غير مألوف لديهم، أو هو مخالفة لما نشؤوا عليه أو اعتادوا عليه أسرعوا حالاً إلى تكذيبه وإلى اعتباره غير مقبول عقلاً وعلماً. ولهذا نرى الكتاب منهم يبدؤون أحياناً بعبارة (مما لا شك فيه) أو (مما اتفق عليه العقلاء) أو (مما لا يتجادل فيه اثنان) أو ما شابه.

في خلال المائة سنة الماضية جرى أكثر الناس على تكذيب كل اختراع وصل خبره إليهم لأول مرة كالتلغراف والحاكي والطائرة والمذياع والتلفاز وما أشبه. فهذه أمور لم تستطع عقولهم تعليلها واعتبروها مستحيلة، عندما شاهدوها عياناً ظل البعض منهم يكذبها أو يحاول تفسيرها بالشكل الذي يلائم مألوفاته السابقة.

ولا حاجة بي إلى إعادة قصة جدي السيد محسن في عام ١٩١٠ عندما سمع بخبر العربة التي تطير في الهواء والتي سميت بعدئذ (الطيارة) فهو اعتبرها مستحيلة لا يقبل بها العقل وأخذ يلوم أصحابه الذين أوصلوا خبرها إليه وقال لهم: (إن الله أعطانا العقل لكي نميز به الأمور).

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد علماء بريطانيا المشهورين في أوائل هذا القرن وهو اللورد كالفن، كذب خبر الطائر عند سماعه بخبرها لأول مرة. على نحو ما فعل جدي السيد محسن فهو قال: (إن الطيران بآلات أثقل من الهواء مستحيل من وجهة النظر المادية. وأن ليس في مقدور البشر بلوغه على الإطلاق).

إن كالفن في موقفه هذا نسي المنهج العلمي الذي يجب أن يتبعه في النظر إلى الأمور وصار كغيره من الناس ينظر حسب المنهج العقلاني. إن المنهج العلمي الحديث قائم على أساس التجريب والدراسة الموضوعية ولا يبالي بالمفاهيم والمألوفات والمعلومات السائدة بين الناس. وهذا هو الذي

جعل العلم الحديث يغير نظرياته وفرضياته بين حين وآخر. فإن البحوث العلمية تتسع وتتطور باستمرار وهي تكتشف في كل يوم أموراً لم تكن معروفة من قبل. وهذا لا بدّ أن يؤدي إلى تغير النظريات العلمية تبعاً لتغير نطاق البحوث بمرور الزمن.

حول إصابة العين:

إن موضوع إصابة العين يمكن أن نأتي به نموذجاً لتبيان الفرق بين المنهج العقلاني والمنهج العلمي في النظر إلى الأمور. فقد اعتاد المفكرون العقلانيون عندنا وفي مختلف بلاد العالم إلى النظر في إصابة العين. على منوال ما فعله القارئ الذي وجه السؤال لي، إذ هم اعتبروها من الأمور التي هي غير مقبولة عقلياً وعلمياً ولكن العالم أخذ أخيراً يخضع إصابة العين وغيرها من القدرات الخارقة للدراسة الموضوعية وخرج من ذلك بنتائج تختلف كل الاختلاف عما يقول به المفكرون العقلانيون سامحهم الله!

في عام ١٨٨٢ اجتمع عدد من العلماء في بريطانيا وألفوا جمعية كان الغرض منها دراسة القدرات الخارقة التي يتناقل الناس أخبارها ويتجادلون حولها بين مصدق ومكذب. وقال رئيس الجمعية في خطابه الافتتاحي ما نصه:

(إننا نسمع كثيراً عن الخوارق التي يقوم بها بعض الأفراد ويرويها شهود ثقاة ولكننا نلوي أعناقنا عنها هازئين. إن من الفضحية حقاً أن يشهد العالم المتمدن هذا الجدال القائم بين من يروي تلك الخوارق وبين من يكذبها ولو أن عشر هذه الخوارق التي يتناقل الناس أخبارها صحيحة لكانت قيمتها العلمية ذات أهمية لا تقدر. إن الهدف الأول لهذه الجمعية هو البت في أمر هذه الأخبار التي تناقلها الناس في كل زمان ومكان ووضعها تحت مشرط العلم الذي لا يتطرق إليه الشك فنحن نريد سواء في ذلك المؤمنون، منا وغير المؤمنين أن نضع الفضحية التي يعانيها العالم المتمدن الآن. إننا نريد أن نعلم

علم اليقين عما إذا كانت هذه القصص المروية صحيحة أم لا؟ وفي كل حادثة نسمع عنها سوف لا نألو جهداً في أن نتحرى مدى الصدق فيها فنحن نريد أن نعلم ولا نريد أن نبرهن على شيء علمناه مسبقاً. إن غايتنا هي الحقيقة بغض النظر عما إذا كانت نتيجتها سلباً أو إيجاباً.

إن هذه الجمعية قد نجحت في عملها نجاحاً كبيراً فهي قد فحصت كثيراً من الحالات التي يتناقل الناس أخبارها حيث وضعتها على بساط التجريب والدراسة الموضوعية، فأظهرت زيف البعض منها، كما أظهرت صدق البعض الآخر. ومن يراجع الآن مركز هذه الجمعية في لندن يجد في أضابيرها ما يذهل ويدهش.

وقد شجع نجاح هذه الجمعية على تأسيس جمعيات مماثلة في بلاد أخرى ولدينا الآن في العراق جمعية من هذا النوع أتوقع لها النجاح.

خلاصة ما أردت قوله في هذه الحلقة أننا يجب أن نتعلم منهج العلم الحديث في النظر إلى الأمور ونترك المنهج العقلاني القديم الذي اعتدنا عليه. ولست أعني بذلك موضوع إصابة العين وحده بل جميع المواضيع التي تثير المجادلات بيننا.

إن الحضارة الحديثة لا تنحصر في المظاهر المادية فقط بل هي تشمل طريقة التفكير أيضاً.

ويؤسفني أن أقول إن بعض كتابنا ومفكرينا ما زالوا قابعين في قوقعتهم العقلانية التي ذهب زمنها ومن يشهد المجادلات التي تنشب بينهم أحياناً يدرك مبلغ التقوقع العقلاني فيهم!




حول الإصابة في العين[1]

القسم الأول

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة تطرق الدكتور علي الوردي إلى موضوع إصابة العين، وهو الموضوع الذي يهتم به الكثير من القراء ويتساءلون عنه. وقد اتصل محرر هذه الصفحة بالدكتور الوردي وأجرى معه حواراً في هذا الموضوع. ننشر الآن القسم الأول منه على أن ننشر القسم الثاني في الحلقة القادمة.

س: إنك ذكرت في الحلقة الماضية أن إصابة العين أصبحت الآن من الحقائق العلمية المعترف بها. فإذا كان الأمر كذلك فما هو المصطلح العلمي الذي أطلق عليها؟ وكيف نترجمه إلى اللغة العربية بلفظة واحدة كما ينبغي أن يكون عليه المصطلح العلمي عادة.

ج: إن إصابة العين يطلق عليها في علم الخارقية الجديد مصطلح (psycho-klatas) وإني أميل إلى ترجمته إلى (العائنية). والسبب الذي يدعوني إلى ذلك هو أن العرب القدامى كانوا يطلقون اسم (العائن) و(العيان) و(المعيان) على الشخص الذي يملك القدرة على إصابة العين. وإني أفضل اللفظة الأولى لسهولتها وهذا هو الذي جعلني أطلق اسم (العائنية) على إصابة العين.

---

(١) العدد (١٤٧) ٦ تشرين الثاني ١٩٨٩.

وعلى كل حال فإني أعرض هذه الترجمة على المجمع العلمي العراقي لكي يقول كلمته فيها. وأحب أن أذكر في هذه المناسبة أني عرضت قبل هذا محاولات لترجمة ثلاثة مصطلحات علمية على المجمع العلمي. هي (التراثية) و(الخارقية) و(التناشز الاجتماعي) غير أني لم ألق من المجمع جواباً. وكان أملي أن لا يخيب المجمع ظننا فيه!

إذا كانت إصابة العين ـ أو العائنية كما تسميها ـ أصبحت من الحقائق المعترف بها، فما هو التفسير المادي لها إذن؟

ج: إن سؤالك عن التفسير المادي للعائنية أو غيرها من القدرات الخارقة كان مقبولاً في القرن الماضي أما في هذا القرن فقد أصبح غير مقبول.

إنك يجب أن تسأل نفسك أولاً ما هي المادة؟ فالمادة لا يفهمها العلم الآن بالصورة التي كان يفهمها في القرن الماضي.

كانت المادة في القرن الماضي يقصد بها هذه الأشياء التي نلمسها بأيدينا أو نحس بها بإحدى حواسنا الأخرى. وقد عرفها أحد العلماء حينذاك بقوله: (إنها كل شيء يشغل حيزاً من الفراغ له وزن). ولكن هذا المفهوم قد تغير تغيراً جذرياً على أثر المكتشفات التي ظهرت منذ أواخر القرن الماضي.

فالمادة في مفهومها الجديد مؤلفة من ذرات، والذرات مؤلفة من أجزاء أصغر منها، وهذه الأجزاء هي بدورها مؤلفة من أمواج كهرطيسية، أي كهرباء مغناطيسية. وقد وقف العلماء حيارى تجاه لغز هذه الأمواج الكهرطيسية. فهم لا يستطيعون أن يعرفوا ماهية الكهرباء والمغناطيس من جهة، وهم من الجهة الأخرى لا يعرفون ماهية الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهروطيسي. وقد لخص أحد العلماء مفهوم المادة في الوقت الحاضر بقوله: (إنها تتألف من شيء نعجز الآن عن تكوين صورة له ولو أننا نستطيع وضع المعادلات الرياضية لوصف حركته).

إن عجزنا عن فهم المادة يشبه عجزنا عن فهم الكهرباء الذي يجري في الأسلاك. فنحن نستطيع أن نقيس قوة تياره بالآلات التي لدينا ولكننا مع ذلك لا نعرف ماهيته.

ومن الممكن أن نقول مثل هذا عن القدرات الخارقة التي يملكها بعض الأفراد، كالعائنية وغيرها. فهي قد تحقق وجودها علمياً ولكننا مع ذلك لا نعرف ماهيتها أو تعليلها.

أجرى أحد العلماء فحصاً لشخص يملك قدرة عائنية فائقة، فوجد أن مخه يصدر أمواجاً كهرومغناطسية ذات قوة هي أضعاف قوة الأمواج التي يصدرها مخ الشخص العادي. وهنا يواجهنا السؤال: لماذا تميز هذا الشخص بالقدرة على إصدار أمواج قوية جداً من مخه؟ وكيف يستطيع بها أن يؤثر على الأشياء التي يركز نظره عليها؟ إن هذا السؤال يمكن الجواب عليه بقول الشاعر إيليا أبو ماضي: (لست أدري! ولماذا لست أدري!)

س: ما هو رأي علماء الإسلام في العائنية؟

ج: إن علماء الإسلام انقسموا في موضوع العائنية إلى فريقين متعارضين. ففريق منهم أنكروا وكان في مقدمتهم الغزالي. أما الفريق الآخر فقد اعتقدوا بصحته وكان في مقدمتهم ابن القيم.

إن ابن القيم بحث هذا الموضوع في كتابه (الطب النبوي)، وهو يستند فيه على أحاديث نبوية روتها كتب الأحاديث الموثوقة كصحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. ففي أحد تلك الأحاديث وهو مروي عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: إن النبي ﷺ أمر بأن نسترقي من العين. ومعنى هذا الحديث أن النبي أمر بقراءة التعاويذ للوقاية من العين. وفي حديث آخر مروي عن الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: إن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجن ومن عين الإنسان.

إني مع تقديري الكبير للغزالي في كثير من آرائه غير أني اختلف معه في رأيه في العائنية.

والظاهر أن الغزالي إنما أنكر العائنية لأنه وجد العوام يفرطون في التخوف منها وقد انتشرت بينهم من جراء ذلك عادات خرافية ضارة.

س: إن العادات الخرافية التي كانت منتشرة بين العوام في أيام الغزالي ظلت منتشرة بين العوام حتى عهد متأخر، وإنك أدركت ذلك في صباك. والرجاء أن تحدثنا عنها في هذه المناسبة.

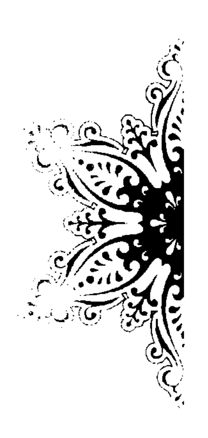
ج: إن تلك العادات الخرافية كانت كثيرة الانتشار بين العوام في أيام طفولتي وصباي، وما زال البعض منها موجوداً بينهم حتى الآن.

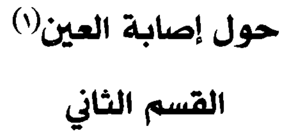
إنهم كانوا يربطون بين إصابة العين والحسد، فكانوا يخشون من كل نظرة إعجاب ينظر بها أحد الناس نحو أمر يخصهم كالطفل أو الدار الجديدة أو الحلي أو الثروة أو غيرها. فلا يكاد أحد الناس يوجه نظرة إعجاب نحو طفل مثلاً. أو يقول فيه كلمة مدح، حتى تسرع الأم إلى قراءة التعاويذ لوقاية طفلها من نظرة الحسد التي هي خطرة عليه في زعمها.

وإني أتذكر كيف كان الشخص الذي يبني داراً جديدة يضع فوق بابها حدوة حصان أو نعل لكي يقيها من عين الحساد. وكذلك أتذكر كثرة التعاويذ والخرز التي تضعها الأمهات على رؤوس أطفالهن أو حول رقابهم لوقايتهم من العين.

إن تعليم الناس ونشر الحقائق العلمية بينهم كفيل بتقليص هذه العادات الضارة فيهم أو القضاء عليهم. إن العائنية وإن كانت حقيقة علمية غير أنها ليست بالصورة التي يتصورها العوام. وهذا موضوع آخر ربما عدنا إليه في فرصة أخرى.







حول إصابة العين[1]

القسم الثاني

نشرنا في الحلقة الماضية في القسم الأول من الحوار الذي أجراه محرر هذه الصفحة مع الدكتور علي الوردي حول إصابة العين، أو العائنية كما يسميها، والآن ننشر القسم الثاني منه:

س: إن العوام يحصرون تأثير العين في الضرر الناتج عن الحسد، والذي نريد أن نعرفه ما هي التأثيرات التي اكتشفها العلم في العائنية، وهل هي نوع واحد أو أنواع شتى؟

ج: إن العائنية لها تأثيرات متنوعة أذكر بعضها فيما يلي:

١ - يستطيع بعض الأفراد من الذين يملكون قدرة عائنية أن يحركوا بعض الأشياء التي توضع أمامهم على المنضدة بمجرد تركيز النظر عليها. ومن هؤلاء الأفراد امرأة روسية اسمها (نيليا ميخائيلوفا). ففي عام ١٩٦٨ ذكرت الإذاعات العالمية خبر هذه المرأة ووصفتها بأنها عندما تحتاج إلى شيء يكفيها أن تثبت نظرها عليه ليبدأ الشيء بالانزلاق نحوها. وأذاعت وكالة (الأسوشيتدس برس) بياناً صحفياً صادراً عن

(١) العدد (١٤٨) ١٣ تشرين الثاني ١٩٨٩.

موسكو جاء فيه ما نصه: (إن نيليا ميخائيلوفا أذهلت العلماء السوفيات بقدرتها على تحريك عيدان الثقاب أو كؤوس الخمر بدون أن تمسها).

٢ ـ إن بعض العائنين قد يتفوقون على نيليا ميخائيلوفا بكونهم لا يكتفون بتحريك الأشياء الموضوعة أمامهم بل هم يتمكنون من تحطيمها. وهذا هو ما كان يفعله (داهش) اللبناني. فقد حدثني صديق التقى به في بيروت قبل بضع عشرة سنة، وقال عنه إنه ركز نظره على كأس فارغ من الزجاج كان موضوعاً أمامه على المنضدة، فانكسر الكأس وظهرت الشقوق فيه من دون أن يلمسه أحد.

٣ ـ في عام ١٩٥٢ تحدثت الصحف السورية واللبنانية عن حادثة عائنية وقعت في معمل الزجاج في دمشق، وكان معملاً كبيراً يضم آلات ومحركات ضخمة. فدخل إليه رجل يملك قدرة عائنية، وصار يبدي دهشته وإعجابه بآلاته ومحركاته، ولا سيما بالمحرك الرئيسي فيه. فتوقف هذا المحرك عن العمل فجأة. وأسرع المهندسون يبحثون عن سبب العطل فيه فوجدوا فيه زجاجة تعترض العجلة الكبيرة فيه، كما وجدوا عيناً مرسومة في تلك الزجاجة. فحمل المدير تلك الزجاجة إلى مختبرات الجامعة الأمريكية في بيروت لفحصها. ولا ندري ماذا كانت نتيجة الفحص.

٤ ـ منذ مدة قصيرة ذكرت بعض الصحف العراقية خبراً عن فتاة صينية اسمها (زهين كسيانغ لينغ)، وقالت عنها إنها قادرة على قتل حيوان أو كسر إبرة بنظرة واحدة. وذكرت الصحف أيضاً أن هذه الفتاة لها قدرات خارقة أخرى بالإضافة إلى العائنية إذ هي تستطيع أن تعرف جنس الهجين في بطن أمه، كما أنها تستطيع أن ترى الهيكل العظيم لأي إنسان على نحو ما تفعل أشعة إكس.

٥ ـ في عام ١٩٧٢ ذكرت وكالات الأنباء عن رجل بريطاني اسمه (يوري

ميللر) أن لديه مقدرة على ثني المسامير والمفاتيح والملاعق بمجرد تركيز نظره عليها. وقد عرضت بعض أفاعليه العجيبة على شاشة التلفاز في بريطانيا، وألفت جمعية المباحث النفسية في لندن لجنة لفحصه.

٦ ـ ظهر في روسيا رجل اسمه أرمولاجيف يستطيع أن يجعل الأشياء تطير في الهواء. وقد أجرى عليه أحد العلماء وهو الأستاذ بوشكين فحصاً في مختبرات جامعة موسكو، وكتب عنه تقريراً في جريدة (ترود) في عام ١٩٧٤ قال فيه: (رأيت بنفسي مواد كثيرة تتحرك بين يدي ارمولاجيف وتسبح في الهواء. والظاهر أن وزنها الحقيقي لا يلعب دوراً في هذه التجارب. وبعد كل تجربة يجريها أرمولاجيف يبدو عليه الإعياء وكأنه بذل مجهوداً ضخماً. وفي تجربة أخرى وضع أرمولاجيف يده فوق يدي صديقه كما لو كان يغطي المواد السابحة في الهواء وبهذه الطريقة استطاع أرمولاجيف إبقاء المادة السابحة في الهواء لمدة أطول. وقد قاما بالتجربة تحت رقابة شديدة. وفي بداية التجربة كان أرمولاجيف عصبياً جداً وظهر كأن ثقته بنفسه كانت ضعيفة وسبحت المواد لمدة ثانيتين في الهواء ثم طلب أن يسود الهدوء. وركز من جديد وبدا كأنه استرد ثقته بنفسه، وبقيت المواد سابحة في الهواء لمدة أطول).

٧ ـ في أواخر القرن التاسع ظهر في بريطانيا رجل عجيب جداً اسمه (هوم) فقد كان هذا الرجل قادراً على تحريك المناضد ورفعها بمجرد النظر إليها، وكذلك جعل الآلات الموسيقية تعزف من تلقاء نفسها، وكان قادراً على الطيران بين نافذة وأخرى في بناية عالية. وقد جاء إليه العالم البريطاني المعروف وليم كروكس لمشاهدة أفاعليه، ثم كتب تقريراً عنه لإحدى المجلات العلمية قال فيه:

(كل ما رأيته منه جرى في النور ولا أتاخر عن الشهادة بأن الظواهر التي

شاهدتها تناقض تمام التناقض المبادئ العلمية المقررة كقانون الجاذبية في تأثيرها المطلق الدائم، وإن في رأسي نزاعاً بين عقلي الذي يحكم بأن هذه الظواهر مستحيلة الوقوع من الوجهة العلمية. وشعوري بأن ما رأيته بعيني ولمسته بيدي لم يكن كذباً باطلاً).

وأوفدت جامعة هارفرد الأمريكية أربعة من أساتذتها لفحص هوم وأفاعليه العجيبة. وقد كتب هؤلاء الأساتذة تقريراً بعد فحصهم له ذكروا فيه الأعمال التي شاهدوها منه، منها أن أحدهم جلس على منضدة وصارت المنضدة تهتز بعنف شديد. ثم مالت أخيراً واستقرت على قائمتين. وهي ظلت كذلك حتى بعد أن انضم إلى الأستاذ الجالس فوقها أستاذان آخران حيث جلسا فوقها معه. ويقول الأساتذة في تقريرهم:

إن هوم ألح مراراً بأن يشدوا رجليه ويديه، وكانت الغرفة جيدة الإضاءة. وإنهم قاموا بفحصهم له بكل تدقيق وموضوعية وثبت لديهم أنه لم يحتل عليهم ولم يخدعهم.

س: إذا كانت العائنية بهذا التنوع الذي ذكرته. فلماذا حصر العوام العائنية في نظرة الحسد فقط وما رأي العلم في ذلك؟

ج: إن العلم ما زال في بداية الطريق من حيث دراسته لهذا الموضوع أو غيره من المواضيع الخارقية الأخرى. ومن يدرينا ما سوف يأتينا به العلم غداً.

ومهما يكن الحال فإن من الممكن القول إن العوام بالغوا في ربط العائنية بالحسد، كما هو دأبهم في كثير من الأمور. ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن الذين يملكون قدرة عائنية فائقة ليسوا كلهم من الحسودين الذين يحبون الإضرار بالناس، على نحو ما يعتقد به العوام. ولا بدّ أن يكون فيهم من هو صالح طيب لا يحب الإضرار بالغير.

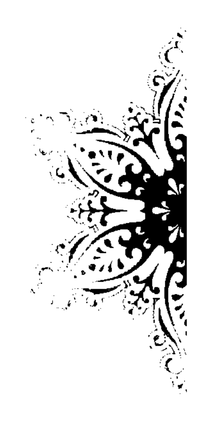
أذكر في هذه المناسبة قصة رواها رجل يوثق به هو المؤلف المصري

المعروف محمد فريد وجدي ونشرتها مجلة (الإثنين) في عام ١٩٤٥، وملخصها أن رجلاً في الهند اشتهر بإصابة العين إذ كان قادراً على القتل بالنظر إذا أراد. وقد سمع به رجل من أصدقاء محمد فريد وجدي اسمه محمد بن عقيل الحضرمي وكان تاجراً في سنغافورة. فسافر الحضرمي قاصداً مشاهدة ذلك الرجل واختبار مقدرته الخارقة. وعندما التقى به طلب منه أن يريه كيف يصيب بالعين. وصادف في تلك اللحظة أن مرت بهما امرأة قروية وهي تسوق بقرة أمامها. فقال الرجل للحضرمي: (إذا تعهدت بدفع ثمن البقرة إلى صاحبها فإني أستطيع أن أقتلها بالنظر). ولما وافق الحضرمي على دفع ثمن البقرة أخذ الرجل يركز نظره على البقرة فسقطت ميتة. وصارت المرأة تصرخ وتولول لموت بقرتها. وأسرع إليها الحضرمي يسألها عن ثمن بقرتها، ثم دفعه لها حالاً.

إن هذه القصة تدل على أن هذا العائن الهندي كان صالحاً طيباً فهو لم يقتل البقرة إلا بعد أن تعهد الحضرمي بدفع ثمنها إلى صاحبتها.

وهنا قد يرد على البال سؤال: ماذا يحصل في الناس لو كان هذا العائن الهندي شريراً لئيماً؟

ليس لنا جواب لهذا السؤال إلا أن نقول: رحماك يا رب!

حول علم الخارقية الجديد[1]

في الحلقتين الماضيتين من هذه الصفحة نشرنا الحوار الذي أجراه محرر الصفحة مع الدكتور علي الوردي في موضوع إصابة العين، أو (العائنية) كما يسميها الوردي. وقد أثار هذا الحوار اهتمام بعض القراء ووردتنا منهم رسائل يطلبون فيها المزيد من التوضيح في هذا الموضوع وفي غيره من المواضيع التي يبحثها علم الخارقية الجديد.

وقد طلبنا من الدكتور الوردي أن يكتب لنا شيئاً عن هذا العلم الجديد كيف بدأ وكيف نما وتطور وما هو المستقبل الذي يتوقع له؟ فكتب لنا الوردي ما يلي:

يقول الوردي:

إن علم الخارقية ـ أو الباراسيكولوجي كما يسمى في اللغات الأجنبية ـ بدأ في عام ١٨٨٢. وقد مر في تطوره منذ بدايته حتى الآن بمراحل ثلاث هي كما يلي:

١ ـ مرحلة الجمعيات العلمية.

---

(١) العدد (١٤٩) ٢٠ تشرين الثاني ١٩٨٩.

٢ ـ مرحلة الأقسام الجامعية.

٣ ـ مرحلة التنافس الدولي.

إني ذكرت سابقاً عن المرحلة الأولى وهي التي بدأت في عام ١٨٨٢ عندما تأسست في بريطانيا جمعية سميت (جمعية المباحث النفسية) وكان الغرض منها البحث عن أصحاب القدرات الخارقة ووضعهم تحت الدراسة التجريبية والموضوعية. وقد نجحت هذه الجمعية في عملها مما أدى إلى تأسيس جميعات مماثلة في بلاد أخرى.

أما المرحلة الثانية في تطور علم الخارقية فهي بدأت عام ١٩٣٠. ويعزى الفضل في تأسيسها إلى الأستاذ راين من جامعة ديوك في الولايات المتحدة. فقد أنشأ هذا الأستاذ قسماً في جامعة ديوك لهذا الغرض، وهو الذي أطلق على العلم الجديد الاسم المتداول الآن في اللغات الأجنبية أي (الباراسيكولوجي).

سار الأستاذ راين في دراسة القدرات الخارقة على طريقة أخرى تختلف عن طريقة جمعيات المباحث النفسية التي أشرت إليها آنفاً. فهذه الجمعيات تبحث عن أصحاب القدرات الخارقة لكي تدرسهم. أما راين فقد وضع منهجاً لدراسة الناس على طريقة التجريب والإحصاء، باعتبار أن كل فرد من البشر لديه شيء من القدرات الخارقة قليلاً أو كثيراً، فأكثر الناس لديهم هذه القدرات بدرجة ضعيفة لا يشعرون بها ولا تؤثر في حياتهم، بينما هناك أفراد قليلون يتميزون بالدرجة العالية فيها وهم يقدرون على استثمارها في حياتهم على وجه من الوجوه.

ويحدثنا راين في كتبه عن الصعوبات التي جابهها في عمله الرائد. فقد ظهر تجاهه كتاب وأساتذة يشجبون عمله ويعتبرونه ترويجاً للخرافات العلمية. وهو يروي عن أحد الأساتذة الجامعيين أنه كان يعمل في هذا العلم سراً وقد توصل فيه إلى نتائج مهمة ولكنه امتنع عن نشرها إذ قال: (إن عائلتي تريد

طعاماً). وكان يقصد من ذلك أنه يخشى أن ينشر نتائج أبحاثه فيؤدي نشرها إلى طرده من الجامعة التي يعمل فيها وعند هذا تبقى عائلته بلا طعام.

والواقع أني حين أقرأ ما ذكره راين في كتبه عن المقاومة التي جابهها في الثلاثينيات أتذكر ما حدث عندنا في العراق في الخمسينيات عندما نشرت أنا بعض نتائج العلم الجديد على القراء. فإني لم أكن سوى ناقل، وناقل الكفر ليس بكافر كما قيل قديماً، ولكن بعض الأساتذة والكتاب شنوا علي حملة شعواء واتهموني بشتى التهم. وما زلت أحتفظ بالمقالات التي كتبوها في هذا الشأن. ويطيب لي أحياناً أن أقرأ فيها لكي أضحك على نفسي وعلى البشر.

المرحلة الثالثة:

إن المرحلة الثالثة التي بدأ بها الأستاذ راين استمرت نحو ثلاثين سنة وقد أخذت بعض الجامعات في أمريكا وأوروبا تحذو حذو جامعة ديوك في تأسيس أقسام فيها لدراسة العلم الجديد. ولكن ذلك ظل محصوراً في البلاد الرأسمالية فقط، أما في البلاد الاشتراكية فقد كان الحال مختلفاً.

إن المقاومة التي جابهها العلم الجديد في البلاد الرأسمالية كانت مقتصرة على الأوساط الجامعية تقريباً. ولم تشارك فيها الحكومة. فقد اعتادت الحكومة في تلك البلاد على عدم التدخل في الجدال الذي يقع بين الناس. أما في البلاد الاشتراكية فالحكومة تولي اهتماماً كبيراً لما يدور بين الناس من مجادلات فكرية، وهي تشجع جانباً منها بينما تمنع الجانب الآخر.

إن النظرية الماركسية التي تلتزم بها الحكومة في البلاد الاشتركية تقوم على أساس المادية وتحارب كل ما يخالفها. ولهذا كانت تنظر إلى علم الخارقية الجديد نظرة استنكار وتحريم، وكانت تعتبره علماً فيزيقياً أي غير مادي. وكانت هذه النظرة تجاه العلم الجديد على أشدها في عهد ستالين الذي كان دكتاتوراً سفاكاً ضيق الأفق، كما هو معروف.

ظل الاتحاد السوفياتي يسير على هذه الخطة السلبية تجاه علم الخارقية حتى عام ١٩٥٩. ففي ذلك العام نشرت بعض الصحف الفرنسية خبراً مثيراً بعناوين بارزة حول الغواصة الأمريكية الذرية (ناويتلوس). وفحوى الخبر أن الحكومة الأمريكية استخدمت في تلك الغواصة شخصاً يملك قدرة خارقة على قراءة الأفكار وأن هذا الشخص أخذ يتصل عن طريق هذه القدرة بشخص آخر بعيد عنه على الشاطئ. وتساءلت الصحف التي نشرت الخبر قائلة: هل القدرات النفسية الخارقة سلاح سري جديد؟ وهل ستلعب هذه القدرات دوراً حاسماً في الحروب المقبلة؟ وهل نجح العسكريون الأمريكيون في اكتشاف سر الروح؟!

إن هذا الخبر وما أحاطت به الصحف الفرنسية من تعليقات وتساؤلات مثيرة أثار الاهتمام البالغ في الأوساط السياسية والأمنية في الاتحاد السوفياتي. إن الحكومة الأميركية قد كذبت الخبر، ولكن الروس لم يكترثوا لتكذيبها، ولعلهم ظنوا أن التكذيب يقصد به التدليس والمراوغة. ويبدو أن روسيا خشيت أن تتفوق عليها أمريكا في أمر هي غافلة عنه.

وفي ذلك الحين علمت الاستخبارات السوفياتية أن الرئيس الصيني ماوتسي تونغ قد أوعز إلى حكومته بتحقيق قفزة في مضمار دراسة القدرات النفسية الخارقة. ويقال: إن خوف الروس من الصين في هذا المجال أن سبباً إضافياً جعل الروس يصممون على بذل الجهد الأكبر في دراسة العلم الجديد وفي السبق فيه.

وعلى كل حال فقد كان عام ١٩٦٠ بداية المرحلة الثالثة لتطور علم الخارقية الجديد. فقد اخترق هذا العلم الجدار الحديدي للاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية الأخرى، وصار فيها علماً معترفاً به ومحترماً. وأخذت الأموال والجهود تنصب فيه انصباباً ذريعاً.

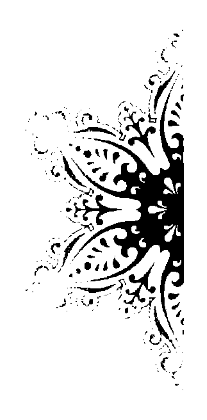
ويقال إن الدولتين الكبيرتين ـ الأميركية والسوفياتية ـ صارتا تتنافسان في

هذا العلم الجديد على نحو ما تفعلان في علم الذرة وغيره، وتبعثان الجواسيس لمعرفة أحدث المكتشفات فيه. وفي حزيران ١٩٧٧ أذاعت وكالات الأنباء خبراً مثيراً من هذه الناحية، خلاصته أن السلطة في موسكو ألقت القبض على صحافي أمريكي اسمه (روبرت روث) متهمة إياه بأنه اتصل سراً بعالم روسي وتسلم منه وثيقة تتصل بأسرار علم الخارقية، وبعد التحقيق معه أطلق سراحه. وذكر روبرت روث في تقرير له كتبه بعد ذلك أن أحد المحققين معه قال له إن علم الخارقية يمكن أن يكون سراً من أسرار الدولة.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن العالم الروسي فاسيليف الحائز على جائزة لينين للبحوث العلمية كان يعمل سراً في علم الخارقية منذ عام ١٩٣٢. وكان يتكتم فيه ولا يعلن عنه شيئاً خوفاً من ستالين. ولكنه في عام ١٩٦٠ أصبح محط الأنظار، وقد استدعته الحكومة السوفياتية وطلبت منه التفرغ لدراسة هذا العلم وأمدته بالأموال. وقد صرح هذا العالم ذات مرة قائلاً: (إن اكتشاف الطاقة التي تمثلها القدرات النفسية الخارقة سيكون له من الأهمية بقدر ما كان لاكتشاف الطاقة النووية).

ويؤسفني أن أعلن في هذه المناسبة أن هذا العالم العظيم قد توفي مؤخراً ـ تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته!





حول علم الخارقية مرة أخرى[1]

في الحلقة الماضية من حديث الدكتور علي الوردي حول علم الخارقية الجديد ـ أي الباراسيكولوجي كما يسمونه في اللغات الأجنبية ـ وهو العلم الذي شغل الأذهان في الوقت الحاضر وصدرت حوله كتب عديدة. وقد رجونا من الدكتور الوردي أن يواصل الحديث فيه، فكتب لنا مشكوراً ما يلي:

يقول الوردي:

أصبحت لعلم الخارقية أهمية كبيرة من نواح مختلفة أهمها ثلاث هي:

١ ـ الناحية العسكرية.

٢ ـ الناحية الاجتماعية.

٣ ـ الناحية الشخصية.

أشرت في الحلقة الماضية من هذه الصفحة إلى الأهمية الكبيرة التي أخذت الدول الكبرى توليها لعلم الخارقية وكيف صارت تتنافس للسبق فيه، إذ أصبح له دور مهم في الشؤون العسكرية وغيرها.

إن الدول اليوم تبحث عن أصحاب القدرات الخارقية من بين مواطنيها

(١) العدد (١٥٠) ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٩.

لكي تستخدمهم في مشاريعها العسكرية. وقد تبين لوكالة المخابرات الأميركية أن بعض أصحاب القدرات الخارقة قادرون على اكتشاف مواضع القواعد العسكرية السرية في دولة أخرى وكذلك معرفة محتويات الإضبارات السرية فيها. وقد تبين أيضاً أن من المحتمل جداً إرسال إحدى الدول أصحاب القدرات إلى دولة أخرى للتأثير على بعض القادة أو الساسة الكبار فيها أو قراءة أفكارهم. وربما لقتل أحدهم عن طريق تركيز النظر عليه. وهنالك من يقول: إن أسرار الدول قد لا تبقى سرية عند تطور علم الخارقية إلى الدرجة الكافية.

الناحية الاجتماعية:

إن أهمية علم الخارقية من الناحية الاجتماعية قد لا تقل عن أهميته من الناحية العسكرية. فقد أصبح علماء الاجتماع يولون هذا العلم اهتماماً كبيراً لأنه يساعدهم على تفسير كثير من المعتقدات والعادات التي انتشرت بين العوام في مختلف الشعوب. كالمعتقدات التي تدور حول الجن أو السحر أو إصابة العين أو غيرها.

خذ على سبيل المثال المعتقدات التي تدور حول الجن، فإن لها أساساً من الواقع وإن كان بشكل آخر غير الشكل الذي يفهمه العوام. فالعوام كانوا وما زالوا ينظرون بدهشة إلى الأفاعيل التي يقوم بها أصحاب القدرات الخارقة فلا يجدون لها تفسيراً إلا بتخيل مخلوقات من الجن يقومون بتلك الأفاعيل التي لا يقدر عليها الفرد العادي والعوام لا بدّ أن يبالغوا في تخيلاتهم هذه كما هو ديدنهم في هذه الأمور.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن كثير من المعتقدات العامية والخرافات والأساطير التي انتشرت بين الناس قديماً، وما زال البعض منها منتشراً بينهم حتى الآن، فهي لم تنشأ عن لا شيء، لا بدّ أن يكون لها أساس من الواقع قليلاً أو كثيراً. وقد فتح لنا علم الخارقية الجديد مجالاً نستطيع به أن نفهم

البشر على حقيقتهم بدون أن نشغل أذهاننا في متاهات فكرية لا طائل وراءها.

الناحية الشخصية:

كثيراً ما نجد بين الناس أفراداً نجحوا في حياتهم لسبب لا نعرفه ولا يعرفونه هم أنفسهم وهذا هو الذي جعل الناس يعتقدون بـ (الحظ). وقد وجد الأنثربولوجيون أن الاعتقاد بـ (الحظ) موجود في جميع الشعوب البدائية وما زال أثره باقياً في الشعوب المتحضرة غير أنهم يطلقون عليه اسم (الصدفة) مع العلم أن الصدفة لا تكفي وحدها لتفسير النجاح الذي يناله بعض الأفراد في كثير من الأحيان.

تبين الآن علمياً أن النجاح في الحياة قد يكون له سبب في وجود قدرة خارقة لدى صاحبه، كالقدرة العائنية أو التخاطرية أو التنبؤية أو الاستبصارية أو الإيحائية أو غيرها. فالفرد الناجح قد تكون لديه واحدة من هذه القدرات أو أكثر من واحدة، ثم ساعدته الظروف على العمل في مهنة أو مجال تنفع فيهما تلك القدرة. إنه قد لا يعرف السبب في نجاحه وهو قد ينسب نجاحه إلى إرادة الله أو إلى الحظ أو إلى سبب آخر حسب المعتقدات الشائعة في مجتمعه.

خذ مثلاً قدرة التخاطر ونعني بها القدرة على قراءة أفكار الغير. فهذه القدرة تنفع كثيراً في مجال التجارة والسياسة والإرادة وكل مجال يحتاج الإنسان فيه إلى معرفة الناس وكيف يفكرون.

أعرف تاجراً ناجحاً في أعماله التجارية إلى درجة كبيرة وقد حدثني عن سبب نجاحه قائلاً إنه قادر أن يعرف نية أي زبون جديد حالما يدخل عليه في مكتبه، وهل هو أمين أو مخادع، وهل هو عازم على شراء البضاعة أو متردد فيها وقد اعترف هذا التاجر لي أن حدسه لا يصدق في جميع الحالات، بل هو يصدق في حدود التسعين بالمائة تقريباً. وهذا يكفي لنجاحه في معاملة الزبائن إلى حدٍّ كبير.

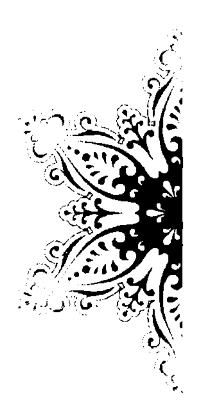
ومن الجدير بالذكر هنا أن التجار الناجحين ليسوا كلهم مثل صاحبنا يعرفون سر نجاحهم على النحو الذي ذكرناه. فهذا الرجل هو من القليلين الذين يجمعون بين الثقافة والنجاح في التجارة. ومن الممكن القول إن الثقافة قد تضر التاجر في بعض الأحيان، لأن قدرة التخاطر لا شعورية وهي قد يربكها أو يفسدها التمنطق الثقافي أحياناً.

إن التاجر الذي يملك قدرة تخاطرية كبيرة يجب أن يندفع مع إيحاء قدرته دون أن يربكها بتفكيره المنطقي الواعي ومن هنا جاء المثل الدارج في أسواق بغداد هو قولهم (الذي يدخل السوق يجب أن يضع عقله على الرف).

المعروف عن بعض التجار الناجحين أنهم يبدو عليهم الغباء من الناحية الثقافية. فالواحد منهم قد لا يحسن الحديث، أو هو سخيف جداً في بعض أحاديثه. وكثيراً ما يتعجب الناس عند رؤيتهم لرجل من هذا الطراز ويتساءلون عن سر نجاحه بالرغم من غبائه الظاهر. إنهم لا يدرون أن هذا الرجل لو كان مثقفاً أو محدثاً لبقاً لأخفق في تجارته. فإن الأفكار التي تشغل أذهان المثقفين قد تعرقل الاندفاع اللاشعوري الذي يؤدي إلى النجاح في التجارة في كثير من الأحيان.

وهنا يجب أن نذكر مرة أخرى أن القدرة التخاطرية ليست وحدها هي سبب النجاح في مجال التجارة أو غيرها من مجالات الحياة. فهناك القدرات التنبؤية والاستبصارية والإيحائية والعائنية وغيرها فكل واحدة من هذه القدرات الخارقة قد يكون لها دور قليل أو كثير في نجاح الإنسان في حياته كما أشرت إليه من قبل.





حول التراثية[1]

نشرت هذه الجريدة في ٣٠/ ١٠/ ٨٩ مقالة للأستاذ محمد إدريس العبدالله ينتقد فيها آراء الدكتور علي الوردي التي تحدث عنها في صفحة (النفس والمجتمع) من هذه الجريدة فهو يصف الوردي بأنه يعمد إلى الأحكام المرتجلة والتعميمات الجزافية، كما يعمد إلى إقصاء أبسط البداهات وعدم مراعاة الأوليات حين كتب يقول بكل ما قاله عن طبيعة الإنسان. . . وقد قرأ الدكتور الوردي هذه المقال وكتب عليها رداً ننشره فيما يلي:

يقول الوردي:

إني عندما قرأت مقالة الأستاذ الناقد أدركت أنه لم يقرأ جميع المقالات التي نشرتها جريدة (الاتحاد) لي، بل هو قرأ بعضها ولم يتسن له أن يقرأ البعض الآخر منها. ولو أنه كان قد قرأ جميع المقالات لما وجه لي مثل هذا الانتقاد الشديد ـ سامحه الله!

إنه يقول عني أني أتبع النظرة الأحادية في تفسير المجتمع وهي التي تقول بأن المجتمع يقوم على التنازع وحده. وهذه نظرة أنا بريء كل البراءة، ولكن

(١) العدد (١٥١) ٤ كانون الأول ١٩٨٩.

الأستاذ يلصقها بي ثم يبدأ بمهاجمتها من أجل مهاجمتي حيث يقول في ذلك ما نصه:

(ثابت أن التنازع طبيعة في المجتمع ولكن هل هو كل طبيعة المجتمع؟ الجواب: كلا. فهناك التوافق والانسجام وهو ما عبر عنه الفكر البنائي والوظيفي في علم الاجتماع).

الواقع أني استغربت حين قرأت هذه العبارة من الأستاذ الناقد، فهو يقول: إن طبيعة المجتمع فيها التعاون والتنازع معاً، وهذا هو ما قلته أو قريب منه في المقالة التي نشرتها لي جريدة (الاتحاد) في ٦/ ٣/ ٨٩. وفيما يلي أنقل نص ما قلته في المقالة المذكورة لكي يطلع عليها القراء الذين لم يطلعوا عليها في حينها، وهي:

(... فالتنازع والتعاون مترابطان في الطبيعة البشرية لا ينفك أحدهما عن الآخر.. إن الإنسان لديه حاجات لا يمكن إشباعها إلا عن طريق التعاون مع الآخرين. ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يستمر في تعاونه حتى النهاية، ولا بدّ أن يجد نفسه في بعض الأحيان مدفوعاً نحو التنازع معهم على وجه من الوجوه.. إن تلازم التعاون والتنازع في المجتمع البشري هو الذي جعله يختلف عن مجتمع النحل والنمل وغيرهما من الحشرات الاجتماعية.. فإن المجتمعات الحشرية تظل على حالها دون تغير على مدى ملايين السنين. أما المجتمع البشري فهو لو قام على أساس التعاون وحده كالمجتمع الحشري لصار مثله جامداً ساكناً لا يعرف من دنياه غير ما ورثه من الآباء).

حول التراثية:

أنتقل بعد هذا إلى نقطة أخرى هاجمني بها الأستاذ الناقد وهي حول التراثية.

إني أقصد بالتراثية هنا مجموعة المعتقدات والعادات والمفاهيم والتقاليد

والقيم التي يتميز بها مجتمع عن آخر. فالفرد الذي ينشأ في تراثية منعزلة مغلقة يخضع لتنويم يمكن أن نسميه (التنويم الاجتماعي) فهو تحت تأثير هذا التنويم ينظر إلى الأمور من خلال تراثيته التي نشأ عليها، وهو لا يشعر بهذا التنويم، بل يتصور أنه حر في تفكيره وأن الحق واضح لديه. وإذا بقي الفرد في كبره تابعاً في تراثيته المنعزلة لا يعرف غيرها فإن التنويم الاجتماعي يظل مسيطراً على ذهنه، ولا ينقشع عنه التنويم إلا إذا اتصل بتراثيات أخرى، وكلما كان اتصاله أكثر كان انقشاع التنويم عنه أكبر.

إن هذا هو ما قلته في كتبي ومقالاتي كما يعرفه الذين قرؤوها. وهو في الواقع لم آت به من نفسي بل نقلته عما جاء به علم الاجتماع الحديث.

ويبدو أن الأستاذ الناقد لا يقبل به، فهو يرى أن التعصب التراثوي أمر شعوري وليس لا شعورياً. إنه يقول في ذلك ما نصه:

فالتراث أمر يعيه الفرد ويدركه. فكل جماعة لها تقاليد وعادات كنمط للسلوك وكمفاهيم للتفكير تنتقل إليها عبر الأجيال وهي تتلقاها بوعي وتحافظ عليها. والأستاذ الفاضل (يقصدني أنا) يقول: (إن الإنسان محكوم بالتراث وإنه لو كان قد نشأ في تراثية أخرى لكان تفكيره من نمط آخر). فلو سلمنا بهذا لكان المجتمع ساكناً لا يتقدم ولا يتأخر. فهناك إضافة إلى الماضي التراثي، الجديد المستحدث والوافد من مجتمعات أخرى يؤثر في الوعي الاجتماعي، إضافة إلى أن الفكر لا يتحدد في صيغه العليا بالمجتمع، فمبادئ العقل هي الزمان والمكان، فالمنطق ومقولاته والرياضيات ومعادلاتها هي في الصين نفسها في أمريكا...).

أرجو أن يسمح ليس الأستاذ الناقد أن أقول: إن هذه العبارات التي جاء بها لا تختلف كثيراً عن تلك التي اعتاد عليها العقلانيون القدامى. وإني أحب في هذه المناسبة أن أقدم إليه هذا السؤال: (إذا كنت قد نشأت في بيئة تعبد

الأوثان كما كان أهل الجاهلية يفعلون ولم تعرف غيرها، ثم جاء نبي كمحمد يدعوك إلى ترك الأوثان وعبادة الله الواحد القهار، فماذا كنت تصنع؟!

لعلك ستجيبني بأنك تسرع إلى تلبية دعوة النبي حالاً لأن لديك عقلاً يرشدك إلى الإيمان بصحة دعوته، فالأوثان يصنعها الناس بأيديهم ثم يعبدونها، وهذا أمر لا يقبله العقل أبداً.

إن قولك هذا إنما تقوله الآن لأنك نشأت في بيئة تقدس النبي وتحتقر عبادة الأوثان، ولو أنك كنت قد نشأت في بيئة وثنية لكنت من أعداء النبي والمستهزئين بدعوته في الغالب.

إني لا أستبعد أن تكون من الملبين الأولين للدعوة النبوية، ولكن هذا احتمال ضعيف، فقد اتضح الآن أن كل دعوة نبوية أو إصلاحية لا بدّ أن يقاومها في بداية أمرها الأكثرون، ولا يتبعها إلا الأقلون. وفي هذا مصداق لما ورد في القرآن الكريم: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

إن النبي محمداً ﷺ على عظمة شخصيته وعظمة ما جاء به لم يتبعه خلال السنوات التسع الأولى من دعوته سوى أربعين شخصاً، أي أن الناس لم يدخلوا في الدعوة الجديدة إلا بمعدل واحد في كل ثلاثة أشهر تقريباً.

يجب أن لا ننسى أن المجتمع البشري كلما كان أكثر انعزالاً وانغلاقاً كان التنويم الاجتماعي أقوى تأثيراً على أفراده. ولذا قد يصح القول: إن النبي لو كان قد ظهر في قرية نائية منعزلة لما اتبعه أحد، ولكن ظهوره في مكة هو الذي أدى إلى تلبية أولئك القليلين له. ومن الجدير بالذكر أن المجتمع المكي كان مفتوحاً نسبياً، إذ هو كان مركزاً تجارياً من جهة ومركزاً للحج من جهة أخرى.

إن التنويم الاجتماعي لا يخضع لإرادة الإنسان إلا ضمن حد محدود. وهناك عوامل شتى تلعب دورها فيه. كالذكاء وسعة الثقافة وتنوعها والاتصال

الاجتماعي، إضافة إلى ما في البيئة التي يعيش فيها الإنسان من انغلاق أو انفتاح.

في النجف:

في ١٠/ ١٠/ ٨٩ ألقيت محاضرة في النجف بناء على دعوة من اتحاد الأدباء فيها، وقد تطرقت في المحاضرة إلى العقل البشري والعوامل اللاشعورية التي تؤثر فيه. وقد ناقشني في ختام المحاضرة أحد الأساتذة هناك وذكر (العقل السوي) وقال عنه إنه يستطيع أن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية دون أن يتأثر بالعوامل اللاشعورية.

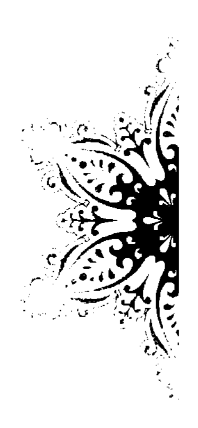
إن ما قاله هذا الأستاذ المناقش يشبه ما يقوله الأستاذ الناقد في موضوع الإنسان الذي يملك عقلاً سوياً يسمو به عن التأثر بالعوامل اللاشعورية كالتنويم الاجتماعي والعاطفة والمصلحة والجهل وما أشبه ذلك. ولكن المشكلة التي نواجهها هنا هي أين نجد هذا الإنسان صاحب العقل السوي؟ فكل إنسان يحسب عقله سوياً وأنه لا يتأثر بالتراثية التي نشأ فيها ولا بالعاطفة أو المصلحة أو غيرها، بينما هو في حقيقة أمره متأثر بها قليلاً أو كثيراً.

وصف القرآن البشر بأن أكثرهم لا يعقلون، وأن أكثرهم للحق كارهون. وهذا هو الذي جعل أكثر الناس يقاومون كل دعوة إصلاحية جديدة تخالف ما نشؤوا عليه، أي ما وجدوه عليه آباءهم حسب التعبير القرآني.

إن هذا ناموس بشري عام يظهر مصادقة في كل زمان ومكان. فالبشر في الحاضر كالبشر في الماضي وكالبشر في المستقبل. ومن يريد أن يتعامل مع الناس يجب أن لا تفوته هذه الحقيقة.

إن الشخص الذي يتعامل مع الناس على أساس أنهم كلهم أو الأكثرية منهم من أصحاب العقل السوي لا بدّ أن يكون مصيره الفشل الذريع في الحياة ـ مع الأسف الشديد!

(للحديث بقية).

كلنا بشر[1]

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة ناقش الدكتور علي الوردي أحد الكتاب الذين انتقدوه على آرائه في طبيعة البشر. وفي هذه الحلقة يواصل الوردي مناقشته له، فنحن من جانبنا نرحب بكل نقاش في هذا الموضوع الذي له صلة وثيقة بواقع حياتنا.

يقول الوردي:

ليس القصد من هذه المناقشة أن أغلب الأستاذ الناقد أو أن أكيل له الصاع صاعين على نحو ما جرت عليه العادة في المناقشات العقلانية القديمة. إنما القصد منها أن يطلع القارئ على أوجه النظر حول طبيعة البشر، وربما انتفع منها في حياته العلمية على وجه من الوجوه.

إن الأستاذ الناقد ينقل عبارة مني من أجل انتقادها وهي قولي عن الإنسان إنه (كثيراً ما يندفع في حياته حسبما تملي عليه دوافعه اللاشعورية ولكنه يتصور أنه سائر في سبيل الحق والحقيقة أو في سبيل الله أو المصلحة العامة). وهو يعلق على هذه العبارة قائلاً ما نصه:

(إن إنسان الدكتور الوردي هذا الإنسان المسكين المأسوف عليه أجدر

---

(١) العدد (١٥٢) ١١ كانون الأول١٩٨٩.

شيء يعمله هو أن ينتحر فمكافأته ظلم وعقابه ظلم. إنه لا يدري أنه مسكون بأشباح لا شعورية تريه كل شيء بالمقلوب، أما العالم فأجدر شيء به الفناء، وما هي فائدة المصلحين والأنبياء إذن...).

وحين يقارن الأستاذ الناقد الطفل أو البدائي بالشخص البالغ أو المتحضر يقول: (إن السنة لا تقاس. فالطفل والبدائي يصدر سلوكه عن عفوية غريزية تأخذ شكل ردود أفعال (ميكانيكية) منفعلة غير واعية، وأما الرجل والمتحضر فيصدر عن إرادة واعية مدركة لنتائج الأقوال والأفعال فيعمد إلى التروي والأناة...).

يؤسفني أني لا أستطيع أن أرد على الأستاذ الناقد بتفصيل، لأن مقالاتي السابقة المنشورة في هذه الصفحة تتضمن رداً مفصلاً على ما قال بصورة مباشرة أو غير مباشرة وسوف أكتفي الآن بذكر بعض النقاط الموجزة منها ـ والله المستعان على كل حال!

أرجو من الأستاذ الناقد أن يعلم أن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان تحركه العوامل اللاشعورية من حيث يدري أو لا يدري. ولكن الفرق بين إنسان وآخر هو في الدرجة. فكلما كان الإنسان أكثر نضجاً ووعياً وثقافة وانفتاحاً كان تأثير العوامل اللاشعورية فيه أقل، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتحرر منها تحرراً تاماً. فهو إذا تمكن من التحرر من التنويم الاجتماعي مثلاً لا يتمكن من التحرر من العاطفة أو المصلحة أو الأنوية أو التجارب المنسية أو العقد النفسية أو غيرها.

بين البدائي والمتحضر:

إننا شهدنا ما فعل المتحضرون في الحرب العالمية الثانية فلم نجد فرقاً في الطبيعة البشرية بينهم وبين البدائيين، فهم جميعاً يتقاتلون ويتناحرون، وكل فريق منهم يعتقد أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه. ولكن الفرق بينهم هو في نوع السلاح الذي يستخدمونه في تناحرهم.

إن القصف الجوي الفظيع الذي سلطه الألمان على المدن البريطانية في أول الحرب، والقصف الأفظع منه الذي سلطه الحلفاء على المدن الألمانية فيما بعد، وما جرى على مدينتي هيروشيما ونيكازاكي من جراء إلقاء القنبلة الذرية عليهما، يدل على أن الإنسان لم يتغير في طبيعته، بل تغيرت أسلحته فقط.

وحين نقرأ ما كتبه كبار الساسة الذين ساهموا في إدارة تلك الحرب، نجد كل واحد منهم يضع اللوم فيها على الخصوم، ويبرئ نفسه وقومه منه. وهم في ذلك لا يختلفون في تفكيرهم عن البدائيين حين يتقاتلون، أو الأطفال حين يتشابكون بالأيدي ويتشاتمون.

زرت ذات يوم مدرسة للأطفال لكي أسجل أحد أحفادي فيها، فشهدت في غرفة المديرة حادثة ما زالت واضحة في ذاكرتي، وفحواها أن طفلين تشاجرا وجيء بهما إلى المديرة لكي تحكم بينهما ولكي تعاقب المعتدي. والواقع أني عندما استمعت إلى ما قاله كل طفل منهما من حيث تبرئة نفسه وإدانة خصمه وجدت أنه لا يختلف في أساس تفكيره عن جدل قبيلتين بدائيتين تتشاجران، أو دولتين متحضرتين تتنازعان.

إني عشت في طفولتي في بيئة كان النزاع بين المحلات فيها غير قليل، كما كان النزاع بين الأفراد في المحلة الواحدة غير قليل أيضاً. وكثيراً ما كنت أشاهد شجاراً عنيفاً بين النساء في أحد الأزقة، فهو يبدأ بمشاتمة بسيطة بين طفلين، فيضرب أحدهما الآخر، يذهب المضروب إلى أمه يشكو إليها من اعتداء خصمه عليه. وتخرج الأم صارخة مولولة، وهي تذكر الاعتداء الذي وقع على طفلها وتبالغ فيه، بينما هي تنسى الاعتداء الذي قام به ابنها. ومثل هذا تفعل أم الطفل الآخر. وقد يشتد الشجار بينهما إلى الدرجة التي تدعو إلى مشاركة الرجال فيها. وربما أدى ذلك إلى نشوب معركة دامية يسقط فيها بعض القتلى والجرحى.

إن هذا الذي يحدث في المناطق المتخلفة لا يختلف في أساسه

الاجتماعي والعقلي عن الذي يقع بين أرقى الدول في زماننا هذا كلهم بشر ولا يختلف بعضهم عن بعض إلا في الأساليب والوسائل التي يستخدمونها في تنازعهم أو تعاونهم.

حول الجهل:

إن الجهل هو أحد العوامل اللاشعورية التي تؤثر في الإنسان من حيث لا يدري بها. ولكن الأستاذ الناقد لا يوافق على هذا الرأي، ففي رأيه أن الإنسان يدري أنه جاهل عندما يكون جاهلاً، إلا إذا كان مصاباً بما يسميه المناطقة (الجهل المركب)، فهو عند ذلك لا يدري أنه جاهل.

إني أوافق الأستاذ على رأيه هذا ولكني أريد أن أساله: كم من الناس من يدري أنه جاهل ويعرف حدود جهله ومعرفته؟

إن أكثر الناس الذين عرفناهم وخالطناهم هم من أولئك الذين لا يعرفون حدود جهلهم ومعرفتهم إلا قليلاً. ولا يجوز أن نستثني أنفسنا من ذلك فكلنا بشر والعصمة لله وحده.

من الجدير بالذكر أننا جميعاً جاهلون، ولكن على درجات متفاوتة. فالعلم الكامل عند الله وحده، ولم يخلق الله إنساناً يعرف كل شيء في هذا الكون الهائل المليء بالألغاز. ولكن المشكلة في أكثر البشر الذين نعرفهم، ونحن منهم، أن كل واحد منهم يتصور نفسه أكثر علماً مما هو عليه في الحقيقة.

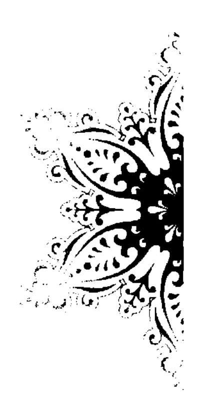
إن كل واحد من الناس يعرف حدود معرفته حين يسأل أصحاب المهن والاختصاصات في مجال مهنهم واختصاصهم، إذ هو يسأل الطبيب في موضوع الصحة، أو المحامي في موضوع القانون، أو المهندس في موضوع البناء، أو النجار في موضوع الأثاث، ولكنه لا يكاد يناقش في موضوع اجتماعي نفسي أو سياسي أو تاريخي أو ديني حتى يتحول فجأة إلى عالم لا حدَّ لعلمه.

والواقع أني عانيت من هذا معاناة لا حد لها. فقد ابتلاني الله بأن يكون اختصاصي في علم الاجتماع.

والطبيعة البشرية، وهذا موضوع يظن كل شخص أنه عالم فيه. وقد يحدث أحياناً أن أحضر في المجالس التي اعتدت على ارتيادها، وأذكر للحاضرين نظرية علمية جديدة ولكنها مخالفة للمفاهيم التي نشؤوا عليها، فأرى البعض منهم ينبري لمعارضتها وتفنيدها على الرغم من كونها ليست في مجال اختصاصه، وهو يأتي بمختلف الأدلة (العقلية) لتبيان وجه الخطأ منها.

إن هذا أمر كثير الحدوث في مجالس المتعلمين وغير المتعلمين، وفي بلادنا وبلاد غيرنا، إنما هو يختلف شدة وضعفاً تبعاً لاختلاف المستوى الحضاري والثقافي في الناس.

إن كل إنسان ـ كما أشرت إليه آنفاً ـ هو عالم وجاهل في آن واحد وعلى درجات متفاوتة. ولكن مشكلة الإنسان أنه لا يعرف حدود علمه بدقة إلا نادراً.

الإنسان والنحلة(١)

تحدث الدكتور علي الوردي في حلقات ماضية حول طبيعة البشر وكيف أنهم مجبولون على التنازع والتعاون معاً، وهم في ذلك يختلفون عن النحل والنمل وغيرها من الحشرات الاجتماعية التي يسيطر عليها التعاون فقط من غير تنازع.

وفي هذه الحلقة يقارن الوردي بين الإنسان والنحلة ويتناول أوجه التشابه والاختلاف بينهما.

يقول الوردي:

إن الله خلق نزعتي التنازع والتعاون في البشر لحكمة له فيهما. فلو كان المجتمع البشري يسوده التعاون التام من غير تنازع لصار كمجتمع النحل أو النمل يظل على حاله ملايين السنين دون تغير أو تطور. ولو أنه كان يسوده التنازع من غير تعاون لصار كالحيوانات التي تعيش في الغابات حيث يأكل القوي منها الضعيف.

إن الإنسان يختلف عن النحلة من ناحية ويشبهها من ناحية أخرى. فالنحلة لها غريزة تدفعها نحو بناء الخلية وجمع العسل. أما الإنسان فليست

---

(١) العدد (١٥٣) ١٨ كانون الأول ١٩٨٩.

لديه غريزة تدفعه نحو عمل شيء معين، بل هو مدفوع بدافع غامض هو دافع (الأنوية) الذي يجعله يسعى دائماً نحو رفع مكانته في نظر الآخرين من أفراد مجتمعه.

إن النحلة لا تشعر بالأنوية. أي أنها لا تهتم بتقدير غيرها من أبناء نوعها لها عندما تقوم بعملها المعين. فهي تقوم بعملها كالآلة التلقائية، وهي مجبولة على ذلك بحكم الغريزة الثابتة فيها. وإذا وقف في طريق عملها حائل شعرت بالتوتر وبدأت بالكفاح من أجل التغلب على ذلك الحائل بمقدار جهدها.

أما الإنسان فهو كثير الاهتمام بتقدير الآخرين له على كل عمل يقوم به. وتراه عندما يقوم بعمل ما يتطلع إلى نظرات الآخرين نحوه أو إلى ما سوف يقولون عنه بعد إنجاز عمله. وهو يحاول بكل جهده القيام بما يعجبهم وتجنب ما يسخطهم.

إن الإنسان يسعى دائماً لكي يكون شيئاً مذكوراً. على حد تعبير جون ديوي. وهو لذلك يظل راكضاً لاهثاً طيلة حياته، فإذا نال المكانة التي يبتغيها أخذ يسعى نحو مكانة أرقى منها. ولا يتوقف طموحه إلا بالموت. فسيتريح به ويريح!

إن المجتمعات البشرية تختلف فيما بينها في نوع المكانة العالية التي يسعى الأفراد نحوها. فهناك مجتمعات يكون التقدير فيها للقوي الشجاع الذي يغلب الغير دون أن يغلبه أحد، وهناك مجتمعات أخرى يكون التقدير فيها لصاحب المنصب والنفوذ، أو صاحب الثروة، أو الباحث العلمي. أو الشاعر المشهور، أو غيرهم. فالفرد الذي ينشأ في مجتمع من هذه المجتمعات يتجه طموحه منذ صباه الباكر نحو نيل المكانة التي يقدرها الناس ولا يبالي بغيرها. وبذا يسير المجتمع نحو الارتفاع أو الهبوط تبعاً للقيم الاجتماعية السائدة فيه والتي يجري تقدير الأفراد بها.

وفي هذا يختلف المجتمع النحلي عن المجتمع البشري. فالمجتمع

النحلي لا ينتج غير العسل ولا يعرف غيره. أما المجتمع البشري فهو ينتج أشياء متنوعة منها النافع ومنها الضار. ولهذا يكون المجتمع البشري في حاجة إلى مصلحين ومجددين يرشدونه إلى ترك المضار وإبقاء النافع. إن المجتمع الذي لا يظهر فيه المصلحون والمجددون يبقى جامداً، أو يسير في طريق الفناء.

وجه التشابه:

إن وجه الاختلاف الذي رأيناه بين الإنسان والنحلة يقابله وجه آخر يمكن اعتباره وجه تشابه بينهما.

إن النحلة تسعى طيلة حياتها نحو هدف معين هو جمع العسل ويجب أن لا ننسى أن الإنسان مثلها يسعى طيلة حياته نحو هدف معين، ولكن هذا الهدف لم تعينه الغريزة الطبيعية بل عينته القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع.

انظر إلى الشخص المتهالك على تضخيم الثروة لديه، أو المنكب على تحصيل العلم، أو المغامر لاكتشاف المجهول، أو المخترع الذي يسجن نفسه في مختبره، أو المتهالك على المنصب الرفيع أو الشهرة العريضة، أو غيرهم من شتى أصناف البشر. ماذا يريدون؟ إنهم يدرون أن الهدف الذي يسعون إليه لا ينفعهم بعد موتهم. ولكنهم مع ذلك يظلون راكضين لاهثين حتى ساعة موتهم. ومعنى هذا أنهم لا يختلفون في أساس طبيعتهم عن النحلة التي تكدح في جمع العسل، فكلهم مدفوعون بدافع خارج عن إرادتهم، ولكن النحلة مدفوعة بغريزتها الثابتة بينما هم مدفوعون بدافع (الأنا) الذي يختلف هدفه باختلاف الزمان والمكان.

شاع بين الناس قولهم: (الذكر للإنسان عمر ثان) وهذا قول يمكن اعتباره من الأوهام التي تجعل الإنسان يركض وراء المجد والشهرة بلا حدود. إن الإنسان كما يقول العوام في العراق سوف يأكله الدود بعد موته ولا فرق في ذلك بين أن يكون الإنسان مشهوراً أو مغموراً. أما حساب الله بعد الموت فهو

يقوم على أساس آخر هو العمل الصالح، وليس للشهرة أي أثر فيه، وربما نال المغمور منزلة عند الله أرفع من منزلة المشهور.

حكمة الله:

يعجبني في هذا الصدد المثل العربي القديم هو قولهم: (الإنسان بلا أمل كالنحلة بلا عسل). فهذا المثل يشير إلى التشابه بين النحلة والإنسان في مسعاهما الدائب الذي لا يقف عند حد. ومن الممكن القول إن كلًّا من النحلة يسعى نحو هدف رباني لا يعرفه، إذ هو مسير فيه لا مخير. فالنحلة تسعى نحو جمع العسل بينما الإنسان يسعى نحو عمارة الأرض وتطوير المجتمع البشري.

ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية بأن المقصود منها عبادة الله عن طريق الإخلاص في العمل والدأب من أجل الكسب الحلال، وليس المقصود منها التفرغ للعبادة الشعائرية وحدها.

والواقع أن هذا التفسير للآية تؤيده قرائن عديدة وردت في السنة النبوية. أذكر بعضها فيما يلي:

يروى عن النبي ﷺ أن جماعة من أصحابه مدحوا له رجلاً فوصفوه بكثرة العبادة وقالوا إنه (يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر). فسألهم النبي عن الذي يقدم له ما يحتاج إليه من طعام وشراب، فأجابوا بأنهم هم الذين يقدمون له ذلك، فقال النبي لهم: «كلكم خير منه».

معنى هذا الحديث أن الكاسب الذي يطلب الرزق ويكافح من أجله أفضل من العابد الذي يشغل نفسه بالعبادة وحدها. وقد وردت أحاديث نبوية أخرى تؤيد هذا المعنى هي قوله ﷺ:

١ ـ «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال».

٢ ـ «إن الله يحب المؤمن المحترف».

٣ ــ «الدين المعاملة».

٤ ــ «الكاسب حبيب الله».

٥ ــ «طلب الحلال جهاد».

٦ ــ «إن الله يحب عبداً تعب من طلب الحلال».

٧ ــ «إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج، بل تكفرها الهموم في طلب المعيشة».

٨ ــ «من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له».

٩ ــ «أفضل الأعمال الكسب الحلال».

إن هذه الأحاديث تدل على أن عبادة الله لا تقتصر على القيام بالشعائر المعروفة كما يزعم بعض المتزمتين النصوصيين بل هي تشمل أيضاً عمل الإنسان الدائب في مهنته أو مجاله الذي تخصص فيه، بشرط أن يكون صادقاً في عمله مخلصاً ينفع الناس كمثل ما ينفع نفسه.

معنى هذا أن الفلاّح والعامل والموظف والمهندس والمعلم والطبيب والبائع والحرفي كلهم يعبدون الله إذا بذلوا الجهد في عملهم وأخلصوا فيه.

والملاحظ في بعض الناس أنهم يعبدون الله على الطريقة الشعائرية المعروفة بينما هم في حياتهم العملية يعتدون على الناس أو يخدعونهم أو يغشونهم. إنهم يتصورون الله كأنه أحد السلاطين القدامى الذين كانوا يقربون المتزلفين والمتذللين بين أيديهم ولا يبالون بما يفعل هؤلاء بالرعية.

لقد آن الأوان لكي نقوم بثورة اجتماعية نعود بها إلى القيم الدينية الأصيلة. إن الشعار الذي ينبغي أن نرفعه للناس في المرحلة الراهنة هو: (أيها الناس اعبدو ربكم بالإخلاص في عملكم وبذل الجهد فيه)!





في نقد الماركسية[1]

القسم الأول

إن الأحداث المفاجئة التي تشهدها الآن أوروبا الشرقية قد لفتت الأنظار في مختلف أقطار العالم ومنها العراق، إذ هي أثارت التساؤل حول مصدر النظرية الماركسية والنظام الشيوعي والعالم. وقد طلبنا من الدكتور علي الوردي أن يكتب لنا هذا الموضوع من وجهة نظره علماً بأنه كتب سابقاً في نقد الماركسية مرتين إحداهما في عام ١٩٥٩، والأخرى في عام ١٩٧٨، وكانت كتاباته في المرتين بمثابة تنبؤ بوقوع ما يقع الآن في أوروبا الشرقية.

وقد لبى الوردي طلبنا مشكوراً فكتب لنا مقالاً مسهباً ننشر القسم الأول منه في هذه الحلقة على أن ننشر الباقي منه في الأعداد المقبلة. ونحن من جانبنا نرحب بكل نقاش في هذا الموضوع بشرط أن يكون موضوعياً خالياً من الحماس والعاطفية.

يقول الوردي:

إني عندما نقدت النظرية الماركسية سابقاً لم أكن معادياً لها، بل حاولت أن أكون محايداً تجاهها بمقدار جهدي.

---

(١) العدد (١٥٥) ١ كانون الثاني ١٩٩٠.

إن النظرية الماركسية لها أهميتها في الواقع وهي قامت بدور لا يستهان به في تطوير الفكر البشري. ولكنها كغيرها من النظريات المهمة التي ظهرت في التاريخ لا يمكن أن تكون كاملة خالية من العيوب تماماً، فهي ما دامت من صنع البشر فلا بدّ أن تكون معرضة للخطأ والنقص على وجه من الوجوه.

إن المشكلة ليست في النظرية الماركسية بل هي في اتباعها ولا سيما المتعصبين منهم. فهم جعلوها كأنها وحي منزل من السماء ولا يمكن أن يتطرق إليها الخلل والخطأ. إنهم ينسبون إليها صفة (العلمية) ويعتقدون أنها ما دامت كذلك فهي لا بدّ أن تكون صحيحة دائماً لا عيب فيها ولا يجوز أن يشك فيها أحد.

أصدر أحد هؤلاء الماركسيين المتعصبين كتاباً في العراق في عام ١٩٥٩ قال فيه ما نصه: (الماركسية هي المفهوم العلمي عن الكون والمجتمع، والطريقة العلمية في تعليل الأمور... وهي ظاهرة منطقية وحتمية).

إني احتفظ بنسخة من هذا الكتاب وأحاول القراءة فيه بين حين وآخر لكي أتفرج به على مهزلة العقل البشري. فمؤلف الكتاب غير رأيه في الماركسية بعدئذ على نحو ما فعل الكثيرون من أمثاله وقد كان الجدير به عندما كتب عباراته تلك في الماركسية أن يعلم أن العلم في تغير مستمر، وأن ما يعده العلم اليوم صحيحاً قد يصبح غير صحيح غداً، وليس من الجائز أن يقول عن الماركسية إنها (ظاهرة منطقية وحتمية).

مصدر الخطأ:

إن ماركس كان مفكراً مبدعاً، وهو كغيره من المبدعين لم يأت بنظريته من فراغ، ولا بدّ له من أن يستمد عناصر نظريته من الذين سبقوه ثم يضيف إليها من فكره قليلاً أو كثيراً. وهذا هو شأن المبدعين في كل زمان ومكان.

عاش ماركس في منتصف القرن التاسع عشر، وهو قد استند في تكوين

نظريته على المعلومات التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في زمانه وقد تبين أخيراً أن بعض تلك المعلومات، أو كثيراً منها، أصبح غير مقبول الآن علمياً أو أنه يعد مغلوطاً.

كان القرن التاسع عشر يسمى قرن الغرور العلمي، فقد اغتر العلماء فيه بالمكتشفات العلمية التي توصلوا إليها حينذاك وتخيلوا أنهم استوعبوا معظم أسرار الكون أو الكليات فيها ولم يبق أمامهم سوى اكتشاف الجزئيات والتفاصيل منها. ومن الممكن تشبيه هؤلاء العلماء المغرورين بالمراهق الذي تعلم شيئاً من مبادئ العلوم فظن أنه فهم العلوم كلها.

إن المكتشفات العلمية التي ظهرت في القرن العشرين نسفت كثيراً من المفاهيم التي كانت سائدة في القرن الماضي، وهذا هو الذي جعل ماركس وغيره من مفكري القرن الماضي يبدون لنا كأن معلوماتهم محدودة أو مغلوطة. ونحن سوف نكون مثلهم في نظر الذين يعيشون في القرن القادم أو بعده.

حول المادية:

إن من جملة المفاهيم التي كانت سائدة في القرن الماضي هو مفهوم (المادية). فقد شاعت في ذلك القرن مقولة (بوخنر) المشهورة وهي أن الكون مؤلف من المادة والحركة لا غير وقد تبنى ماركس هذه المقولة ودعاه ذلك إلى إنكار جميع ما جاءت به الأديان من معتقدات غيبية في الله والروح والحياة ما بعد الموت وغيرها. فهذه المعتقدات كلها باطلة في نظر ماركس بحجة أنها لا يمكن تفسيرها حسب مفهوم المادية الذي كان سائداً في زمانه.

إن هذا الموقف المتعصب الذي التزم به ماركس في المادية أدى بالحركة الماركسية إلى التورط في أخطاء أضرت بها من الناحيتين العلمية والنظرية. فمن الناحية العلمية أصبحت الحركة الماركسية معادية للأديان. وهي بذلك خلقت لها خصوماً لم يكن هناك داع للتخاصم معهم. فقد استغل خصوم الحركة

موقف ماركس من الأديان وأخذوا يشوهون سمعتها وينفرون الناس منها. وبهذا أصبحت الحركة الماركسية تحارب في جبهتين، فالمتدينون يحاربونها من جهة والرأسماليون يحاربونها من الجهة الأخرى.

غفل ماركس عن جانب مهم من الطبيعة البشرية، فالإنسان بوجه عام ميال إلى التدين، إذ هو يجد فيه ملجأ نفسياً يصعب الاستغناء عنه تجاه أخطار الحياة ومشاكلها ومصائبها. يجب أن لا ننسى أن الحياة مهما كانت راقية فهي لا يمكن أن تخلو من الأخطار والمشاكل، وقد رأينا الحضارة الحديثة كيف أنها خففت من بعض الأخطار والمشاكل التي كان البشر يعانون منها قديماً غير أنها ابتليت بأخطار ومشاكل من طراز آخر وعلى نطاق أوسع.

كان ماركس يتصور أن تطبيق الشيوعية في مرحلتها النهائية سوف يجعل البشر يعيشون في نعيم وسعادة لا حدّ لهما وسوف تختفي المشاكل والأخطار والمصائب بينهم. وهذا وهم عجيب لا يختلف في أساسه النظري عن أوهام الطوبائيين القدامى الذين كانوا يحلمون بـ (المدينة الفاضلة) ـ على حد تعبير الفارابي ـ وهي المدينة التي تسودها الطمأنينة والتآخي والهناء فلا مشاكل فيها ولا هم يحزنون.

ذكرت في حلقة سابقة كيف أن الحضارة الحديثة أخذت تضعف العقيدة الدينية في النفوس، وهنا يجب أن أذكر أن هذه الحضارة لا تستطيع على كل حال أن تقتلع النزعة الدينية من النفس البشرية اقتلاعاً تاماً، فهي إذا تمكنت من إضعافها في بعض الناس فإن الكثيرين منهم يظلون متمسكين بها على وجه من الوجوه، إذ هم يشعرون بالحاجة الماسة إليها لكي تساعدهم على مواجهة أخطار الحياة ومصائبها.

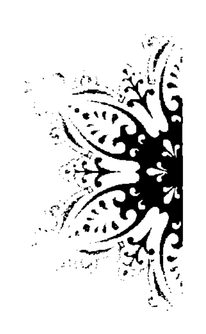
يصف ماركس الدين بأنه (أفيون الشعوب)، أي أنه مخدر للناس يمنعهم من الثورة على الاستغلال الطبقي الذي يعانون منه. ولو فرضنا جدلاً أن الدين مخدر على نحو ما وصفه ماركس، جاز لنا أن نقول إنه مخدر ضروري للبشر إذ

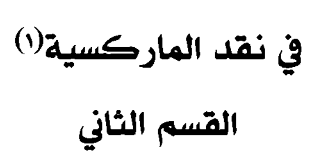
هم يحتاجون إليه لمواجهة المشاكل التي تحيط بهم والكوارث التي تحل بهم ونحن إذا حرمنا البشر من هذا المخدر لجؤوا إلى مخدر من نوع آخر. وهذا هو ما حصل فعلاً في المجتمعات التي ضعفت فيها العقيدة الدينية حيث نجد فيها تصاعد معدلات الكآبة والانتحار والشعور بالاغتراب والإدمان على الخمرة والمخدرات وغيرها.

إن الاستغلال الطبقي ليس وحده المشكلة التي يعاني الناس منها في حياتهم، فهناك مشاكل أخرى عديدة كالخيبة في الحياة. وفقد العزيز والابتلاء بالأمراض التي لا يرجى لها شفاء، وحوادث السيارات والطائرات والكهرباء. وعشرات المصائب وغيرها فإذا حرمنا الذين يصابون بهذه المصائب من العقيدة الدينية التي تمنحهم السلوى والثقة بالله وأنهم سينالون في الآخرة أضعاف ما خسروه في الدنيا، فماذا نقدم لهم بدلاً عن ذلك يا ترى؟

يقول ماركس ومن لفّ لفه: إن العقائد الدينية ليست سوى مجموعة من الأوهام التي لا أساس لها من العلم، فالله غير موجود، ولا وجود للروح والآخرة أيضاً، فلماذا نترك الناس مخدوعين بهذه الأوهام؟! إني أرجئ الرد على هذا القول إلى الحلقة التالية، وسوف نرى كيف أن ماركس ومن لفّ لفه فاتهم الصواب في هذا كمثل ما فاتهم في بعض الأمور الأخرى. وإلى اللقاء!







في نقد الماركسية[1]

القسم الثاني

في الحلقة الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي في نقد الماركسية وتطرق إلى مفهوم (المادية) الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر وهو المفهوم الذي تبناه ماركس ودعاه إلى محاربة الأديان. وفي هذه الحلقة يتحدث الوردي عن مفهوم (المادية) من الناحية النظرية وكيف اختلف في القرن العشرين عما كان عليه في القرن الماضي.

يقول الوردي:

إن المادة في ضوء المعلومات العلمية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر كان لها مفهوم يختلف كل الاختلاف عن مفهومها في القرن العشرين. فقد كانت المادة في القرن الماضي تعد من الأمور البديهية التي لا حاجة للإنسان إلى التفكير فيها أو التساؤل عنها، إذ هي تتمثل في هذه الأشياء التي نمسكها بأيدينا أو نحس بها بإحدى حواسنا الخمس. وقد عرفها أحد العلماء حينذاك بأنها (كل شيء يشغل حيزاً في الفراغ له وزن).

أما الآن فقد أصبحت المادة من الألغاز التي يعجز العقل البشري عن

---

(١) العدد (١٥٦) ٨ كانون الثاني ١٩٩٠.

فهمها فالمادة في نظر العلم الآن مؤلفة من أمواج كهروطيسية أي كهربائية مغناطسية. وقد وقف العلماء حيارى تجاه هذه الأمواج، فهم لا يعرفون كنه الكهرباء والمغناطيس من جهة، كما لا يعرفون طبيعة الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهروطيسي من الجهة الأخرى.

يقول أحد علماء هذا القرن إن المادة لا تختلف في أساس طبيعتها عن أشعة الضوء التي نراها بأعيننا، فكلتاهما تتألف من أمواج كهروطيسية، ولكن الفرق بينهما هو أن أمواج المادة تدور في دوائر ضيقة داخل الذرة، بينما أمواج الضوء تسير في خط مستقيم.

إن هذا التغير الكبير في مفهوم المادة أحدث تغيراً مثله في نظرة العلم إلى الكون وأسراره. فعندما كان العلم في القرن الماضي مصاباً بالغرور أصبح الآن متواضعاً يعترف بجهله وعجزه تجاه أسرار الكون. وقد يصح القول بأن (اللاأدرية) أصحبت السمة الغالبة على العلم في هذا القرن، بينما كانت (القطعية) سمة القرن الماضي.

إن العلماء يقفون اليوم حيارى تجاه ألغاز الذرة المادية كمثل ما يقفون تجاه ألغاز الحجيرة الحية، وألغاز الفلك الواسع، وألغاز الدماغ البشري، فكلما اكتشفوا شيئاً منها ظهرت أمامهم أشياء أخرى أشد غموضاً وتعويصاً.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أنه في الوقت الذي حدث فيه مثل هذا التغير الكبير في نظرة العلم إلى الكون نجد بعض الماركسيين، أو الكثيرين منهم، لا يزالون مصرين على موقفهم القديم في فهمهم للمادة وتفسير الكون. وهم ينظرون إلى (اللاأدرية) نظرة استنكار وازدراء. والمعروف عن لينين أنه كان ينتقد اللاأدرية وقال فيها كلمته المشهورة: (امسح وجه اللاأدري تجده مثالياً).

في رأي لينين أن العلم إذا كان اليوم عاجزاً عن فهم بعض أسرار الكون فهو لا بدّ أن يفهمها غداً، فالعلم في تطور مستمر نحو إدراك الحقيقة المطلقة وهو لا بدّ أن يتوصل إليها في يوم من الأيام.

إن هذا الرأي الذي قال به لينين في أوائل هذا القرن لا ينسجم مع ما يقول به العلم في أواخر القرن. فالعلماء اليوم يردون على لينين قائلين: كيف جاز له أن يحكم حكماً قاطعاً بأن العلم سوف يتوصل أخيراً إلى إدراك الحقيقة المطلقة؟ ومن الذي أخبره بذلك؟ إن المستقبل مجهول. وقد رأينا كيف ازداد جهل العلم كلما ازدادت معرفته، فهو كلما اكتشف مجهولاً واحداً من أسرار الكون ظهرت وراءه عدة مجاهيل. فمتى يا ترى يتوصل العلم إلى الحقيقة المطلقة التي لا حقيقة أخرى وراءها؟!

إن العلم ربما يتوصل في المستقبل القريب أو البعيد إلى الحقيقة المطلقة على نحو ما تنبأ به لينين، ولكن من الذي يضمن لنا ذلك ضماناً أكيداً لكي نحكم فيه حكماً قاطعاً. إن أفضل جواب لهذا السؤال هو أن نقول: لا ندري! وهذا هو جواب العلم في الوقت الحاضر على كل حال. ومن يدرينا ماذا يأتي به العلم في المستقبل!

أخطاء أخرى:

إن تعصب الماركسيين لمفهوم المادية القديم كان سبباً في محاربتهم للأديان على نحو ما أشرت إليه في الحلقة الماضية. والواقع أنهم لم يكتفوا بذلك بل وجدناهم يحاربون أية نظرية علمية جديدة لا تنسجم مع مفهومهم القديم للمادية. وهذا هو الذي جعلهم يحاربون علم الخارقية الجديد ـ أي الباراسيكولوجي ـ عند ظهوره، كما حاربوا قبله نظرية آينشتاين في النسبية، وقوانين مندل في الوراثة، والسبرانية التي يقوم عليها مبدأ الحاسوب، وغيرها.

ومما يلفت النظر أنهم اعترفوا أخيراً بصحة هذه النظريات التي حاربوها من قبل. وقد حاول أحد المفكرين الماركسيين، وهو الدكتور موجيان، تبرير ما فعلوه في هذا الشأن فقال ما نصه:

(إن تلك ليست أخطاء الماركسية بل هي أخطاء ماركسيين فرادى لم

يكونوا قادرين على الفرز بين التأمل المثالي الصوفي المحيط بمسائل علم الوراثة والسبرانية والنظرية النسبية ونظرية الرنين وغيرها وبين جوهر هذه الاكتشافات العلمية الجديدة).

إن ما يقوله الدكتور مومجيان ليس صحيحاً كله، فتلك الأخطاء التي ذكرها لم تكن أخطاء ماركسيين فرادى، بل هي كانت أخطاء عامة تورط فيها أكثر الماركسيين والتزمت بها حكوماتهم رسمياً. وقد رأينا ذلك بوضوح في عهد ستالين الذي استمر نحو ثلاثين عاماً وكيف التزمت الحكومة السوفياتية بالنصوص الماركسية إلى الدرجة التي كان المخالف لها معرضاً للعقوبة.

ولا أريد أن أعيد هنا ما ذكرته في حلقة سابقة عن مقاومة الحكومة السوفياتية في عهد ستالين لعلم الخارقية الجديد، فهي ظلت تقاومه حتى عام ١٩٦٠، ففي ذلك العام علمت الحكومة السوفياتية بأن الحكومة الأمريكية بدأت تستخدم هذا العلم في بعض أسرارها العسكرية مما اضطر الحكومة السوفياتية إلى التحول دفعة واحدة من موقف المقاومة لهذا العلم إلى موقف التشجيع له.

إن من مزايا النظام الرأسمالي أنه لا يلتزم بأية نظرية أو مبدأ التزاماً نصوصياً حرفياً، كما هو الحال في النظام الشيوعي وهذا هو الذي جعل النظام الرأسمالي يتطور ويغير أسلوبه في الحياة حيناً بعد حين.

إن النظام الرأسمالي فيه عيوب كثيرة كما سنأتي إليه، ولكنه في الوقت نفسه له جانب حسن هو أن الحكومات فيه لا تتدخل فيما يفكر الناس فيه أو فيما يعتقدون أو يكتبون. والواقع أن بعض المفكرين الذين عاشوا في النظام الرأسمالي كانوا من أوائل الذين لفتوا الأنظار إلى عيوب هذا النظام ودعوا إلى معالجتها أو الثورة عليها. وقد يكفي أن نذكر منهم ماركس وأنجلز ولينين، فهؤلاء نشؤوا في النظام الرأسمالي ولم يمنعهم ذلك من إعلان الثورة عليه، وهم عندما جاهروا بمبادئهم الثورية لم يتعرضوا لأي اضطهاد أو عقاب.

فلو أن هؤلاء أصحاب المبادئ الثورية كانوا يعيشون في ظل نظام نصوصي جامد لنالوا من العذاب ما نالوا، أو ربما كانوا من المؤيدين للنظام بدلاً من أن يكونوا ثائرين عليه.

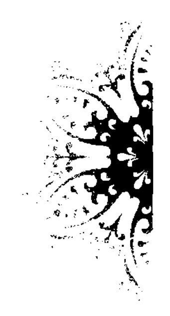
الخلاصة:

خلاصة ما أردت قوله في هذه الحلقة وفي الحلقة السابقة لها هي أن التزام الماركسيين بنصوص نظريتهم التي تجاوزها الزمن أدت إلى وقوعهم في أخطاء كثيرة من الناحيتين العلمية والنظرية.

وإن هذه الأخطاء، كان من الممكن التستر عليها في العصور القديمة، أما في هذا العصر الذي أصبح فيه العالم كله كأنه قرية كبيرة فإن الأخطاء لا يمكن التستر عليها ولا بدّ أن يأتي عليها يوم تنفضح فيه وقد تؤدي إلى الانفجار. وهذا هو ما حدث فعلاً!

(للحديث بقية).





في نقد الماركسية[1]

القسم الثالث

إن الناقدين للماركسية كثروا في هذه الأيام بعد الأحداث المفاجئة التي حدثت في أوروبا الشرقية. وفي هذا مصداق للمثل الشعبي العراقي وهو قولهم: (إذا وقع الجمل كثرت عليه السكاكين). ولكن هذا المثل لا ينطبق على الدكتور علي الوردي لأنه نقد الماركسية قبل هذا مرتين أولاهما: في كتابه: (الأحلام بين العلم والعقيدة) الذي صدر في عام ١٩٥٩، والثانية: في القسم الثاني من الجزء الخامس من كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) الذي صدر في عام ١٩٧٨.

في الحلقتين الماضيتين من هذه الصفحة تحدث الوردي حول مفهوم (المادية) في النظرية الماركسية، وكيف أدى بالماركسيين إلى التورط في أخطاء عملية ونظرية. وفي هذه الحلقة يتحدث الوردي عن النصوصية عند الماركسيين وكيف أدت بهم إلى أخطاء كثيرة.

يقول الوردي:

أقصد بالنصوصية التمسك الحرفي بالنصوص الواردة في أصل النظرية.

---

(١) العدد (١٥٧) ١٥ كانون الثاني ١٩٩٠.

والملاحظ أن بعض الماركسيين، أو الكثيرين منهم، نصوصيون إلى درجة كبيرة وهم يشبهون في ذلك المتزمتين من أتباع الأديان، وهذا هو الذي جعل أحد الباحثين يصف الماركسية بأنها (دين من غير إله).

والواقع أننا لا نلوم أتباع الأديان على التزامهم الحرفي بالنصوص الدينية، فهم يعتقدون أن تلك النصوص وحي من السماء وهي إذن لا بدّ أن تكون كاملة لا نقص فيها. أما الماركسيون فهم في الوقت الذي يعترفون فيه بأن ماركس بشر يخطئ ويصيب نراهم يتمسكون بالنصوص التي جاء بها على نحو ما يتمسك المتدينون بنصوص دينهم.

لا ننكر. أن الماركسيين ليسوا كلهم نصوصيون، فإن فيهم الكثير من المتحررين المتنورين، وقد التقيت بالبعض منهم في بريطانيا وأوروبا غير مرة، وناقشتهم في مواضيع مختلفة، وأعجبت بما لديهم من بعد نظر ومرونة. ومن المؤسف أن أقول إن الماركسيين من هذا النمط المتحرر قليلون في مجتمعنا، إذ إن النصوصية هي الغالبة على الماركسيين فيه، وقد عانينا منهم ما عانينا، ولاسيما في الفترة الغوغائية التي شهدناها قبل ثلاثين سنة حيث كانوا يشجعون الغوغاء على (السحل) ويعتبرونه مكسباً شعبياً.

نموذج نصوصي:

يجب أن لا ننسى أن النصوصيين المتعصبين يسيئون إلى النظرية التي يلتزمون بها من حيث يحسبون أنهم يحسنون إليها. فالدنيا في تغير مستمر بينما هم يريدون البقاء في الزمن الذي ظهرت فيه النظرية رغم أنف الدنيا!

أذكر في هذه المناسبة نموذجاً للنصوصية المتعصبة عند الماركسيين، وهو يتمثل في كتاب صدر في روسيا في عام ١٩٥٨، ويبحث في ثورة العشرين التي حدثت في العراق في عام ١٩٢٠. وقد ألفه مستعرب روسي اسمه (كوتلوف) وقد ترجم الكاتب إلى العربية وصدرت له طبعتان أحدهما: في بغداد في عام

١٠٧١، والثانية: في بيروت في عام ١٩٧٥. وربما صدرت له طبعتان أخريان لا أعرف عنهما شيئاً.

إن هذا الكتاب هو في الأصل رسالة قدمها المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه في المجلس العلمي لمعهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية. وقد وصف المجلس العلمي هذه الرسالة بأنها (غنية في محتواها عميقة في تحليلاتها واستنتاجاتها العلمية). واتخذ قراراً بطبعها. وعندما صدرت ترجمة الكتاب في العراق قوبل بالتقدير والمديح من بعض الماركسيين العراقيين، فكتب أحدهم يصفه بأنه (نموذج حي لأسلوب البحث العلمي الحديث الذي نحن بأمس الحاجة إليه لتقييم تاريخنا في ضوئه). وكذلك كتب المترجم يصف الكتاب بأنه يمتاز على كل المؤلفات الأخرى التي بحثت في ثورة العشرين بكونه يتضمن تحليلاً علمياً للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مهدت للثورة، وأنه اعتمد أسلوباً جديداً في البحث يضع الجماهير التي هي خالقة التاريخ في المكان الأول من الحوادث إذ هو يعتبر جماهير الفلاحين والبدو وشغيلة المدن أنها هي التي أشعلت الثورة وكانت عمادها وقوتها بالرغم من أن قيادة الثورة كانت مؤلفة من شيوخ العشائر ورجال الدين والبرجوازية الوطنية.

لا أكتم القارئ أني حين قرأت الكتاب شعرت كأنه يبحث في ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، أو كأنه يبحث في مجتمع غير المجتمع الذي نعيش فيه، فقد كان كوتلوف نصوصياً في بحثه إلى درجة يندر أن نجد لها مثيلاً في الكتابات التاريخية والاجتماعية. وأرجو من القارئ الذي لا يصدق بقولي هذا أن يقرأ الكتاب بإمعان ليحكم فيه بنفسه.

إني نقدت كتاب كوتلوف في الجزء الخامس من كتابي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) وهو الجزء الذي بحثت فيه ثورة العشرين. ولا أريد أن أعيد الآن ما قلته آنذاك، وقد يكفي أن أذكر هنا ناحية واحدة من الكتاب هي الناحية التي تتصل بالنصوصية اتصالاً مباشراً.

يستند كوتلوف في دراسته على النص الماركسي فيما يسمى (المادية التاريخية) فقد كان رأي ماركس أن التاريخ البشري هو نتاج الصراع بين الطبقات القائمة على أساس اقتصادي، وهو يقول في ذلك إن الشعوب كلها مرت أو تمر عبر تاريخها بمراحل أو أنظمة خمسة هي:

١ ـ المشاعية البدائية.

٢ ـ الرق.

٣ ـ الإقطاع.

٤ ـ الرأسمالية.

٥ ـ الاشتراكية.

ويأتي كوتلوف أخيراً فيضع هذه (المسطرة) ذات المراحل الخمس التي جاء بها ماركس على الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق في أيام ثورة العشرين، ويستنتج من ذلك أن العراق كان حينذاك يعيش في مرحلة الإقطاع، ولهذا كانت ثورة العشرين في رأيه نتاج الصراع بين طبقة الجماهير الكادحة. أي البدو والفلاحين وشغيلة المدن من جهة، وطبقة الأسياد المستغلين لهم من الجهة الأخرى.

إن موضوع ثورة العشرين طويل لا مجال هنا للإسهاب فيه. ومن الممكن القول عنها بإيجاز أنها كان لها جانبان أحدهما يتمثل في المظاهرات والتجمعات الاحتجاجية التي حدثت في بعض المدن كبغداد والموصل وكربلاء والنجف، والآخر يتمثل في النزاع المسلح الذي نشب بين بعض العشائر العراقية والقوات الإنكليزية.

وحين ندرس وقائع النزاع المسلح الذي حدث في الثورة نجد أن العشائر العراقية كانت تجاه هذا النزاع فئتين، إحداهما: شاركت فيه وبذلت فيه تضحيات غير قليلة في الأرواح والأموال، والأخرى: لم تشارك من كلتا الفئتين

لم يحدث فيها أي صراع أو اختلاف بين شيخ العشيرة وأفرادها. فالعشيرة التي شاركت في النزاع المسلح كانت فيه كتلة واحدة بشيخها وأفرادها معاً، وكذلك كانت العشيرة التي لم تشارك فيه. ولم يحصل في أية منطقة من مناطق النزاع المسلح أن ثار العشيرة بمعزل عن شيخ العشيرة أو بخلاف رأيه.

إن النظام العشائري الذي كان سائداً في العراق في العهد العثماني لم يكن نظاماً إقطاعياً على النمط الذي كان سائداً في أوروبا في القرون الوسطى. فلم يكن في العراق سادة وأقنان، بل كان شيخ العشيرة رئيساً لها يحاول ترضيتها بمقدار جهده، لأنه إذا استغل أفرادها أو استبد بأمورهم نفروا منه والتفوا حول أحد منافسيه من إخوته أو أبناء عمه وجعلوه شيخاً لهم بدلاً عنه.

كانت قوة الشيخ مستمدة من التفاف أفراد العشيرة حوله. وهو لم يحصل على الأرض المزروعة إلا بقوة عشيرته. فلم تكن حينذاك أراض مسجلة في دوائر الحكومة، أو كانت الحكومة قادرة على حماية مالكيها، بل كانت الأراضي لمن استحوذ عليها بقوة سلاحه.

إن هذا هو ما أدركناه وأدركه غيرنا من الذين عاصروا تلك الأيام. ولكن كوتلوف والمعجبين به يأتون إلينا أخيراً ليقولوا إن ثورة العشرين كانت ثورة الأقنان المستغلين (بفتح الغين) على الأسياد المستغلين (بكسر الغين). ولو أن ما قالوه كان صحيحاً لوجب أن تكون الثورة قد قام بها أفراد العشائر ضد شيوخهم غير أن الذي رأيناه فعلاً هو أن أفراد العشائر وشيوخها ثاروا معاً وكذلك فعل الذين لم يثوروا.

نموذج آخر:

قرأت في عام ١٩٧٦ مقالة لأحد الماركسيين العراقيين نشرته جريدة (طريق الشعب) التي كانت تصدر حينذاك، وكان كاتبها ينحو فيها منحى كوتلوف في تفسير التاريخ ففي نظره أن التاريخ العربي مر منذ بدايته حسب

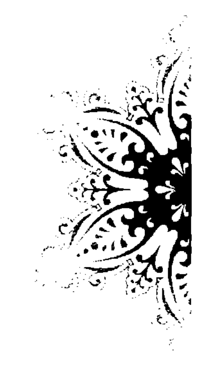
المراحل التي قال بها ماركس، إذ كانت القبائل البدوية قبل الإسلام تعيش في مرحلة المشاعية البدائية، وكانت دويلات اليمن كالمعينية والسبأية تعيش في مرحلة الرق. وهو لم يذكر شيئاً عن ظهور الإسلام والخلافة الراشدة. بل ذكر العهدين الأموي والعباسي ووصفهما بأنهما يمثلان عهد الإقطاع.

ويوجه هذا الكتاب لومه على وزارة التربية لأنه في رأيه لم تقم بواجبها في توجيه التلاميذ نحو هذا التفسير (العلمي) للتاريخ العربي، وهو يقول عن كتب التاريخ التي هي في أيدي التلاميذ بأنها لا تساعد على تنمية التفكير الصحيح فيهم.

إني حين قرأت هذه المقالة في حينها حمدت وزارة التربية لأنها لم تأخذ بنصيحة هذا الكاتب، كما حمدت القدر لأنه لم يمكن هذا الكاتب وأمثاله من أن يتولوا وزارة التربية ويوجهوها حسب نظريتهم (العلمية).

(للحديث بقية).





في نقد الماركسية[1]

القسم الرابع

تحدث الدكتور علي الوردي في الحلقات الثلاث الماضية في نقد الماركسية، وفي هذه الحلقة يواصل الوردي حديثه في هذا الموضوع ويبحث في العلاقة بين النظرية والحركة الاجتماعية في الماركسية وهي العلاقة التي غفل عنها الكثيرون من الباحثين في الماركسية.

يقول الوردي:

إن الماركسية ليست نظرية فقط بل هي أيضاً حركة اجتماعية تستهدف تغيير النظام الاجتماعي. والواقع أن هذه الازدواجية في الماركسية أحدثت شيئاً من الالتباس لدى ناقديها ودارسيها.

يجب أن لا ننسى أن هناك فرقاً كبيراً بين طبيعة النظرية العلمية المحضة والحركة الاجتماعية التي تسعى نحو اجتذاب الأتباع والأنصار لها. فالمفروض في صاحب النظرية العلمية أن لا يلتزم بأي مبدأ أو عقيدة بل هو يسير في بحثه على منهج التشكيك والاستقراء، أما صاحب الحركة الاجتماعية فهو يجب أن

---

(١) العدد (١٥٨) ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٠.

يخاطب الناس بلهج اليقين والعقيدة الجازمة البعيدة عن الشك، وذلك لكي يجتذب إليه الأتباع ويثير فيهم الحماس.

وبعبارة أخرى: إن العلم يجب أن يكون بعيداً عن الحماس والتعصب، وهو لا ينجح إلا في أوساط نخبة من الناس هم الذين كرسوا حياتهم لطلب العلم حسب المنهج الاستقرائي السائد بينهم. أما الحركة الاجتماعية فهي يجب أن تتصف بالحماس والتعصب لكي تجتذب إليها أكبر عدد من الناس.

إن الباحث العلمي يصعب عليه أن يكون محركاً للجماهير، كما أن محرك الجماهير يصعب عليه أن يكون باحثاً علمياً. فكل منهما له منهج يختلف عن منهج الآخر.

إن المنهج الاستقرائي الحديث يختلف كل الاختلاف عن المنهج الاستنتاجي القديم. فقد كان في مقدور المفكر قديماً أن يكون باحثاً وداعية في آن واحد لأن المنهج الاستنتاجي قائم على الكليات العقلية العامة، على نحو ما ذكرته في حلقة سابقة، وهذه الكليات إجبارية ونسبية أكثر مما هي حقائق مطلقة، أما المنهج الاستقرائي الحديث فهو لا يثق بالكليات العقلية العامة بل هو يثق بدلاً عنها بالبحث الموضوعي والتجريبي الذي لا يخضع لأي مبدأ أو عقيدة سابقة، وهو كثيراً ما يغير رأيه تبعاً لتغير المعلومات التي يحصل عليها حيناً بعد حين.

حول طبيعة البشر:

إن ماركس ـ كما أشرت إليه من قبل ـ كان مفكراً مبدعاً وهو كغيره من المبدعين لم يأت بنظريته من فراغ بل هو استند فيها على المعلومات العلمية التي كانت سائدة في زمانه. وهذه المعلومات تتغير باستمرار، فما كان منها مقبولاً في زمان ماركس قد يصبح غير مقبول في زماننا.

وقد ذكرت سابقاً عن المادية وكيف تغير مفهومها في زماننا عما كان عليه

في زمان ماركس. ويمكن أن أقول مثل ذلك عن طبيعة البشر. فإن البحوث العلمية كشفت عن هذه الطبيعة أموراً لم تكن معروفة من قبل، وهذا كان سبباً في بعض الأخطاء التي تورط بها ماركس عند تكوين نظريته.

إن طبيعة البشر ـ كما اتضح الآن علمياً ـ تتفاعل فيها عدة عوامل، كالعامل الاقتصادي والعامل الجنسي والعامل الأنوي والعامل التراثوي والعامل النفسي، وغيرها. ولكن ماركس ركز نظره على واحد منها فقط وهو العامل الاقتصادي ثم فسّر التاريخ كله على أساس الصراع الطبقي القائم على ذلك العامل.

يمكن القول إن ماركس كان مغالياً في نظريته. ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى أن هذا الغلو في ماركس كان من عوامل انجذاب الجماهير إلى نظريته. فالجماهير بطبيعتها أميل إلى الغلو في تفكيرها منها إلى النظرة الموضوعية الرصينة. وهذا أمر لاحظناه في الطوائف الدينية بوضوح.

ومما يلفت النظر أن أنجلز الذي كان رفيقاً لماركس قد فطن إلى طبيعة الغلو في النظرية الماركسية بشكل غير مباشر، فهو يقول في ذلك ما نصه:

(ماركس وأنا نحمل جزئياً مسؤولية كون الشبان يعطون الجانب الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب... ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا أن نؤكد المبدأ الأساسي الذي ينكرونه.. وفي هذه الحالة لم نجد دائماً الوقت والموضع والظرف الذي يتيح لنا إعطاء العوامل الأخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها...).

إن أنجلز في كلمته هذه يشير إلى الشبان الذين أعطوا العامل الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب، كما يشير إلى مسؤوليته هو وماركس في جعل الشبان يفعلون ذلك. فهم في مواجهتهم الخصوم يجب أن يكونوا متحمسين في التركيز من العامل الذي ينكره الخصوم.

إن الجماهير ـ ولاسيما الشبان منهم ـ هم وقود التاريخ. . . وهم يجب أن يسيطر عليهم الحماس والغلو لكي يستطيعوا أن يقوموا بدورهم في تحريك التاريخ. أما الباحث العلمي الذي يجب أن يبتعد عن الحماس والغلو بمقدار جهده فهو يحرك التاريخ من ناحية أخرى.

مأزق لينين:

المعروف عن لينين أنه كان ذا مرونة في التفكير وابتعاد عن النصوصية إلى حدٍّ كبير. . وهو عندما تولى الحكم في روسيا عقب نجاح الحركة البلشفية فيها عانى من الماركسيين المتحمسين ما عانى. فهو قد خالف بعض النصوص التي وردت في نظرية ماركس، فهب بعض النصوصيين المتحمسين ضده، واتهموه بأنه محرف للماركسية أو مارق عنها. وقد كتب لينين في نقدهم كتاباً كان عنوانه (مرض الطفولة اليساري في الشيوعية) أنقل فيما يلي نبذة منه، فهو يقول:

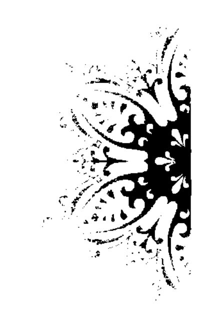
(قال ماركس وأنجلز إن نظريتنا ليست عقيدة جامدة، بل هي هادية للعمل. إن أعظم غلطة وأعظم جريمة اقترفها الماركسيون (من الماركة المسجلة). . . هو أنهم لم يفهموا هذا الأمر ولم يستطيعوا تطبيقه في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا. . .).

يقول لينين: إن النظرية الماركسية ليست عقيدة جامدة. وهذا قول ينفع في بعض الاتباع الذين هم قادرون على النظر الموضوعي الخالي من الحماس، ولكنه لا ينفع في الأكثرية الساحقة منهم، أو لعله يضرهم أكثر مما ينفعهم.

إن هذا المأزق الذي عانى منه لينين في عام ١٩١٧ عانى منه بعض قادة الشيوعيين في العراق في عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. فقد اندفعت الجماهير في بعض المناطق اندفاعاً غوغائياً فظيعاً، واقترفوا أفعالاً منكرة تعد لطخة عار في تاريخ المجتمع العراقي. وقد رأيت بعض القادة من الشيوعيين يستنكرون تلك الغوغائية في الجماهير. ولكنهم سكتوا على مضض.

إن هؤلاء القادة كانوا حائرين بين اتجاهين متناقضين، فهم من جهة يعتبرون حماس الجماهير قوة شعبية يهددون بها الخصوم وقد يتوصلون بها إلى الهدف الذي يسعون إليه. ولكنهم من الجهة الأخرى يجدون فيها اندفاعاً غوغائياً يسيء إلى الحركة ويشوه سمعتها.

إن هذا الموضوع يحتاج إلى شيء من التفصيل، وسوف أحاول الحديث عنه في الحلقة القادمة ـ قل إن شاء الله!.

في نقد الماركسية[1]

القسم الخامس

في الحلقات الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي في نقد الماركسية. والآن يواصل الوردي حديثه في هذا الموضوع ويركز على الفترة الغوغائية التي مرت بالعراق قبل أكثر من ثلاثين سنة وماذا كان موقف الماركسيين منها.

يقول الوردي:

إن الفترة الغوغائية التي مرت بالعراق في عامي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ كانت لها أهمية علمية غير قليلة إذ هي تعطينا صورة واضحة للطبيعة البشرية من بعض نواحيها وإني حاولت دراسة تلك الفترة في حينها بمقدار جهدي، وليس هنا مجال للتفصيل عنها وقد يكفي أن أذكر بعض الجوانب منها مما له صلة بموقف الماركسيين منها.

لا حاجة بي إلى القول إن ظاهرة الغوغاء هي من المواضيع التي بحث فيها علما الاجتماع في عصرنا كما تطرق إليها المفكرون القدامى كثيراً.

---

(١) العدد (١٥٩) ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٠.

والمعروف عن الإمام علي بن أبي طالب أنه كان كثير الذم للغوغاء (والمظنون أن ما شاهده من أفعال الغوغاء الذين قتلوا الخليفة الثالث عثمان هو الذي جعله يمقتهم ويحذر الناس من مغبة الاندفاع معهم).

يروى عن الإمام علي كما ورد في (نهج البلاغة) أنه قال في وصف الغوغاء: (هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا). وقد سئل عن سبب المنفعة في تفرق الغوغاء فأجاب قائلاً: (يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم كرجوع البناء إلى بنائه والنساج إلى منسجه والخباز إلى مخبزه).

ويروى عن الإمام علي أيضاً أنه جيء إليه في خلافته برجل ارتكب ذنباً وكانت حول الرجل جماعة من الغوغاء يهرجون ويريدون الاعتداء عليه فصاح الإمام فيهم قائلاً: (لا مرحباً بوجوه لا ترى إلا في كل سوء).

إن هذا الموقف الذي وقفه الإمام تجاه الغوغاء يشبه موقف السيد المسيح عندما شاهد جماعة من الغوغاء يرجمون بالحجارة امرأة زانية فقال يخاطبهم: (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر).

والواقع أن ما قاله الإمام علي والسيد المسيح يتضمن حكمة اجتماعية بالغة فأفراد الغوغاء يرتكبون الخطايا والذنوب في حياتهم اليومية كثيراً، ولكنهم لايكادون يرون شخصاً مستضعفاً قد ارتكب ذنباً حتى ينتفض فيهم دافع الحرص على الأخلاق أو الدين أو المصلحة العامة أو ما أشبه. هذا مع العلم أنهم لو رأوا شخصاً ذا جاه أو نفوذ أو سلطة قد ارتكب مثل ذلك الذنب لسكتوا عنه، أو ربما أيدوه على ما فعل.

تبين الآن علمياً أن الغوغائيين إنما يقومون بأفعالهم الغوغائية من أجل التنفيس عن رغباتهم المكبوتة، وهم لذلك يندفعون بها بلا حدود حين يأمنون من العقوبة، ولكنهم لايكادون يلمحون سيف العقوبة مسلطاً عليهم حتى يعودوا إلى دينهم القديم في الرضوخ لكل مستبد وفي تجنب كل ما يؤدي إلى الضرر

بهم، وهو السلوك الذي يتمثل في الأقوال الدارجة بين العامة في العراق كقولهم: (يا هي مالتي) و(أنا شعليه)!.

يوم له بعده:

في اليوم الذي أعلنت فيه ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حدثت أحداث غوغائية فظيعة كانت بداية أحداث أفظع منها جرت في مختلف أنحاء العراق وشاء القدر أن يكون على رأس الثورة أشخاص لا يملكون القدر الكافي من الحنكة وبعد النظر، فغضوا النظر عن تلك الأحداث، أو هم شجعوها فأساؤوا بذلك إلى الثورة وإلى أنفسهم.

وفي الوقت الذي كان على رأس الثورة أشخاص من هذا الطراز كان في قيادة الحزب الشيوعي أشخاص لا يقلون عنهم من حيث قصر النظر وقلة الحنكة وبذا سارت الموجة الغوغائية في العراق سيرتها المعروفة.

في حزيران ١٩٥٩ حدثت في بلدة الكاظمية حادثة غوغائية أتيح لي أن أدرسها عن كثب، وخرجت منها بنتائج تلفت النظر من حيث طبيعتها العامة، ومن حيث تأييد الحزب الشيوعي لها.

خلاصة الحادثة: أن زمرة من الغوغائيين كانوا يطاردون رجلاً اتهموه بالرجعية فلجأ الرجل إلى صاحب دكان ليحميه منهم، وكان صاحب الدكان واسمه عبد الأمير الطويل من الأقوياء الذين يعتزون بقوتهم وعنفوانهم، فتحدى المهاجمين وحصلت مشادة عنيفة بينه وبينهم وكانوا هم يحملون الحبال فألقوها عليه، ولعلهم كانوا يريدون أن يجعلوا منه درساً لغيره، وصاروا يسحبونه بها ولم يستطع هو أن يتخلص من حبالهم بالرغم من قوته وعنفوانه وظلوا هم يسحبونه في الشارع، وهم يهتفون: (ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة!).

حدثني من شاهد الحادثة عياناً فقال: إنه رأى عبد الأمير وهو يرفع رأسه من على الأرض في أثناء سحبه ويستغيث بالناس قائلاً: (لخاطر الله خلصوني!

لخاطر موسى بن جعفر)، فلم يأبه أحد منهم بالله أو بموسى بن جعفر ومات عبد الأمير في أثناء سحبه دون أن يرحمه أحد!

استمر الغوغائيون يسحبون جثة عبد الأمير حتى وصلوا به إلى جسر الأئمة، فعبروه، ولكنهم فوجئوا بمقاومة لهم من فوق السطوح التي تشرف على الجسر من جهة الأعظمية حيث أطلق منها عليهم الرصاص، وسقط منهم بعض الجرحى وبذا تحول الغوغائيون فجأة من شجعان يتحمسون إلى جبناء يفرون وألقى بعضهم بأنفسهم إلى النهر طلباً للسلامة. وليس هذا بالأمر الغريب منهم إذ هو ديدون الغوغاء في كل زمان ومكان!

إني انتظرت صباح اليوم التالي لكي أقرأ ما تكتبه جريدة (اتحاد الشعب) التي كانت تنطق بلسان الحزب الشيوعي حينذاك وقد تعجبت حين وجدتها تصف الحادثة بأنها مظاهرة شعبية وتجشب عمل الذين قاموا بإطلاق الرصاص عليها. وإني ما زلت أحتفظ بنسخة الجريدة وقد لفت نظري فيها أنها حين ذكرت (المظاهرة الشعبية) نسيت أن تذكر أنها كانت تسحب وراءها جثة رجل ميت. فهي ركزت نظرها على الاعتداء الذي وقع على المظاهرة بينما هي غضت النظر عن الاعتداء الذي وقع منها.

وبعد أيام من تلك الحادثة أتيح لي أن اتحدث مع أحد قادة الحزب الشيوعي، فوجدته يؤيد ما حدث فيها وكان يعتبر الشاب الذي جرى له (السحل) مستحقاً له، وأن الجماهير التي قامت بسحله إنما فعلت ذلك بدافع الوطنية.

وهنا يجب أن أعترف أن الماركسيين في العراق لم يكونوا كلهم من طراز هذا الذي تحدثت معه فقد كان فيهم الكثيرون من المستائين المتذمرين، ولكن هؤلاء المستائين لم يستطيعوا أن يجهروا برأيهم علناً، وتركوا الموجة الغوغائية تأخذ مجراها حتى انتهت أخيراً بمذبحة الموصل وكركوك..

طبيعة المأزق:

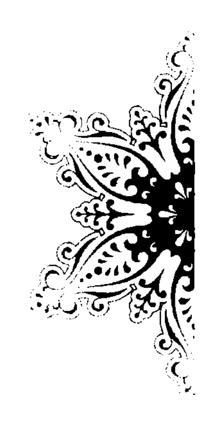
أعود هنا إلى ما ذكرته في حلقة سابقة هو أن النظرية الماركسية ليست نظرية فقط بل هي حركة اجتماعية أيضاً فهي في حاجة إلى أتباع يلتفون حولها وينصرونها ضد خصومهم وهؤلاء الأتباع هم كأمثالهم من أتباع أية حركة اجتماعية لا بدّ أن يكون فيهم الغوغائيون والجهلة قليلاً أو كثيراً وماذا يستطيع القائد أن يفعل تجاه هؤلاء الأتباع وغوغائيتهم؟! إنه لا بدّ أن يواجه مأزقاً من جراء ذلك، أي ما يسمى في علم الاجتماع Dilemma فهو في حاجة إلى الأتباع من جهة ولكنه من الجهة الأخرى يجب أن يكون يقظاً تجاه الاتباع الذين قد يسيئون إلى الحركة بغوغائيتهم.

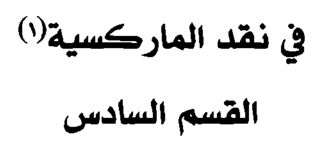
قال أحد مفكري الماركسية: إن القائد يجب أن يكون موقفه أمام الغوغائيين لا وراءهم أي أنه يجب أن يكون مواجهاً لهم يسير أمامهم وليس تابعاً لهم يسير خلفهم حيثما ساروا.

إن هذا القول صحيح، فالغوغاء قوة غير أنها قوة هوجاء، وعلى القائد المحنك أن يعترف كيف يستفيد منها وكيف يجنبها الاندفاع الأهوج في الوقت نفسه ومن المؤسف أن نرى القادة المحنكين من هذا الطراز قليلين جداً أو هم نادرون!

(للحديث بقية).







في نقد الماركسية[1]

القسم السادس

في الحلقات الخمس الماضية من هذه الصفحة تحدث الدكتور علي الوردي في نقد الماركسية من نواحٍ مختلفة، والآن يتحدث الوردي في المقارنة بين النظامين الرأسمالي والشيوعي من حيث صلتهما بالطبيعة البشرية.

يقول الوردي:

إني قد أتيح لي أن أعيش مدة غير قصيرة في بعض البلاد الرأسمالية والبلاد الشيوعية، وخالطت الناس وعرفت أخيراً أن كلاًّ من ذينك النظامين له محاسنه ومساوئه فالنظام الرأسمالي غزير الإنتاج ولكنه في الوقت نفسه يكثر فيه الفقراء المدقعون والمتشردون الذين ينامون على أرصفة الشوارع، وعصابات المجرمين الذين يعيثون في الأرض فساداً وتجار المخدرات إلخ. . .

أما النظام الشيوعي فإن الإنتاج العام فيه لم يصل في مستوى كفاءته وغزارته إلى المستوى الذي وصل إليه في النظام الرأسمالي وكثيراً ما نجد فيه الصفوف الطويلة من الذين يقفون لشراء حاجاتهم الضرورية، ولكنه في الوقت

---

(١) العدد (١٦٠) ٥ شباط ١٩٩٠.

نفسه يخلو من ظواهر الفقر المدقع والتشرد والتسول التي هي كثيرة الانتشار في البلاد الرأسمالية.

يحلو لي في هذه المناسبة أن أذكر النكتة التي جاء بها الكاتب الإنكليزي المعروف برناردشو، فهو كان أصلع الرأس ولكن لحيته كانت غزيرة الشعر وفي ذات يوم أشار برناردشو إلى رأسه ولحيته وقال: إن وضع الشعر فيهما هو كالنظام الرأسمالي (غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع).

إن هذا القول لا يخلو من مبالغة غير أنه لا يخلو من حق في الوقت نفسه، وحين نقارن بين النظامين الرأسمالي والشيوعي نجد أن كلًّا منهما قد تفوق على الآخر في جانب وتأخر عنه في الجانب الآخر.

نظام الملكية

إن من أهم الفروق بين النظامين الرأسمالي والشيوعي هو فيما يشمل بالملكية الخاصة والعامة فالنظام الرأسمالي يراعي الملكية الخاصة ولا يتدخل فيها إلا ضمن حدود معينة. وهذا كان من أهم العوامل في غزارة الإنتاج فيه.

إن الإنسان بطبيعته حريص على ملكه الخاص، وهو يصب تفكيره ويبذل كل جهده من أجل تنمية ملكه وزيادة أرباحه. وهو بذلك يختلف عن الموظف الذي تعينه الدولة لإدارة إحدى مؤسساتها العامة. فالموظف مهما كان مخلصاً حازماً فهو لا يمكن أن يصل في إخلاصه وحزمه إلى مستوى ذلك المالك الحريص على ماله.

إن الذي لاحظته أنا ولاحظه غيري من الذين خبروا الحياة في البلاد الشيوعية هو أن ظواهر التسيب والارتشاء والتفسخ غير قليلة في دوائر تلك البلاد ومؤسساتها العامة ومحلات البيع فيها، فالعاملون في محلات البيع مثلاً قد يقبلون الرشوة من الزبون لكي يقدموا له السلعة التي أخفوها عن الآخرين، والعاملون في المطاعم قد يزيدون في القائمة التي يقدمونها للزبون لكي يزيدوا

بذلك من دخلهم اليومي. إن هذا أمر رأيناه عياناً ورآه غيرنا في البلاد الشيوعية، مع العلم أنه غير مألوف، أو هو نادر في البلاد الرأسمالية المتقدمة.

إن صاحب المحل أو المطعم في البلاد الرأسمالية يكون شديد الرقابة على العاملين لديه وهو لا يكاد يلمح في أحدهم شيئاً مريباً حتى يسرع إلى معاقبته أو إلى طرده من عمله. وهذا يصدق على المصنع الكبير مثل ما يصدق على المحل الصغير.

إن المدير في البلاد الشيوعية لا يملك مثل هذه السلطة تجاه عماله، وهو قد يشعر كأنه واحد منهم، وهو قد يخشى منهم مثل ما يخشون هم منه وهذا وضع أقرب إلى روح العدالة والمساواة مما يجري في البلاد الرأسمالية، ولكن مشكلة الإنسان أنه قد يسيء التصرف عندما تعامله بروح العدالة والمساواة في بعض الأحيان.

إن الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، فهو يسعى وراء مصلحته الخاصة ويدعي أنه يريد المصلحة العامة. وكثيراً ما يخدع الإنسان نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين. وقد انطلت حيلته هذه على الكثير من المفكرين قديماً وحديثاً. وكان ماركس واحداً منهم.

من أخطاء الماركسية:

كان رأي ماركس في الطبيعة البشرية لا يختلف كثيراً عن رأي الطوبائيين القدامى الذين كانوا يتصورون الإنسان خيراً بطبيعته ولكن الظروف السيئة التي أحاطت به هي التي جعلته شريراً.

إن ماركس يعتقد أن الإنسان إنما صار يسعى وراء مصلحته الخاصة لأنه عاش في نظام يسوده الاستغلال الطبقي والطمع والتكالب، فإذا نحن ألغينا هذا النظام وأحللنا مكانه النظام العادل الصالح تحول الإنسان الذي نعرفه إلى إنسان آخر يسعى وراء المصلحة العامة ولا يعرف غيرها.

وقد عبر لينين عن هذه الفكرة الماركسية بوضوح في كتابه (الدولة والثورة) إذ هو يقول فيه: إن تطبيق الشيوعية في مرحلتها الأخيرة سوف يؤدي إلى زوال الطمع والتكالب بين الناس وتسود الطمأنينة فيهم. فكل فرد حينذاك سيكون واثقاً من أنه ينال من النظام كل ما يحتاج إليه من مسكن ومطعم وملبس ومركب، وهو إذن ليس في حاجة إلى اختزان الأموال أو التكالب على السلع كما هو الحال في النظام الرأسمالي.

يقول المفكر الماركسي شارل رابوار حول مرحلة الشيوعية الأخيرة التي ذكرها لينين ما نصه:

(إنما الشيوعية بإلغائها السبب الأصلي للنضال والخصومات ـ أعني الملكية الاحتكارية ـ سوف تبني مجتمعاً جديداً مؤسساً على مبادئ التعاضد والمبادلة الاقتصادية المعقولة، وسوف تمحو كل تبذير وكل عمل غير منتج، وسوف تهدم الخلافات على المصالح، وتخفف السلطة إلى أقل ما يمكن بتشغيلها لا لفائدة طبقة واحدة بل في سبيل فائدة المجتمع كله....).

لا حاجة بي إلى القول أن هذه آراء ذهب زمانها وقد أثبت العلم بطلانها، وهي في فحواها لا تختلف عن فكرة (المدينة الفاضلة) التي كان المفكرون القدامى مولعين بها وهم يتصورون أن الناس سوف يعيشون فيها في صفاء وإخاء تامين لا يعكر صفوهم أي داعٍ من دواعي التنافس والتشاحن والتنازع التي يمتلئ بها المجتمع البشري في وضعه الحاضر. إن من الفروق الأساسية التي تميز الإنسان عن الحيوان أنه لا يكتفي بإشباع حاجاته المادية فقط بل هو يملك الشعور بالأنا ويريد رفع شأنها في نظر الآخرين، وكلما نال مكانة عالية تطلع إلى مكانة أعلى منها.

إننا لو وفرنا للناس جميع حاجاتهم المادية على نحو ما تطمح إليه الشيوعية في مرحلتها الأخيرة، لظل الناس يتشاحنون ويتناسون كما كانوا يفعلون من قبل، وكل واحد منهم قد يقول مع نفسه: (لماذا نال فلان تلك

المنزلة المرموقة، أو ذلك المنصب العالي، ولم أنله أنا؟ وبأي شيء هو أفضل مني؟).

إن البشر متفاوتون في كفاءاتهم البدنية والذهنية ولا يمكن أن يكونوا متساوين فيها أبداً ولكن الإنسان ميال بطبعه إلى تقدير نفسه أكثر مما هي حقيقتها، ولا يرضى أن يقال عنه إنه أقل موهبة أو ذكاء من غيره وهو لا يكاد يرى أحداً من أقرانه قد تفوق عليه في شيء حتى يضمر له البغض ويريد الكيد له وهذا هو من أهم أسباب التنافس والتنازع بين البشر.

إن هذه ليست طبيعة طارئة على الإنسان، بل هي أصلية فيه نلاحظها في الأطفال كما نلاحظها في الشعوب البدائية. ولهذا فإن المفكر الذي يريد أن يبدع نظاماً صالحاً لسياسة البشر يجب أن لا ينسى وجود هذه الطبيعة فيهم.

إن طبيعة التنافس والتنازع لا يمكن أن تزول بين البشر في المستقبل القريب أو البعيد، وكل ما نتوقعه للبشر هو أن يتوصلوا في يوم من الأيام إلى نظام يتحول التنازع فيه من طوره العنيف السائد الآن إلى طور سلمي هادئ.

إن الديمقراطية نجحت الآن في هذا المجال من بعض الوجوه فالأحزاب السياسية في البلاد الديمقراطية تتنافس الآن على الحكم كما كانت تتنافس قديماً وكل واحد منها يحسب نفسه أولى بالحكم من غيره ولكن الأحزاب لا تلجأ إلى السيف في تنافسها، بل هي تلجأ إلى صناديق التصويت. فالحزب الذي يحصل على أكبر عدد من الأصوات فيها هو الذي يصل إلى الحكم وبذا نجا البشر من إراقة الدماء التي عانوا منها على توالي العصور.

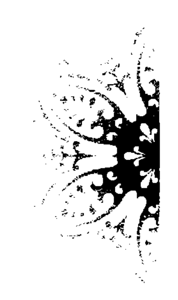
إن الذي يرجوه البشر في مستقبلهم القريب أو البعيد هو أن يعم هذا

النظام الديمقراطي جميع دول العالم كما يعم الأفراد في داخل كل دولة، حيث يسود الناس جميعاً الشعار القائل: (تنازعوا وتنافسوا كما تشاؤون دون أن يعتدي بعضكم على بعض أو يستبد بعضكم ببعض).

إن الاعتداء والاستبداد صنوان، ومصيرهما محتوم لا ريب فيه!

(للحديث بقية).





في نقد الماركسية[1]

القسم السابع

هذه هي الحلقة الأخيرة من حديث الدكتور علي الوردي في نقد الماركسية، وفيها يتحدث عن مصير الماركسية في المستقبل، وهو يعترف بأنه عاجز عن معرفة هذا المصير، فالمستقبل غامض وهو مليء بالمفاجآت على حد تعبيره.

يقول الوردي:

إني عندما شرحت في الحلقات السابقة بعض الجوانب السلبية من النظرية الماركسية لم أكن أقصد أنها خالية تماماً من الجوانب الإيجابية. والواقع أنها كأية نظرية مهمة ظهرت في التاريخ كان لها دورها في تطوير المجتمع البشري كما كان لها أثرها في تحريك الأذهان.

إن النظرية الماركسية كانت بمثابة ثورة على النظام الرأسمالي وما فيه من استغلال طبقي وظلم للعمال والفقراء. فهي كان لها دورها في تحريك الجماهير، وقد يصح أن نقول إنها فتحت عيون المسؤولين في النظام الرأسمالي على ما فيه نظامهم من عيوب مما دفعهم إلى معالجتها قليلاً أو كثيراً.

يقول لينين (بدون نظرية ثورية لا يمكن أن تكون حركة ثورية). وهذا

(١) العدد (١٦١) ١٢ شباط ١٩٩٠.

القول يصدق على النظرية الماركسية إلى حدٍّ كبير. فهي نظرية ثورية أكثر مما هي نظرية علمية، وهي بذلك استطاعت أن تجتذب إليها الجماهير وتحركها. فهي لو كانت علمية محضة لما كان لها مثل هذا التأثير البليغ في نفسية الجماهير.. إن الجماهير ـ كما ذكرته سابقاً ـ أقرب إلى التفكير الحماسي العاطفي منها إلى التفكير الموضوعي البارد.

السؤال الكبير:

يواجهنا في هذا الصدد سؤال كبير هو السؤال الذي يخالج الآن أذهان الباحثين في مختلف أنحاء العالم: ما هو مصير النظام الشيوعي في المستقبل القريب أو البعيد؟ فهل هو سيبقى حياً فعالاً بعد تطويره، أم هو سيتجاوزه الزمن على نحو ما تجاوز النظام الفاشي؟

مر زمن علينا كان النظام الفاشي فيه هو مطمح الأنظار لدى الكثير من الناس في مختلف أنحاء العالم، ثم تبين بعدئذ أنه مصاب بعيوب كبيرة وهي العيوب التي قضت عليه أخيراً.

وإني أتذكر تلك الأيام التي كان فيها ستالين يتحكم في النظام الشيوعي كمثل ما كان هتلر يتحكم في النظام الفاشي. وكان كل منهما استبدادياً لا يفهم من الدنيا غير الفكرة المسيطرة على عقله. وقد اتضح الآن أن النظام الديمقراطي هو النظام الذي يمكن أن ينقذ البشر من الطغاة من أمثال ستالين وهتلر.

إن النظام الديمقراطي لا يخلو من عيوب خاصة به. ولكنه على كل حال أفضل كثيراً من النظام الذي يتحكم فيه شخص واحد. وقد وصف أحد المفكرين النظام الديمقراطي قائلاً: (إنه نظام سيىء ولكن النظام الاستبدادي أسوأ منه).

إن النظام الشيوعي يؤمن بما يسمونه (دكتاتورية البروليتاريا). ومعناه أن مقاليد الحكم يجب أن تتولاها الطبقة العمالية وحدها، وأن تحرم منها الطبقات الأخرى.

وهنا نريد أن نسأل كيف يمكن للطبقة العمالية أن تتولى مقاليد الحكم؟

وما الذي يمنع من ظهور رجل من طراز ستالين أو شاوشيسكو فيتحكم بمقدرات الناس كما يشتهي وهو يزعم أنه يحكم نيابة عن العمال؟!

إن جميع الطغاة الذين تحكموا بمقدرات الناس قديماً كانوا يزعمون أنهم يريدون خير الناس وإسعادهم. فمن طبيعة الإنسان بوجه عام أنه حين يظلم الآخرين يظن أنه يعدل فيهم، وأنه حين ينهمك في شهواته يحسب أنه منهمك في تحقيق المصلحة العامة. وهو إذا لم يجد رادعاً يردعه تمادى في ظلمه وشهواته إلى أبعد الحدود.

إن هذا هو المبدأ الذي قامت عليه الديمقراطية الحديثة، وهو المبدأ الذي عبر عنه مونتسكيو بلفظين هما (الردع والتوازن) فكل حاكم يجب أن يقف تجاهه معارض يردعه، لأنه ليس لديه في نفسه الرادع الذاتي.

عود إلى السؤال:

أعود إلى السؤال الذي ذكرته آنفاً:

ما هو مصير النظام الشيوعي في المستقبل القريب أو البعيد؟

إن هذا السؤال يصعب الجواب عليه الآن، فإن الأحداث العجيبة التي تشهدها أوروبا الشرقية في الوقت الحاضر تبعث على التساؤل والحيرة. ومن الصعب أن نعرف كنهها والدوافع الحقيقية التي تكمن وراءها ونحن في حاجة إلى زمن قصير أو طويل لكي نعرف النتيجة التي سوف تتمخض عنها تلك الأحداث.

إن النظام الذي تطمح إليه البشرية هو ذلك النظام الذي يجمع في نفسه محاسن الرأسمالية والشيوعية معاً، أي غزارة الإنتاج وعدالة التوزيع فهل في مقدور البشرية أن تتوصل إلى مثل هذا النظام المثالي؟

وجهة نظر:

إن النظرية الديالكتيكية التي جاء بها هيجل ثم تبنّاها ماركس بعد تحويرها يمكن أن تساعدنا في الإجابة على السؤال الذي ذكرناه.

فحوى هذه النظرية أن الحياة الاجتماعية هي سلسلة من الصراع والتغير، فكل ظاهرة فيها لا بدّ أن تحتوي على نقيضها ولا بدّ أن يقع الصراع بينها وبين نقيضها بمرور الزمن ويؤدي هذا الصراع إلى ظهور ظاهرة وسطى تحاول التوفيق بين النقيضين. ولكن هذه الظاهرة الوسطى هي بدورها تحتوي على نقيضها وسوف يجري عليها مثلما جرى على الظاهرة الأولى من قبل.

حاول ماركس تطبيق هذه النظرية الديالكتيكية على مسيرة التاريخ البشري من حيث تتابع النظام المختلف فيه ابتداء من نظام الرق وانتهاء بالنظام الشيوعي ولكن ماركس يرى أن الصراع بين البشر سوف يتوقف عند تطبيق الشيوعية في مرحلتها الأخيرة، فالصراع عند ذلك سوف يحدث بين البشر والطبيعة بدلاً من أن يحدث بين البشر أنفسهم.

ففي رأي ماركس أن البشر عند تطبيقهم للشيوعية في مرحلتها الأخيرة سوف يزول عنهم الاستغلال والظلم، وتختفي الحكومة ويعيش الناس في صفاء وتعاون، ويتجه كفاحهم نحو السيطرة على الطبيعة واستثمارها بدلاً من مكافحة بعضهم بعضاً.

إن النقد الموجه إلى ماركس من هذه الناحية هو أن الصراع بين البشر سوف لا يقف عند حد معين مهما تحسنت ظروفهم فالإنسان، كما ذكرناه من قبل، لا تقتصر حاجاته على النواحي المادية وحدها، بل إن له حاجات أخرى أهم منها، وهو لا يرضى بنصيبه منها، ويظل راكضاً لاهثاً طيلة حياته.

قلت سابقاً، وأعيد القول: إن الإنسان ناقص بطبيعته، وليس في مقدوره خلق نظام كامل من الطراز الذي تخيله ماركس أو غيره من المفكرين الطوبائيين، إن أي نظام بشري مهما كان حسناً في نظر الداعين إليه لا بدّ أن يعتروه النقص عند تطبيقه على وجه من الوجوه.

قد يصح أن نقول إن النظام الذي تطمح إليه البشرية ليس هو النظام الخالي من العيوب. بل هو النظام الذي يكون أقل عيوباً من النظم الحالية.



الفهرس





مكتبة بساتين المعرفة
شارع المتنبي . بغداد - العراق هاتف : ٠٧٩٠٢٢٧٨٥٥١
بريد إلكتروني: E-mail: basatenmaraf@yahoo.com